

التبليغ الفنى

فى الفترة الرابع

تأليف

دكتور فى الآداب من الجامعة المصرية ومن جامعة باريس
وحائز دبلوم الدراسات العليا فى الآداب من مدرسة اللغات الشرقية فى باريس

[قدم هذا الكتاب بالفرنسية الى جامعة باريس ونوقش أمام الجمهور فى ٢٥ أبريل سنة ١٩٣١]
ونال به المؤلف إجازة الدكتوراه بدرجة مشرف جداً]

الجزء الثانى

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد على بمصر لصاحبها : مصطفى محمد

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٥٢ هـ = ١٩٣٤ م

تحت الطبع :

- ١ - سرائر الروح الحزين .
 - ٢ - أكواب الشهد والعلقم .
 - ٣ - أسرار وأحاديث .
-

الباب السادس

كتاب الرسائل والعهود

صفحة	
١٩٣	أبو الفضل بن العميد
٢٠٢	نثر ابن العميد
٢١١	أبو حفص بن برد
٢١٨	أبو المغيرة بن حزم
٢٢٦	أبو الفرج البغيا
٢٣٣	نثر أبي الفرج البغيا
٢٤٣	الصاحب بن عباد
٢٥٩	أبو بكر الخوارزمي
٢٧٧	قابوس بن وشمكير
٢٩٠	أبو إسحاق الصابى
٢٩٦	رسائل الصابى
٣٠٢	أبو عامر بن شهيد
٣١٠	نثر ابن شهيد
٣١٩	أبو الفضل الميكالى
٣٢٥	بديع الزمان
٣٥١	نثر بديع الزمان
٣٥٧	عبد العزيز بن يوسف
٣٦٣	الفهرس المفصل
٣٧٣	فهرس الأعلام
٣٩١	المراجع

الباب الرابع

كتاب النقد الأدبى

صفحة	
٧	أبو الحسن الجرجاني
١٧	نقد كتاب الوساطة
٢٧	ابن فارس
٣٧	نقد آراء ابن فارس فى فقه اللغة العربية
٤٨	النقد الأدبى عند ابن شهيد
	أبو بكر الباقلانى ونقد آرائه فى إعجاز
٥٩	القرآن
٨٢	أبو القاسم الآمدى
٨٩	بين صاحب أبى تمام وصاحب البحرى
٩٤	أبو أحمد العسكرى
٩٦	أبو هلال العسكرى
١٠٣	نقد كتاب الصناعتين
١١١	أبو على الحاتمى
١٢٠	أبو عبد الله المرزبانى

الباب الخامس

كتاب الآراء والمذاهب

١٣٣	أبو حيان التوحيدى
١٤٥	أبو على بن مسكويه
١٥٢	الأخلاق عند ابن مسكويه
١٥٩	ابن نباتة الخطيب
١٦٦	أبو محمد بن حزم وآرائه فى الحب
١٧٩	أبو منصور الثعالبى

الباب الرابع

كتاب السبق في الأدب

١ - أبو الحسن الجرجاني

١ - إن للرجل الذي نتحدث عنه في هذا الفصل فضلا على علوم اللغة العربية يجب أن يعرفه طلاب الأدب والبيان .

ويكفي في تقدير فضله أن نشير إلى أنه أستاذ عبد القاهر الجرجاني صاحب "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز" . وسيرى القارئ في درس هذه الشخصية ما لم يكن ينتظره من درس شخصيات الفقهاء .

فأبو الحسن هذا قاض من كبار القضاة عند الشافعية ، ولكنه بالرغم مما يحيط بوظيفة القضاء من قيود الرزاة وأغلال الوقار : رجلٌ طليق العقل ، حيّ الإحساس ، حر الوجدان يلقى إلى فطرته القياد فيما يعمل وما يقول . وأى خسارة كانت تُرزء بها الآداب العربية لو توقر هذا الرجل وترهب وألقى بنفسه في تيار الجمود ! وأى خطر كان يحدق بالقضاء لو أصرم هذا القاضي مشاعره ، وأمات ذوقه ، ودفن إحساسه ، وأغمض عينيه عما في هذا العالم من فنون السحر ، وضروب الفتون !

أفتحسب القضاء بنجوة عما تعرض له النفس الانسانية من ظلمات الفتن وعواصف الأهواء ؟ إن أول صفات القاضي فيما أعتقد أن يكون "إنسانا" له في حياته ما يخضع له من مطامع العقل ، وأمانى النفس ، وحاجات الفؤاد . وإلا فكيف يحكم بين الناس وهو لا يحس بما تدين له النفس الانسانية من نزوات المشاعر ، وهفوات العقول ؟

٢ - ولد أبو الحسن علي بن عبد العزيز في مدينة جرجان سنة ٢٩٠ للهجرة . وجرجان هذه مدينة مشهورة بين طبرستان وخراسان ، كما ذكر ياقوت . وقد نخرج منها عدد من الأدباء

(١) هكذا يقول ياقوت في معجم الأدباء ص ٢٤٩ ج ٥ ، ولكنه يقول في ص ٣ ج ٧ : إن عبد القاهر ليس له أستاذ سوى محمد بن الحسين ابن أخت أبي علي الفارسي ، وكذلك قال السيوطي في بنية الوعاة ص ٣١٠

والعلماء والفقهاء والمحدثين . وكانت لعهد من عُرِفَت بهم من كبار الباحثين مشهورةً بالصناعة المتينة ، والفواكه الكثيرة : فكان فيها الإبريسم الجيد الذي لا يستحيل صبغه ، والذي كان يحمل الى جميع الآفاق ، وكان بها كثير من النخل والزيتون ، والجوز والرمان ، وكان بها ما شاء القناص من الأجادل والزرازير : والطباء واليعافير . وكانت فوق هذا كله مشهورة بالخمر ، وفيها يقول ابن نحریم ، أو الأفيشر اليربوعي — تردّد في ذلك صاحب معجم البلدان — :

وصبّاء جرجانية لم يطف بها	حنيف ولم ينغر بها ساعةٍ قدُرُ
ولم يشهد القس المنيّم نارها	طروفا ولم يحضر على طبخها حَبِر
أثنى بها يحيى وقد نمت نومة	وقد لاحت الشعري وقد جَنَحَ النسر
فقلت أصطبِحها أو لغيري فأسقيا	وما أنا بعد الشيب ويحك والخمر
تعففت عنها في العصور التي مضت	فكيف اتصّابي بعد ما كَلَأُ ^(١) العمر
إذا المرء وفّى الأربعين ولم يكن	له دون ما يأتي حياءً ولا ستر
فدعه ولا تنفس عليه الذي أتى	وإن جرّ أسباب الحياة له الدهر

قال ياقوت : وكان أهل الكوفة يقولون : من لم يرو هذه الأبيات فانه ناقص المروءة^(٢) . ونرى أن لفظة ما كان يجرجان من النواكه ولشهرتها بالخمر تأثيراً فيما كان لأهلها من رقة الحس ، ودقة الذوق . وفي ظلال هذه المدينة الممتنة في تنسيق المزارع والمصانع نشأ أبو الحسن الذي برع من تقدّمه من الكتّابين في أساليب البيان .

٣ — ولقد ظلت جرجان أئيرة لديه طول حياته وكان الصاحب بن عباد فيما قال يقسم له بها من إقباله وإكرامه أكثر مما يتلقاه به في سائر البلاد .

قال : وقد استعفيته يوماً من فرط تحقّيه بي وتواضعه لي فأنشدني :

أكرم أخاك بأرض مولده وأمدد من فعلك الحسني

(١) كَلَأُ العمر : انتهى الى آخره وانقضاء . (٢) ورد حديث هذه الأبيات قبل ياقوت في الأمالي .

فالعز مطلوب وماتمس وأعزّه ما نيل في الوطن

ثم قال : قد فرغت من هذا المعنى في العينة . يريد قوله :

وشيدت مجدى بين قومي فلم أقل ألا ليت قومي يعلمون صنيعى

قال : والأصل فيه قوله تعالى : ﴿ يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربى وجعلنى من المكرمين ﴾^(١) . ورغبة الرجل في أن يكرم في وطنه وبين أهله من الأمانى الانسانية التى تحدث بها الشعراء في مختلف الاجيال .

قال الثعالبي : "وكان في صباه خلف الخضر في قطع عرض الأرض وتدوين بلاد العراق والشام وغيرها وأقتبس من أنواع العلوم والآداب ما صار به في العلوم عالماً ، وفي الكمال عالماً . ثم عرج على حضرة الصاحب وألقى بها عصا المسافر فاشتد اختصاصه به ، وحل منه محلاً بعيداً في رفعتة ... وتقلد قضاء جرجان من يده . ثم تصرفت به أحوال في حياة الصاحب وبعد وفاته بين الولاية والعطلة . وأفضى محله الى قضاء القضاة بالرى فلم يعزله عنه إلا موته رحمه الله^(٢) . وكانت وفاته بالرى يوم الثلاثاء لست بقين من ذى الحجة سنة ٣٩٢ — وحمل تابوته الى جرجان فدفن بها . وحضر جنازته الوزير القاسم بن على وأبو الفضل العارض راجلين . فيما ذكر ياقوت^(٣) .

٤ — ألف أبو الحسن الجرجاني في الفقه والأدب والتاريخ . أما تأليفه في الفقه فلم يصلنا منه شيء . وقد جاء في طبقات الشافعية أنه صنف كتاباً في الوكالة فيه أربعة آلاف مسألة . ولو وصل إلينا هذا الكتاب لعرفنا كيف استطاع هذا القاضى الأديب أن يخدم التشريع . وأما تأليفه في التاريخ فلم يُعرف منه إلا كتاب تهذيب التاريخ وهو كتاب وصفه الثعالبي بأنه (تاريخ في بلاغة الألفاظ وصحة الروايات وحسن التصرف في الانتقادات)^(٤) وقد ضاع هذا الكتاب ولكن الثعالبي حفظ لنا منه فصلين اثنين يمكن أن نعرف منهما متجى هذا الرجل في دراسة التاريخ :

(١) ص ٢٥٢ ج ٥ معجم الأدباء . (٢) ص ٢٣٨ ج ٣ يتيمة (٣) ص ٢٤٩ ج ٥

(٤) ص ٢٤٢ ج ٣ يتيمة .

فهو يبين في الفصل الأول أن من غرضه أن يكشف عن مغازى رسول الله وحروبه ، وعن سراياه وبعوثه ، ومتى قارب ولان ، وفي أى وقت جاهر وكاشف - ويبين في الفصل الثانى أنه يرمى بكتابه الى غرض دينى وغرض دنيوى : فيبين من الوجهة الدينية كيف طمس الله معالم الشرك ، وأوضح معارف الحق . ويترك من الوجهة الدنيوية أثرا يذكر به عند الصاحب ابن عباد ... وهذا الاتجاه يدل على أن هذا الرجل كان يستخدم التاريخ في نشر الدعوة الاسلامية . واستخدام التاريخ في الأغراض الدينية والسياسية يحمل المؤرخ على مكاره كثيرة ينجو منها من يحاول أن يجعل التاريخ صورة صادقة للأمم والشعوب . وقد يكون للصاحب بن عباد مثالا ميلٌ خاص الى بعض الأحزاب الاسلامية . ولهذا أثره المحتوم في كتاب يوضع بنيته وإرشاده . وتلك خطة قد تكون نبيلة باعتبار ما ترمى اليه : فطالما آعزت الأمم بما قد يصور به ماضيها من شتى التهاويل . ولكنها خطة خطيرة على التاريخ .

أما تأليفه في الأدب فقد بقى لنا منه "كتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه" وسنعود اليه . وأما آثاره الأدبية فلم يبق منها إلا طائفة من الشعر المختار هي عدتنا في تصوير نفس ذلك القاضى الأديب .

٥ - كانت نفس القاضى على بن عبد العزيز الجرجاني نفسا غالية : فلقد ترك لنا في شعره صورة لنفسه الأبية العزيزة ، التي حرمت عليه طيبات الحياة : إيثارا للعزة والأنفة والكرامة ، وصونا للعرض من الدنس ، وإبعادا للرؤءة عن مواطن الابتذال . وسيرى القارئ حين نقدم له صورة تلك النفس الغالية ، الغالية . ولو شئت لكررتها ثلاثا . سيرى فيها عزاء له إن كان من الذين وقفت نفوسهم الأبية في سبيل ما يستهون من بسطة الرزق ، وصوله الجاه . ومن ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فينتقل ما نكتب عن هذه النفس الى من خلعوا نفوسهم عند أبواب المطامع ، وأقبلوا على مصارع الفضل مهطعين ؟ لقد عزت نفس قاضى القضاة وأسرفت في التصون ، إن كان في التصون إسراف ، وما زالت به تصده عن مواطن الشبهات ومظان الريب والظنون حتى زينت له العزلة والآنفراد . وشعره في هذا المعنى مثال من

الأمثلة العليا التي يعتز بها كاتبي كبار النفوس . فليسمع أهل العلم كيف يصف نفسه ذلك العزيز الأتوف :

يقولون لي فيك انقباض وانما	رأوا رجلا عن موقف الذل أجما
أرى الناس من دانا همو هان عندهم	ومن أكرمه عزة النفس أكرما
وما زلت منحازا بعرضي جانبا	من الذم أعتد الصيانة مغنا
إذا قيل هذا مشرب قلت قد أرى	ولكن نفس الحر تحتمل الظما
وما كل برق لاح لي يستفزني	ولا كل أهل الأرض أرضاه منعا
ولم أقض حق العلم ان كان كلها	بدا طمع صيرته لي سُلما
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي	لأخدم من لا قيت لكن لأخدما
أشقى به غرسا وأجنيه ذلة	إذن فأتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم	ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهانوا ودفنوا	مُحياه بالأطاع حتى تبهما
وفي هذا المعنى يقول من كلمة ثانية :	
على مهجتي تبني الحوادث والدهر	فأما أصطباري فهو ممتنع وعُر
كأني ألاقى كل يوم ينوبني	بذنب وما ذنبي سوى أنني حر
فان لم يكن عند الزمان سوى الذي	أضيق به ذرعا فعندى له الصبر
وقالوا توصل بالخضوع الى الغنى	وما علموا أن الخضوع هو الفقر
وبيني وبين المال بابان حرما	على الغنى : نفس الأبية والدهر
إذا قيل هذا اليسر عاينت دونه	مواقف خير من وقوف بها العسر
إذا قدموا بالخير قدمت دونهم	بنفس فقير كل أخلاقه وفر

في هاتين الكلمتين صورة لتلك النفس المعذبة التي قضى عليها الفضل بالشقوة والحرمان .
وأشرف ما وصف به ذلك القاضى حظه من العزة تصويره للطيبات تُعرض عليه عرضا
فيأبأها إيثاره للصون وحرصه على الجلال . يتمثل هذا في قوله :

إذا قيل هذا مشرب قلت قد أرى ولكن نفس الحتر تحتمل الظن
وقوله :

إذا قيل هذا اليسر عاينت دونه مواقف خير من وقوفى بها العسر
وقوله :

وبنى وبين المال بابان حرماً على الغنى : نفسى الأبية والدهر
ويرحم الله من يعانى ثورة النفس ، وقسوة الزمان !

٦ -- وما أحب أن أترك هذه الناحية من أبى الحسن الجرجاني قبل أن أقف القارئ على لون آخر من ألوان تلك النفس ، فقد رأى كيف يشور على زينة الحياة الدنيا سخطاً على ما يصحبها من مواقف الهوان . فلينظر كيف يعتذر من أنقباضه عن أخويه ، وكيف يلمح برفق ولطف الى ما طوى عنه إباؤه من أسباب النعيم ، وكيف أنس بالوحدة والوحشة هرباً من مواقع الظنون ، وكيف جعل نفوره من العالم سجيّة فطر عليها منذ قضى الله أن يلقى به فى ظلمات هذا الوجود ، وذلك حيث يقول :

أيا معهد الأحاب ذكّرهم عهدى	ودم لى وإن دام البعاد على الود
ولى خلق لا أستطيع فراقه	يفوتنى حظى ويمتنعنى رشدى
نفور عن الإخوان من غير ريبة	يعدّ جفاءً والوفاء لهم وكدى
غذيت به طفلاً فان رمت هجره	تأبى وأغرتنى به ألفة المهدي
كما ألفت كفا كما البذل والندى	فأعيا كما أن تمنعا كف مستجدى
على أننى أقضى الحقوق بنيتى	وأبلغ أقصى غاية القرب فى بعدى
ويخدمهم قلبى وودى ومنطقى	وأبلغ فى رعى الذمام لهم جهدى
فإن أنتم لم تقبلوا لى عذرة	والزمتانى فيه أكثر من وجدى
فقلوا لطبعى أن يزول فانه	يرى لكما حق الموالى على العبد

٧ — كان القاضي أبو الحسن الجرجاني من المغرّمين بالتغريد على أفنان الجمال .
وشعره في وصف الملاحاة ذو أفانين وشجون . فقد نراه يترنم بمظاهر الحسن ، ويتغنى بما
فضح الشباب من أسرار الصباحة . كقوله — في الخلد المورّد والطرف الكحيل — :

أُثر على خدّي من وردك أودع في يقطقه من خدك
أرحم قضيب البان وأرق به قد خفت أن ينقذ من قدك
وقل لعينيك بنفسى هما يخففان السقم عن عسبك

وقوله — في مغازلة النديم — :

أفدى الذى قال وفي كفه مثل الذى أشرب من فيه
الورد قد أينع في وجنتي قلت في باللثم ينجيه

وقوله — في فتنة الألاحظ — :

من ذا الغزال الفائن الطرف الكامل البهجة والظرف
ما بال عينيه وألحاظه دابّة تعمل في حتفى
وأهاً لذلك الورد في خده لو لم يكن ممتنع القطف
أشكو الى قلبك يا سيدي ما يشتكى قلبى من طرفى

وقوله — في اختلاس التقييل — :

وغنّج عينيك وما أودعت أجفانها قلب شيج وامق
ما خلق الرحمن تفاحتي خديك إلا لقسم العاشق
لكننى أمتنع منها فما حظى إلا خلسة السارق

وقوله — في القسم يحنود الجمال — :

لا وجفون يغضها العذل عن وجنات تذيبها القبل
ومهجة للهوى معرضة تعبث فيها القدود والمقل
ما غاب من غاب عن ذراك وان أخرج ميقات يومه الأجل

وهذه التطلع التي آخترناها من شعره في الأوصاف الحسية تمثله شره الخواس . وله في هذه المعاني أشعار طريفة يقضى العرف الاجتماعي بأن لا تنشر في مثل هذا الكتاب فلنطوها عن القارئ طاعة للتقاليد . وإحساس هذا القاضى بالجمال جعله يختلق الأسباب ليفصح عما يعنى نفسه من أغلال الوجد الدفين . ولننظر كيف يتحدّث عن سحر العيون وهو يشكو الزمان إذ يقول :

مَنْ عاذرى من زمن ظالم ليس بمستحي ولا راحم
تفعل بالأحرار أحداثه فعل الهوى بالذنف المائم
كأنما أصبح يرميهمو عن جفن مولاى أبى القاسم

وفي تصيّد أسباب الغزل وموجبات التشيب يقول في تفدية حبيب نال من دمه مبضع الطبيب :

يا ليت عيني تحملت ألمك بل ليت نفسى تقسمت سقمك
وليت كف الطبيب إذ فصدت عرقك أجرت من ناظريّ دمك
أعرتّه صبيغ وجنتيك كما تعيره إن لثمت من لثمك
طرفك أمضى من حدّ مبضعه فألحظ به العرق وآرتجز ألمك

٨ — وقد يلهو هذا القاضى الأديب عما في الجمال من نعيم الخواس ، ويعود الى بكاء ما ذهب من أنسه في أيامه السوالف ، ولياليه الخوالى . فيذكرنا بلوعة الشريف الرضى الذى كاد ينفرد برقة الحنين . ولننظر كيف يذوب روحه وهو ينادى النسيم :

يا نسيم الجنوب بالله بلّغ ما يقول المتيم المستهام
قل لأحبابه فداكم فؤاد ليس يسألو ومقلة لا تنام

وكيف يقول في خطاب الديار، ديار الأنس المفقود :

يا ديار السرور لا زال يبكى بك فى مَضْحَك الرياض غمّام
ربّ عيش صحبته فيك غض وجفون الخطوب عنا نيام

في ليال كأنهن أمان من زمان كأنه أحلام
وكأن الأوقات فيها كؤوس دائرات وأنهن مدام
زمن مسعد وإلف وصول ومنى تستلذها الأوهام
كل أنس ولذة وسرور قبل لقياكمو على حرام

وقد أطلق الشاعر خياله في هذه الأبيات فأضحت معانيه كأنها خيال في خيال . أليس
يذكر أن عيشه الغض كان :

في ليال كأنهن أمان من زمان كأنه أحلام

ولكن من ذا الذي ينكر جمال هذا الخيال ؟ أو من ذا الذي لا يروقه نوم جفون
الخطوب ؟

ومن جيد الشعر قوله في الحنين الى ليالى بغداد :

أراجعته تلك الليالى كمهددا الى الوصل أم لا يُرتجى لى رجوعها
وصحبة أقوام لبست لفقدهم ثياب حداد يستجد خلعها
إذا لاح لى من نحو بغداد بارق تجافت جنوبى وأستطير هجوعها
وإن أخلفتها الغاديات رعوها تكلف تصديق الغمام دموعها
سقى جانبى بغداد كل غمامة يحاكى دموع المستهام هموعها
معاهد من غزلان إنس تحالفت لواظها أن لا يُداوى صريعها
بها تسكن النفس النفور ويفتدى بآنس من قلب المقيم نزعها
يحن إليها كل قلب كأنما تشاد بجبات القلوب ربوعها
فكل ليالى عيشها زمن الصبا وكل فصول الدهر فيها ربيعها
وما زلت طوع الحادثات تقودنى على حبكها مستكرها فأطيعها

راجع هذا الشعر أيها القارئ وقلب النظر في ثنايا ذلك الروح الحزين . فسترى تلك
اللوعة الدفينة وذلك الوجد الدخيل يرجعان الى الكلف بمظاهر الحسن ، والظما الى معاهد

تلك الظباء التي تحافقت لحاظها أن لا يداوى لها صريع، أو يبرأ منها جريح، أو يُبكي في ظلها قتيل . وما أضيع الدمع المسفوح فوق أمان الجمال ! .

وما أحب أن يغفل القارئ عن رقة الشوق في هذين البيتين يصف بهما الشاعر معاهد تلك الظباء :

بها تسكن النفس النفور ويقتدى بأنس من قلب المقيم نزيها
يحن إليها كل قلب كأنما تشاد بجيات القلوب ربوعها^(١)

والمعجب في هذا الشعر أن تصوّر نفس المحب في غربته ونواه وهي تأنس بديار الأحباب فوق ما يأنس المقيم ! أهذا حق ؟ أهذا مما يشهد به الوجدان ؟ قد يكون ذلك . وغيرى عنده الخبر اليقين ! .

ولكن أين أس الطاعن من نعيم المقيم ؟ وأين روح الذكري من نشوة الأصطباح بوجوده الملاح ؟ ومن يدرى لعل من أنس بهم هذا الغريب أعانتهم غربة النوى على نسيان العهود !

رويدكم لا تسبقوا بقطيعتي صروف الليالي إن في الدهر كافيا
أفي الحق أنى قد قضيت ديونكم وأن ديوني باقيات كما هيا
فوأسنى حتام أرعى مضيعا وآمن خؤانا وأذكر ناسيا
وما زال أحبابي يسيئون عشرتي ويحفونني حتى عذرت الأعاديا

(١) ما نقلناه من شعر الجرجاني يجلده القارىء في أخباره باليتيمة — ج ٣ — ومعجم الأدباء — ج ٥ —

٢ - كتاب الوساطة

١ - «الوساطة بين المتنبي وخصومه» كما سماه صاحب وفيات الأعيان، أو «الوساطة بين المتنبي وخصومه ونقد الشعر» كما سماه صاحب كشف الظنون : هو كتاب في النقد لأبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني . يقع في ٣٦١ صفحة بالقطع الكبير طبعه وصححه وشرح بعض ألفاظه حضرة أحمد عارف الزين من أدباء صيدا في سنة ١٣٣١ هجرية . نقلا عن نسختين مخطوطتين إحداهما بمصر وأخرهما بالعراق . ولم تسلم هذه الطبعة مع ما بذل فيها من الجهد من مظاهر النقص والتحريف . أحسن الله لناشرها الجزاء .

٢ - ذكر الثعالبي أنه لما عمل الصاحب بن عباد رسالته المعروفة في إظهار مساوي المتنبي عمل القاضي أبو الحسن كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه .^(١)

أما المؤلف فيذكر أنه رأى أهل الأدب في المتنبي فئتين : فئة تطنب في تقريره وتتناول من ينقصه بالاحتقار والتجهيل ، وفئة تجتهد في إخفاء فضائله وإظهار معاييه . وكلا الفريقين إما ظالم له أو للأدب فيه ، وأنه رأى من البر بالآداب - وهي أرحام لأبنائها - أن يقول كلمة الحق في الفصل بين المتنبي وخصومه المسرفين . ويقول في الحرص على الأواصر الأدبية : « وما من حفظ دمه أن يسفك بأولى ممن رعى حريمه أن يهتك . ولا حرمة أولى بالعناية وأجق بالحماية وأجدر أن يبذل الكرم دونها عرضة ويمتن في إعزازها ماله ونفسه من حرمة العلم الذي هورونق وجهه ، ووقاية قدره ، ومنار اسمه ، ومطية ذكره . وبحسب عظم مزيتة ، وعلو مرتبته ، يعظم حق التشارك فيه . وكما تجب حياطته تجب حياطة المتصل به وبسببه . وما عقوق الوالد البر ، وقطيعة الأخ المشفق ، بأشنع ذكرا ، ولا أقبح سمّا من عقوق من ناسبك إلى أكرم آبائك ، وشاركك في أخف أنسابك ، وقاسمك في أزين أوصافك ، ومثّ اليك بما هو حظك من الشرف وذريعتك إلى الفخر » .^(٢)

وهذا الحرص على بنوة العلم وأخوة الأدب لا يحمل القاضى الجرجانى على التعصب المطلق . وإنما يزين له أن يحوطه بالعدل والانصاف فيقول في ذلك :

”وكما ليس من شرط صلة رحمك أن تحيف لما على الحق أو تميل فى نصرها عن القصد فكذلك ليس من حكم مراعاة الأدب أن تعدل لأجله عن الإنصاف، أو تخرج فى بابها الى الإسراف . بل تتصرف على حكم العدل كيف صرفك، وتقف على رسمه كيف وقفك . فتتصف تارة وتعتذر أخرى، وتجعل الإقرار بالحق عليك شاحدا لك اذا أنكرت . وتقيم الاستسلام للحجة اذا قامت محتجا عنك اذا خالفت . فانه لا حال أشد استعطافا للقلوب المنحرفة، وأكثر استمالة للنفوس المشمئة، من توقفك عند الشبهة اذا عرضت، واسترسالك للحجة اذا قهرت“^(١) .

وأخوة الأدب هذه عُرِفَتْ قبل هذا القاضى الأديب فى شعر أبى تمام وديك الجن وعلى ابن الجهم والبحترى وعلى بن محمد الكوفى . وللقارئ أن يرجع الى ما قيل فيها من جيد الشعر فى الجزء الثالث من زهر الآداب ليرى كيف تأثر هذا الكاتب المبدع بما أطال النظر فيه من دقائق الشعر البليغ .

٣ - وضع القاضى الجرجانى لكتاب الوساطة مقدمة طويلة تكلم فيها عن أغلاط الشعراء فى الجاهلية وعن تأثير الطباع والأمكنة فى رقة الشعر وجفافه . وانتقل الى الكلام عن أبى تمام والبحترى وجريروأبى نواس فذكر ما لطم من المحاسن والعيوب .

وساقه هذا الى بحث الاستعارة والجناس والتصحييف والتقسيم . ثم أخذ فى الحديث عن المتنبي فذكر السخيف والمعقد من شعره وتكلم عن تخلصه ومطالعه واعتذاره وفلسفته وسرقاته الشعرية وما أنكروا العلماء عليه وما قيل فى الاعتذار عنه . وقد جرت هذه الأبحاث الى الكلام عن التشبيه واختلاف الناس فى التشبيهات ، وتفاوت الشعراء فى صوغ اللفظ والمعنى واختلافهم فى أخذ الألفاظ والمعانى الى غير ذلك مما كان يوجب الأتس بالاستطراد عند المتقدمين .

وزيد في هذا الفصل أن ندرس مع القارئ بعض النظريات الأساسية لصاحب الوساطة وأن نتبين معه ما فيها من القوة أو الضعف وأن نكشف عنها ما قد يلابسها أحيانا من الغموض . راجين أن يكون في هذه المراجعة فائدة لمن تعينهم دراسة الآداب .

٤ — انفرد الجرجاني، أو كاد، بالشك في سلامة الشعر الجاهلي من الضعف والحن . فقد كانت جمهرة الباحثين ترى أن شعراء الجاهلية أعز من أن تؤخذ عليهم هفوة أو تحسب عليهم سقط . وكان من النحاة من يعنى نفسه بتصويب الجاهليين والمخضرمين والأمويين حين يجد الناقد في شعرهم ما يذهب بقيمته من شنيع الأخطاء، وقبيح الأغلاط . ولكن الجرجاني يرى أن الدواوين الجاهلية لاتسلم فيها قصيدة من بيت أو أكثر يمكن القدح فيه : إما في لفظه ونظمه ، أو ترتيبه وتقسيمه ، أو معناه وإعرابه ويقول .

« ولولا أن أهل الجاهلية جدوا بالتقدم واعتقد الناس فيهم أنهم القدوة والأعلام والحجة لوجدت كثيرا من أشعارهم معيبة ومستزلة ومردودة منفية . لكن هذا الظن الجميل والاعتقاد الحسن ستر عليهم ونفى الظنة عنهم . فذهبت الخواطر في الذب عنهم كل مذهب وقامت في الاحتجاج لهم كل مقام » .^(١)

وهو يستنكر تسكين الفعل من غير موجب في قول امرئ القيس :

فاليوم أشرب غير مستحب^(٢) إنما من الله ولا واغل^(٣)

وإسقاط النون لغير إضافة ظاهرة في قوله :

لها متتان خطاتا^(٤) أكب على ساعديه النمر

وتسكين الفعل بغير عامل في قول لبيد :

تراك أمكنة إذا لم أرضها أو يرتبط بعض النفوس حمامها

(١) الوساطة ص ١٢ - ١٥ (٢) يقال احتجب الإثم إذا اكتسبه كأنه شيء محسوس حمله (مصباح) .

(٣) الواغل المستتر - وغل في الشجر وغولا توارى فيه ، ودخل على القوم واغلا ، وقصده هنا غير مستتر .

(٤) الخطاة : المكتنزة من كل شيء .

وقول الأسدي :

كنا نرفعها وقد مزقت واتسع الخرق على الراقع

وقول الآخر :

تأبى قضاة أن تعرف لكم نسبا وأبنا نزار فأنتم بيضة البلـ
وحذف النون في قول طرفة : قد رفع الفخ فماذا تحذرى

ورفع ما يجب نصبه في قول الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع وخفض ما يجب رفعه في قول امرئ القيس :

كأن نبيرا من عرائن^(١) وبله كبير أناس في بجاد^(٢) مزمل^(٣)

وقد أطل الجرجاني في سرد الأمثلة وفيما ذكرناه كفاية . ثم أشار الى أنه تصفح ما تكلفه النحويون لشعراء الجاهلية من الاحتجاج اذا أمكن تارة بطلب التخفيف عند توالى الحركات ومرة بالإتباع والمجاورة وتغيير الرواية اذا ضاقت الحجة ، وتثبيت ما راموه في ذلك من المرامي البعيدة وارتكبوا لأجله من المراكب الصعبة التي يشهد القلب بان الباعث عليها شدة إعظام المتقدم والكلف بنصرة ما سبق اليه الاعتقاد وألفقه النفس .

٥ — ونحن لانبأ أن نكتفى بما أشار اليه الجرجاني من تعسف المناخين عن شعراء الجاهلية ومن قاربهم من المخضرمين والأمويين فقد لا تغني هذه الإشارة . وانما نذكر ما قالوه في توجيه قول الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحتا أو مجلف

فانهم يذكرون أنه رفع ”مجلف“ بعد نصب ”مسحتا“ تبعاً للمعنى لأن المراد أنه لم يبق من المال إلا مسحت أو مجلف — ومثله قول الهذلي — وهو من شواهد المفصل — :

(١) جمع عرائن وهو الأنف . وعرائن الويل : أول المطر . (٢) البجاد : كساء مخطط تلبسه العرب .

(٣) مزمل : أى ملثف في ثوبه . وكان يحب رفعه .

على أطرقا باليات الخيام إلا الثمام وإلا العصي

نصب الثمام لأنه استثناء من موجب ورفع العصي حملا على المعنى^(١)، وكذلك قول الآخر:

غداة أحلت لابن أصرم طعنة حصين عبيطات السدائف والخمر

رفع الخمر على توهم رفع العبيطات لأنه إذا أحلتها الطعنة فقد حلت هي، إلى آخر ما يتأول

النحاة !!

تأمل هذا أيها القارئ وسل نفسك : أكان هؤلاء الشعراء يفكرون حقا في أنهم نصبوا

الاسم الأول على الاستثناء ورفعوا الثاني وفقا للمعنى؟ أكان الهذلي والفرزدق يحسبان حساب

النحاة في مثل ذلك التأويل؟ لا شيء من ذلك وإنما أتعب النحاة أنفسهم كلفا بنصرة ماسبق

إليه الاعتقاد وألفته النفس، كما يقول أبو الحسن الجرجاني . أو هو لحن صريح: فالتا نرتاب

في سلامة الأعراب من اللحن والغلط ونرى أنهم قد يلحنون كما يلحن المولدون وأن من الخطأ

إهمال القياس اتباعا لما يؤثر عنهم من الشذوذ^(٢) ... وهذا المذهب في استقراء أغلاط القدماء

خير من التورط في النفع عنهم بما لا يغني ولا يفيد . فقد كان الفراء يذكر أن من العرب

من يقول في " أنظر " أنظور — وينشد لبعض الأعراب :

الله يعلم أنا في تلفتنا يوم الفراق إلى جيراننا صور

وأنى حيث ما يثنى الهوى بصرى من حيث ما سلكوا أرنو فانظور^(٣)

وهذا لحن لا ينبغي أن يتحمل له الصواب . فان ديباجة هذا الشعر تبعد أن يكون قائله

من قبيلة مهجورة تسبغ هذا التعبير .

٦ — وقد تكلم الجرجاني عن تأثير المكان والطبع في رقة الشعر وجفافه وهو يرى أن

للبادية أثرا في خشونة الشعر وقوة أسره وصلابة معجمه . وأن للحاضرة فضلا على رقة الشعر

(١) راجع الفصل ص ٨ (٢) ويجب أن نذكر أن الشعر الجاهلي والأموي كان يجري على قواعد من

النحو لم تأخذ صبغة نهائية في التحديد والترتيب، كما اتفق ذلك في العصر العباسي، فأغلاط الجاهليين والأمويين ليست أغلاطا بالقياس إلى لغتهم هم، وإنما هي أغلاط بالاضافة إلى اللغة التي حددت قواعد النحو يون .

(٣) أنظر الصاحي ص ١٢

وعذوبته وسلامته من الوعورة والخفاء! ومن هنا كان شعر عدى وهو جاهل أسلس من شعر الفرزدق وريز رؤية وهما آهلان : لملازمة عدى الحاضرة وبعده عن جلافة البسود وخشونة الأعراب^(١)، وقد يكون من البر بالأدب أن نذكر في تأييد هذه النظرية قطعة من رائية المنخل الإشكري وهو جاهل صقلته الحضارة ودمته الترف في قصور الملوك، ولننظر كيف يقول في أخذ الفتى بأعطاف الفتاة، وقد خلتها هدأة الخدر وغفوة الرقيب :

ولقد دخلت على الفتاة الخدر في اليوم المطير

الكعب الحسناء تر فل في الدمقس وفي الحرير

فدفعتها فتدافعت مثنى النطاة الى الغدير

ولمّا فتفتست كتفتس الطيبي الغدير

فدنت وقالت مامد يخل ما يجسمك من حرور

ماشف جسمي غير حبك فاهدني غنى وسيرى

وأحبها وتحبني ويجب ناقتها بعيرى

٧ - وأظرف ما تنبه اليه الجرجاني إشارته إلى أن الطبع وللخلة أثرا في رقة الشعر

فان وجفائه سلاسة اللفظ تتبع سلاسة الطبع ودمامة الكلام بقدر دماثة الخلة . ويقول :

”وأنت تجدد ذلك في أهل عصرك ، وأبناء زمانك ، وترى الجاني الجلف منهم

كز الألفاظ معقد الكلام وعمر الخطاب حتى أنك ربما وجدت ألفاظه في صورته ونغمته وفي جرسه ولحجته ، ومن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك“^(٢) .

ولك أيها القارئ أن تبحث عن ذلك أيضا في أهل عصرك وأبناء زمانك : فقد تجد

تعقيد بعض المعاني أثرا لالتواء بعض الوجوه والنفوس !!

أما أنا فأشهد بصحة هذه النظرية حين أوازن بين مقامات الحريري ومقامات بديع الزمان

أو شعر أبي تمام وشعر أبي نواس . وقد يكون الفرق بين شعر الشباب وشعر الكهول

راجعا الى هذه الناحية الخلقية : فطالما يأتى الشاعر وهو قفى بما لم يستطعه وهو كهمل .
وما أقوى سلطان الجسم والروح فى حياة العقول ! وهنا وجه آخر لدماثة الشعر ورقته :
هو نفس الشاعر حين يتيمة الحب ويأسره العشق . ولم يذكّر الجرجاني أمثلة لذلك اكتفاء
بوضوح الفكرة ، ولو شاء لتمثل بقول بعض الأعراب :

وفى الجيرة الغادين من بطن وبرة غزال كحيل المقتلين رديب
فلا تمسبى أن الغريب الذى نأى ولكن من تأنى عنه غريب
وقول الآخر :

فيأرب إن أهلك ولم ترو هامتى بليلى أمت لا قبر أعطش من قبرى
وإن أك عن ليلى سلوت فأنما تسليت عن يأس ولم أسل عن صبر
وان يك عن ليلى غنى وتجالد فرب غنى نفس قريب من الفقر

٨ — وقد نص الجرجاني على أنه لا يريد بالسهل الضعيف ولا يقصد من الرشيق المؤنث
وهو يتكلم عن سهولة الشعر ورشاقته ، وإنما يريد النمط الأوسط الذى ارتفع عن الساقط السوقى
وانحط عن البدوى الوحشى . وهو لا يوصى بأجزاء الشعر كله مجرى واحدا وإنما يرى أن تقسم
الألفاظ على رتب المعانى فلا يكون الغزل كالفخر ، ولا المديح كالوعيد ، ولا الهجاء كالاستبطاء ،
ولا الهزل كالجد ، ولا التعريض كال تصريح . فان المدح بالشجاعة والبأس يتميز عن المدح
باللباقة والظرف . ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمدام : فلكل واحد من
الأمرين نهج هو أملك به ، وطريق لا يشاركه الآخر فيه . ثم يقول « وليس ما رسمته لك
فى هذا الباب بمقصود على الشعر دون الكتابة ولا يختص بالنظم دون النثر ، بل يجب أن يكون
كتابك فى الفتح والوعيد خلاف كتابك فى التشوق والتمنية واقتضاء المواصلات ، وخطابك إذا
حذرت وزجرت أنفهم منه إذا وعدت ومنيت . فأما الهجو فأبلغه ما جرى مجرى الهزل
والتهافت ، وما أعترض به التصريح والتعريض ، وما قربت معانيه وسهل حفظه وأسرع
علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس » (١)

فأما القذف والإفحاش فهو سباب محض . وليس للشاعر إلا إقامة الوزن وتصحيح النظم . ويقول بعد كلام « وملاك الأمر في هذا الباب خاصة ترك التكلف ورفض العمل ، والاسترسال للطبع ، وتجنب الحمل عليه والعنف به . ولست أعنى بهذا كل طبع . بل المذهب الذى قد صقله الأدب ، وشحذته الرواية ، وجلته الفطنة ، وألم الفصل بين الردى والجيد ، وتصور أمثلة الحسن والقيح »^(١) .

٩ — والذى يتعقب النقد عند العرب يرى الجرجاني مسبوقا في هذه الآراء . فليس له إلا فضل الترتيب والتنسيق . وهو فضل ليس باليسير . على أنك تشعر وأنت تراه يتصرف في هذه الافكار تصرف المالكيين أن عقله أشرب مذاهب النقد والمفاضلة بين طبقات النثر الجيد والشعر البليغ ، بحيث يتعذر عليه هو نفسه أن يميز ما استفاده بالدرس والمراجعة وما أمدته به قريحته المتوقدة وذوقه السليم... وللقارئ أن يرجع الى صحيفة بشر بن المعتمر ووصية أبي تمام للبحترى^(٢) فسيرى عناصر هذه النظريات التى يسوقها الجرجاني في سياسة النفس وتقويم البيان .^(٣) ولكنه سيرى كذلك أن الجرجاني أنهض بحجته ، وأملك رأيه ، وأقرب الى نفس قارئه من الذين سبقوه في هذا الباب . وتلك دلالة على استقلاله بما أودع كتابه من الآراء .

١٠ — وقد رأى أبو الحسن الجرجاني أن يفرق بين الشعر والدين وأن يميز بين غاية الأدب وغاية الأخلاق . وهو يعجب ممن ينتقص المتنبي ويفض من شعره لأبيات وجدها تدل على ضعف العقيدة وفساد المذهب في الديانة ، كقوله :

يترشفن من فى رشقات هن فيه أحلى من التوحيد
وقوله :

وأبهر آيات التهامى أنه أبوكم وإحدى ما لكم من مناقب

مع أنهم احتملوا إسراف أبي نواس في مثل قوله في انتهاب اللذات والشك في عذاب
الاخيرة :

(١) ص ٢٦ و ٢٨ وساطة . (٢) ص ٥٨ من البيان والتبيين .

(٣) زهر الآداب ج ١ ص ١٠١ ط أولى .

فدع الملام فقد أطعت غوايتي ونبذت موعظتي وراء جداري
ورأيت إشار اللذازة والهوى وتمتعا من طيب هذى الدار
أحرى وأحزم من تنظّر آجل ظننى به رجم من الأخبار
إنى بعاجل ما ترين موكل وسواه لإرجاف من الآثار
ما جاءنا أحد يخبر أنه فى جنة مذمات أو فى نار

ويقول فى تأييد هذه النظرية "فلو كانت الديانة عارا على الشعر وكان سوء الاعتقاد سببا لتأخر الشاعر لوجب أن يعنى اسم أبى نواس من الدواوين ويحذف ذكره إذا عدت الطبقات ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية ومن تشهد الآية عليه بالكفر ولوجب أن يكون كعب بن زهير وابن الزبير واضراهما ممن تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاب من أصحابه بكما خرسا وبكاء مفحمين . ولكن الأمرين متباينان . والدين بم عزل عن الشعر" (١) .

ويجب أن نذكر أن صاحب هذه الفكرة هو "قاضى القضاة" وسيد الفقهاء فى الرى "وجرجان : لنعرف الى أى حد كانت النزعة الفنية سيطرة على مشاعر هذا القاضى الأديب . غير أننا نلاحظ أن الشعر الذى تمثل به لأبى نواس لا يشفع فى تأييد هذا الرأى الخطير . فليست الشاعرية أن يعلن الرجل كفره أو إيمانه فى تعابير لا رونق لها ولا ماء ، كما أعلن كفره أبو نواس ، وكما يعلن الأشياخ والأخبار والرهبان حرصهم على الدين والأخلاق ، وإنما الشاعرية روح يتمرد به الشاعر فيمز نفس القارئ أو السامع حزنا عنيفا يحمله على أن يؤمن وهو طائع ذلول بما يدعو اليه الشاعر من ترين الاثم والبغى أو تقبيح الغنى والفسوق .

ومن ذا الذى لا تروقه روعة الفتك فى قول ديك الجحش :

لما نظرت إلى عن حدق المها وبسمت عن متفتح النّوّار
وعقدت بين قضيب بان أهيف وكثيب رمل عقدة الزنار
عفرت خدى فى الثرى لك طائعا وعزمت فيك على دخول النار

أومن ذا الذى لا ينجش لعظمة الفضل والوفار فى قول معن بن أوس :
 اعمرك ما أهويت كفى لريبة^(١) ولا حملتى نحو فاحشة رجل
 ولا قادنى سمعى ولا بصرى لها ولا دلنى رأى عليها ولا عقلى
 وأعلم أنى لم تصبنى مصيدة من الدهر إلا قد أصابت فتى قبل
 ولست بمأش ما حيت لمنكر من الأمر لا يمشى الى مثله مثلى
 ولا مؤثر نفسى على ذى قرابة وأوثر ضيفى ما أقام على أهلى

والشاعر الواحد قد يرضيك جده وهزله ، ويروك شكه ويقينه ، حين يصدر عن ألوان
 نفسه ، ويتحدث صادقا عن أسرار قلبه . ولا عيب على الشاعر فى أن تختلف آرائه باختلاف
 ذوقه وإحساسه : فإن الشعر كالمراة . والنفس دنيا ثانية تتراءى صورها المختلفة فى لوحة الشعر
 الجميل . وما ذا تريدون من الشعر والأدب أيها الناس ! أتريدون أن تعلنوا الأحكام العرفية
 على الكتاب والشعراء والفنانين لئلا ينظروا بعيونهم ، ويفقهوا بقلوبهم : فيكون من آثارهم
 ما ينقض ما تواضعتم عليه منذ أجيال ؟ إن الله الذى يلون العالم كل يوم بلون جديد
 وتفتن يده الصنّاع فى تزيين الأرض والسموات ، وينفخ من روحه فيمن اصطفاهم للشعر
 والبيان ، هو وحده جل شأنه القادر على أن يقول : هذا ما أريد أن يكون ، وذلك ما أنكر
 أن يكون !! وسيظل الأدب الحق أداة يعرب بها الشعراء عما تريد القدرة أن تصوّره
 محاسن هذا الوجود .

فهنيئاً لمن أراد الله أن يشربهم صفوة الحياة ليكون للعالم من أدبهم فرقان وأنجيل .



تلك نواح كشفنا عنها وبيناها من كتاب الوساطة راجين أن يعود اليه القارئ طالبا للزيد .
 فليس النقد إلا وسيلة الى إثارة الرغبة فى المراجعة والشوق الى الاطلاع .

(١) الريبة ، بكسر الراء ، التهمة .

٣ - ابيه فارس

١ - لم تعين كتب التراجم السنة التي ولد فيها أحمد بن فارس، ولم يتفق مترجموه على المكان الذي ولد فيه . وقد نسبته ابن الأنباري الى المكان الذي مات فيه وهو الرى : فسماه أبا الحسين الرازى . والرازى نسبة شاذة الى الرى ^(١) . ويقول ياقوت فى معجم الأدباء ^(٢) : « واختلفوا فى وطنه فقيس : كان من رستاق الزهراء من القرية المعروفة كرسف وجياناباذ، وقد حضرت القريتين مرارا ولا خلاف أنه قروى . حدثني والدي محمد بن أحمد وكان من جملة حاضري مجالسه أنه أتاه آت فسأله عن وطنه فقال : كرسف . قال فتمثل الشيخ :
بلاد بها شئت على تمانى وأول أرض مس جلدى ترابها »

أما وفاته رحمه الله فكانت بالرّى فى صفر سنة ٣٩٥ هجرية وقد دفن بجوار قاضى القضاة على بن عبد العزيز الجرجاني .

٢ - ذكر السيوطى فى بغية الوعاة ^(٣) أن ابن فارس كان نحويا على طريقة الكوفيين وأنه سمع أباه وعلى بن ابراهيم بن سلمة القطان . وذكر ابن الأنبارى أنه أخذ عن أبى بكر أحمد بن الحسن الخطيب راوية ثعلب . وعن أبى عبد الله أحمد بن طاهر المنجم، وكان يقول عن أبى عبد الله هذا : " ما رأيت مثله ولا رأى هو مثل نفسه " ^(٤) وكان ابن فارس حريصا على تدوين ما يأخذه عن أبيه . وقد أثبت ابن الأنبارى شاهدا على ذلك الحرص نكتفى بالإشارة اليه . وذكر ياقوت أن ابن فارس حدث عن أبيه أنه قال : حججت فلقيت بمكة ناسا من هذيل بفاريتهم ذكر شعرائهم فما عرفوا أحدا منهم . ولكننى رأيت أمثل الجماعة رجلا فصيحاً وأنشدنى :

إذا لم تحظ فى أرض فدعها وحث العملات على وجاها ^(٥)

ولا يغرك حظ أخيك فيها إذا صفرت يمينك من جادا

(١) طبقات النجاة ص ٣٩٢ (٢) ج ٢ ص ١٢ (٣) ص ١٥٣ (٤) طبقات النجاة ص ٣٩٢

(٥) العملات : الجمل .

ونفسك فز بها إن خفت ضيا وخل الدار تحزن من بكائها
فأنك واجد أرضا بأرض ولست بواجد نفسا سواها

٣ — كان لابن فارس عدد كثير من التلامذة أشهرهم صاحب بن عباد وبديع الزمان
الهمداني . أما حاله مع صاحب فقد ابتدأت بوفاق ، وانتهت بشقاق — نسجع على ذكرى
الصاحب بن عباد! — تمت بينهما الألفة في بداية الأمر حتى وضع ابن فارس كتابه
« الصاحبي » نسبة إلى الصاحب . وحتى مدح الصاحب ابن فارس بقوله « شيخنا
أبو الحسين محمد رُزق حسن التصنيف ، وأمن فيه من التصحيف »^(١) ثم انحرف الصاحب
عن ابن فارس لانتسابه إلى خدمة آل العميد وتعصبه لهم فانفذ إليه من همدان كتاب الحجر
من تأليفه فقال الصاحب « رد الحجر من حيث جاءك » ثم لم تطب نفسه بتركه فنظر فيه وأمر
له بصلة^(٢) . وكان الصاحب كما ذكر ياقوت في معجم الأدباء يعرض أحيانا لابن فارس فيذكر
أنه رأى « بعض الجهال يصحف ويقول » . وأما حاله مع بديع الزمان الهمداني فكانت فيما
يظهر غاية في صفاء الوداد . نعرف ذلك من كتاب بديع الزمان إلى أستاذه جوابا على كتاب ورد
إليه منه في ذم الزمان . ومن البر بالأدب والتاريخ أن نذكر هنا نص ذلك الكتاب لنرى
كيف كان بديع الزمان يرتاب فيما تقدمه من نظام الحكومات الإسلامية ، وكيف كان يحذر
تقلب النفس الإنسانية التي تجل غدرها في قصائد الشعراء ، وصحائف الأنبياء . ولنتذكر كيف
يقول « نعم أطل الله بقاء الشيخ الإمام إنه الحما المسنون »^(٣) ، وإن ظنت الظنون ، والناس ينسبون
لآدم ، وإن كان العهد قد تقادم . وارتبكت الأضداد ، واختلط الميلاذ . والشيخ الإمام
يقول « فسد الزمان » أفلا يقول متى كان صالحا ؟ أفي الدولة العباسية وقد رأينا آخرها وسمعنا
أولها ؟ أم المدة المروانية وفي أخبارها لا تكسع الشول بأغبارها^(٤) ؟ أم السنين الحربية^(٥) .

(١) طبقات الأدباء ص ٣٩٤ (٢) ياقوت ج ٢ ص ٩ (٣) ج ٢ ص ٢٠٢

(٤) الحما المسنون : الطين المتغير . (٥) الشول جمع شائلة على غير قياس . والأخبار جمع خبر وهو بقية
البن . والكسع هو ترك بقية من البن في أخلاف الناقة . المعنى : لا تغزر لبن إبيت واحلبها لأضيافك فانك (لا تدري
من الناحية) كما في بقية البيت . (٦) نسبة إلى حرب بن أمية ، والمراد خلافة معاوية وابنه يزيد .

(١) والريح يركز في الكلى
ومبيت حجر في الفلا
(٢) والسيف يغمد في الطل
والحارثان وكربلا

أم البيعة الهاشمية وعلى يقول : ليت العشرة منكم براس من بنى فراس ؟ أم الأيام الأموية
والنفير إلى الحجاز ، والعيون إلى الأعجاز ؟ أم الامارات العدوية وصاحبها يقول : وهل بعد
البزول إلا النزول ؟ أم الخلافة التيمية وصاحبها يقول : طوبى لمن مات في نأنة الاسلام ؟
أم على عهد الرسالة ويوم الفتح قيل : اسكتي يا فلانة ، فقد ذهب الأمانة ؟ أم في الجاهلية
ولبيد يقول :

ذهب الذين يعاش في أكافهم وبقيت في خلف بكلد الأجر
أم قبل ذلك وأخو عاد يقول :

بلاد بها كذا وكذا نجحها إذ الناس ناس والزمان زمان

أم قبل ذلك وقد روى عن آدم عليه السلام :

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض منسبر قبيح

أم قبل ذلك وقد قالت الملائكة : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ وما فسد
الناس ، وإنما اطرد القياس . وما أظلمت الأيام ، وإنما امتد الظلام . وهل يفسد الشيء
إلا عن صلاح ، ويمسى المرء إلا عن صباح ؟

ثم انتقل بذيع الزمان إلى الرفق بأستاذة والعطف عليه فقال :

« ولعمري لئن كان كرم العهد كُتابا يرد ، وجوابا يصدر ، إنه لقريب المنال ، وإنى على
توبيخه لى لفقيه إلى لقائه ، شفيق على بقائه ، منتست إلى ولائه ، شاكر لآلائه . لا أحل حريدا
عن أمره ، ولا أقف بعيدا عن قلبه . مانسيته ولا أنساه . إن له أيده الله على كل نعمة خولنيها
الله نارا ، وعلى كل كلمة علمنيها منارا . ولو عرفت لكأبى موقعا من قلبه لا غنمت خدمته
به ولرددت إليه سؤركأسه ، وفضل أنفاسه . ولكني خشيت أن يقول (هذه بضاعتنا ردت

الينا) وله أيده الله العتي ، والمودة في القربي ، والمرباع ، وما ناله الباع . وما ضمه الجلد ،
وضمته المشط . وليست رضاي ولكها جل ما أملك » .

إلى آخر ما قال :

ولو وجدنا نص الكتاب الذي بدأ به ابن فارس لعرفنا شيئا من صور نفسه ، وألوان قلبه :
فان لأزمات القلب ، وبفعات النفس ، دلالة كبيرة على المناحي التي يحنح اليها الكتاب والشعراء
والباحثون^(٢) .

٥ — كان ابن فارس وسطا في شعره ونثره : فلم يكن يُسَف حتى يصل الى وصمة
الإعياء . ولم يكن يعلو حتى يصل إلى جودة البيان . ونثره في جملة بين واضح مقبول . يعجبنى
منه قوله — في تقرير رجال الفقه والحديث على اللحن وترك الإعراب — : « وقد كان الناس
قديما يحننون اللحن فيما يكتبونه أو يقرءونه اجتنابهم بعض الذنوب . فأما الآن فقد تجوزوا
حتى إن المحدث يحدث فيلحن والفقيه يؤلف فيلحن . فاذا نهاها قالوا (ما ندرى ما الإعراب
وإنما نحن محدثون وفقهاء) فهما يُسران بما يساء به اللبيب ! ولقد كلمت بعض من يذهب
بنفسه ويراه من فقه الشافعي بالرتبة العليا في القياس . فقلت له : ما حقيقة القياس وما معناه ؟
من أى شيء هو ؟ فقال (ليس على هذا وإنما على إقامة الدليل على صحته) .

« فقل الآن في رجل يروم إقامة الدليل على صحة شيء لا يعرف معناه ولا يدري ما هو
ونعوذ بالله من سوء الاختيار ! » .

وللقارئ أن يتأمل هذه الجملة فسيراها جيدة المعنى نقية الأسلوب ، وسيرى كيف وصل
الكاتب الى ما يرمى اليه من التهمك اللاذع بالفقهاء والمحدثين من غير أن يلجأ الى غرابة المعاني

(١) راجع ص ٤١٤ و ٤١٩ — من رسائل البديع . (٢) الذى فى رسائل بديع الزمان أن هذه
الرسالة جاءت جوابا عن كتاب ورد اليه من ابن فارس فى ذم الزمان . وفى نهاية الأرب ج ٧ ص ٢٦٢ أن بديع
الزمان ذكر فى مجلس ابن فارس فقال ما معناه : إن البديع قد نسى حق تعليمنا إياه وعقنا وشنع بأنّه عنا فالحمد لله على
فساد الزمان وتغير نوع الانسان ! فبلغ ذلك البديع فكتب الى ابن فارس ذلك الكتاب .

وجلجلة الألفاظ . وفي هذه الجملة أيضا دلالة على أن غفلة الفقهاء عن اللغة العربية قديمة العهد وليست من سيئات العصر الحديث .

٦ — أما شعرا بن فارس فهو على قلته يكاد يقف عند شكوى الزمان . من ذلك قوله — وقد قل ماله ، وكثر دينه ، ولم يغنه علمه — :

سقى همدان الغيث لست بقائل سوى ذا وفي الأحشاء نار تضرم
وما لي لا أصفى الدعاء لبلادة أفدت بها نسيان ما كنت أعلم^(١)
نسيت الذي أحسنه غير أني مدين وما في جوف بيتي درهم

وقوله في كثرة همومه وتعزیه بالهرة والكتاب والمصباح اذا أوى الى بيته المقفر الجديب :

وقالوا كيف حالك ؟ قلت خير تقضى حاجة وتفوت حاج^(٢)
نديمى هرتى وأنيس نفسى دفاتر لى ومعشوقى السراج

وقد يستظرف دفاعه عن البخل والحرص إذ يذكر أن المال المضمون به يسخر الحق

لخدمة صاحبه : فقد يكرم الرجل لغناه قبل أن يكرم لفضله . وفي هذا المعنى يقول :

يا ليت لي ألف دينار موجهة وأن حظى منها فلس إفلاس^(٣)
قالوا فما لك منها قلت تخدمنى لها ومن أجلها الحق من الناس

وقد يستجاد قوله في التغاضى عن هفوات الصديق :

عتبت عليه حين ساء صنيعة وآليت لا أمسيت طوع يديه^(٤)
فلما خبرت الناس خبر مجرب ولم أر خيرا منه عدت اليه

ومن ظريف الإشارة الى ضعف حجج النحاة قوله في فتور الجفون :

مرت بنا هيفاء مقدودة تركية تمنى لتركى^(٥)
ترزو بطرف فاتر فاتن أضعف من حجة نحوى

(١) ص ٢١٨ ج ٣ من القيمة . (٢) ص ٢١٩ ج ٢ (٣) ص ٢١٩ ج ٢

(٤) ص ٢٢٠ (٥) ص ٢٦٩

٧ — لابن فارس مؤلفات كثيرة لم يبق منها إلا القليل . والذي يعيننا هو (الصاحبي) الذي قدمه الى الصاحب بن عباد، وهو كتاب متوسط الحجم يقع في ٢٣٢ ص بالقطع الكبير طبعته المطبعة السلفية في سنة ١٩١٠ طبعاً جيداً نقلاً عن نسخة صحيحة بخط المرحوم الشيخ الشقيطي من مكتبته بدار الكتب المصرية وقد نقلها رحمه الله عن نسخة في إحدى مكاتب القسطنطينية قرئت على المؤلف في سنة ٣٨٢ هـ ، وعلى ظهرها بخطه ما يفيد إجازة القراءة والنسخ . قال المرحوم الشقيطي ” وكانت مقابلتي إياه صفحة صفحة : لا أبتدئ الصفحة إلا بعد مقابلة الصفحة التي كتبها قبلها فتمت كتابته ومقابلته في آن واحد والله الحمد“ .

أما قيمة الكتاب من الوجهة العلمية فستظهر حين نناقش ما فيه من مختلف الأبحاث .

٨ — يحار الباحث في تحديد حياة ابن فارس العقلية : ومرجع هذه الحيرة هو ظهور هذا الرجل بلونين مختلفين كل الاختلاف . أما سبب هذه الحيرة فهو إغفال المتقدمين تاريخ آثار هذا اللغوي الأديب فقد نعرف أنه راجع كتاب الصاحبي في سنة ٣٨٢ ولكننا لا نعرف في أي سنة من سني حياته العلمية وضع رسالته في الرد على محمد بن سعيد الكاتب . والفرق بعيد جداً بين رسالته هذه وكتابه ذاك : فهو في ”الصاحبي“ رجل حذرٌ حيوب يحسب مسaire العقل جريمة ، ويعتد التفكير من جملة الذنوب . ولكنه في رسالته الى ابن سعيد باحث مملوء بالغيرة والحمية لكل حق ولكل جديد .

نظرات ابن فارس في كتاب ”الصاحبي“ كلها جهود وكلها ذهول . وقد يصح أحياناً فيرمي بالقول السديد . وحسب القارئ في الدلالة على إغراق كتاب الصاحبي في «الرجعية» أن يعرف أن ابن فارس يفضل العروض على الفلسفة . ويقول في وصفه ”علم العروض الذي يربى بحسنه ودقته واستقامته على كل ما يتجشع به الناسبون أنفسهم الى التي يقال لها الفلسفة“ .^(٢)

ومن هذه العبارة أخذ الشيخ بخيت فيما نظن قوله في رينان ”ذلك الرجل الذي يدعى أنه فيلسوف“ .

وحقا إن الفلسفة لا تزيد عن أنها « التي يقال لها الفلسفة » ورينان لا يزيد عن أنه « الرجل الذي يدعى أنه فيلسوف » وسبحان من أغنانا عما ترك المبدعون في العلوم والفنون !!

وأغرب من هذا أن يستنكر ابن فارس أن يكون للفلاسفة مؤلفات في النحو والإعراب وأن يستبعد أن يكون لهم شعر جميل . ويقول في ذلك « وزعم ناس يتوقف عن قبول أخبارهم أن الذين يسمون الفلاسفة قد كان لهم إعراب ومؤلفات نحو^(١) » ثم يقول « وهذا كلام لا يعرج على مثله . وإنما تشبه القوم آنفا بأهل الاسلام فأخذوا من كتب علمائنا وغيروا بعض ألفاظها ونسبوا ذلك الى قوم ذوى أسماء منكرة بترجم بشعة لا يكاد لسان ذى دين ينطق بها . وآدعوا مع ذلك أن للقوم شعرا . وقد قرأناه فوجدناه قليل الماء نزر الحلاوة غير مستقيم الوزن » ثم يقول في وصف العروض « ومن عرف دقائقه وأسراره وخفيايه علم أنه يربى على جميع ما يتبجح به هؤلاء الذين ينتحلون معرفة حقائق الأشياء من الأعداد والخطوط والنقط التي لا أعرف لها فائدة . غير أنها مع قلة فائدتها ترق الدين وتنتج كل ما نعوذ بالله منه »^(٢)

وكذلك كان يرتاب أكثر المتقدمين في العلوم العقلية . ويرونها خطرا على العقائد : كما يفعل المتأخرون اليوم . وهذا كله هرب من البحث وإخلاد الى الخمول . وإلا فكيف يبعد الناس عن دينهم كلما توغلوا في درس حقائق الأشياء ؟

٩ — ترك هذه الناحية من عقلية ابن فارس التي تمثل لنا رأيه ورأى أمثاله في فهم ما توحى به العقول . وننتقل الى الجانب المشرق من حياته العقلية فنراه يمثل لنا انقسام أهل ذلك العصر الى طائفتين تقتتلان . تدعو إحداهما الى الاكتفاء بما ترك المتقدمون من الآثار الأدبية . وتدعو أخراهما الى الابداع والتجديد في عالم الآداب . ويكفى أن يعرف الباحث أن من رجال ذلك العصر من أنكر اختيار الشعرا اكتفاء بديوان الحماسة ليرى أن (الرجعية)

كانت تفتك بأحلام أولئك الناس وأن الصراع بين القديم والجديد يكاد يتصل بالحياة الفكرية في جميع الأجيال .

وفي رسالة ابن فارس الى محمد بن سعيد صورة لهذه الحصومة العقلية التي شهدنا رجال القرن الرابع . فلنتركه يتكلم ولننظر كيف يدافع عن شعراء عصره المبدعين إذ يقول في خطابه الى ابن سعيد ” ألهمك الله الرشاد؛ وأصبحك السداد، وجنبك الخلاف، وحبب اليك الانصاف ! وسبب دعائي هذا لك إنكارك على أبي الحسن محمد بن علي العجلي تأليفه كتابا في الحماسة وإعظامك ذلك وإعله لو فعل حتى يصيب الغرض الذي يريد ، ويرد المنهل الذي يؤمه لاستدرك من جيد الشعر ونقيه، ومختاره ورقيه ، كثيرا مما فات الأول . فما ذا الانكار ولم الاعتراض؟ ومن ذا حذر على المتأخر مضادة المتقدم؟ ولم تأخذ بقول من قال ” ما ترك الأول للآخر شيئا “ وتدع قول الآخر ” كم ترك الأول للآخر “ وهل الدنيا إلا أزمان ولكل زمن منها رجال ؟ وهل العلوم بعد الأصول المحفوظة إلا خطرات الأفهام ونتائج العقول ؟ ومن قصر الآداب على زمان معلوم ووقفها على وقت محدود؟ ولم لا ينظر الآخر مثل ما نظر الأول حتى يؤلف مثل تأليفه ، ويجمع مثل جمعه ، ويرى في كل ذلك مثل رأيه ؟

وما تقول لفقهاء زماننا اذا نزلت بهم من نوازل الأحكام نازلة لم تخطر على بال من كان قبلهم ؟

أو ما علمت أن لكل قلب خاطرا ولكل خاطر نتيجة ؟ ولم جاز أن يقال بعد أبي تمام مثل شعره ولم يجوز أن يؤلف مثل تأليفه؟ ولم حجرت واسعا وحظرت مباحا وحرمت حلالا وسددت طريقا مسلوكا ؟ وهل (حبيب) الا واحد من المسلمين له ما لم وعليه ما عليهم ؟ ولم جاز أن يمارض الفقهاء في مؤلفاتهم ، وأهل النحر في مصنفاتهم ، وأرباب الصناعات في جميع صناعاتهم ، ولم يجوز معارضة أبي تمام في كتاب شد عنه في الأبواب التي شرعها فيه ؟ أمر لا يدرك ولا يدرك قدره !!

ولو اقتصر الناس على كتب القدماء لضاع علم كثير، ولذهب أدب غزير، ولضلت أفهام
 ناقبة، ولكأت ألسن لسنة، ولما توشى أحد لخطابة ولا سلك شعبا من شعاب البلاغة
 ولجأت الأسماع كل مردد مكرر، وللفظت القلوب كل مرجع ممضغ . وحتم لا يسأم
 (لو كنت من مازن لم تستبح إيلي) والى متى "صفحتنا عن بني ذهل" — الى أن قال "وهلا
 حثت على إثارة ما غيبته الدهور وتجديد ما أخلقته الأيام وتدوين ما نتجته خواطر هذا
 الدهر وأفكار هذا العصر؟ على أن ذلك لو رامه رائم لأتعبه ولو فعله لقرأت ما لم يحط عن
 درجة من قبله من جد يروعك، وهزل يروك، واستنباط يعجبك، ومزاح يلهيك" (١).

١٠ — تلك هي الناحية المشرقة من حياة ابن فارس العقلية وهي كما يرى القارئ تختلف
 عن سابقها أشد الاختلاف. وقد ذكر صاحب اليتيمة جزءا كبيرا من هذه الرسالة فليرجع إليها من
 يطلب المزيد. ولكننا نرى من البر بالأدب أن نذكر نماذج من الشعر المحدث لعهد ابن فارس
 وكانت تضيق به نفوس الرجعيين اذا ذاك . وهو يستجيد قول يوسف بن حمويه المعروف
 بالمنادى وكان من أهل قزوين :

حج مثلى زيارة الخمار	واقثنائى العّار شرب العّار
ووقارى اذا توقر ذو الشيد	بنة وسط الندى ترك الوقار
ما أبالى اذا المدامة دامت	عدل ناه ولا شناعة جار
رب ليل كأنه فرع ليلى	ما به كوكب يلوح لسارى
قد طويناه فوق خشف كحيل	أحور الطرف فأتى سحار ^(٢)

(١) ص ٢١٥ و ٢١٦ ج ٣ يتيمة .

(٢) وردت هذه الأبيات في ديوان أبي نواس مع اختلاف قليل ، وربما كانت مما أضيف الى شعر أبي نواس
 لاتصالها بفنه المعروف فى الغزل والشراب ، وهى فى الديوان طويلة تصل الى خمسة عشر بيتا آخرها هذا البيت
 الحكيم :

ويستجيد قول أحمد بن بندار :

زارني في الدجى فم عليه طيب أردانه لدى الرقباء
والثريا كأنها كف خود أبرزت من غلالة زرقاء

ويستجيد قول بعض رجال الموصل :

فديتك ماشبت عن كبرة وهذى سنى وهذا الحساب
ولكن هجرت فخل المشيب ولو قد وصلت لعاد الشباب

الى هنا وقف القارئ على شيء من حياة ابن فارس يقربه اليه بعض التقريب ان لم يمثله كل التمثيل . فلنأخذ في نقد آرائه في فقه اللغة العربية والكشف عما فيها من مظان الخطأ ومواقع الصواب .

٤ - نقد آراء ابنه فارس في فقه اللغة العربية

١ - الفقه العلم بالشيء والفهم له والفطنة . وغلب على علم الدين لشرفه . كما في القاموس المحيط . وفي أساس البلاغة (قال أعرابي لعيسى بن عمر شهدت عليك بالفقه : أى بالفهم والفطنة . وفي الحديث (من أراد الله به خيرا فقهه في الدين) وفقهت فلانا: كذا وأفقهته أياه فهمته ففقهه وتفقهه . وقال عمر لجرير بن عبدالله كنت سيدا في الجاهلية وفقيا في الاسلام . قال الزمخشري وتقول فلان بين الفراة : في أبواب الفقاة . وفحل فقيه عالم بذوات الضبع وذوات الحمل^(١) .

فالفقه كما ترى دقة الفهم ونفاذ البصيرة في التفريق بين حقائق الأشياء . وعبرة " فقه اللغة " لم يكده يتفق القدماء على إفراها بمداول خاص . وانما نجدها في تعابير الكتاب والمؤلفين على سبيل الاختيار لاعلى وجه التعيين . والتعالى يحدثنا بأن كتابه (فقه اللغة) انما سمي بهذا الاسم وفقا لاختيار الأمير الذى أحدها اليه فدل ذلك على أن المنحى الذى سلكه في تأليفه لم يكن جريا على خطة آتفق عليها الباحثون في ذلك الحين . فما هو المقصود من عبارة (فقه اللغة) في العصر الحديث ؟ ذكر السنيور جويدي في محاضراته الأولى بالجامعة المصرية (٧) أكتوبر سنة ١٩٢٦ ان كلمة (Philologie) تصعب ترجمتها بالعربية وأن لها في اللغات الغربية معنى خاصا لا يتفق عليه أصحاب العلم والأدب . فمنهم من يرى هذا العلم مجرد درس قواعد الصرف والنحو وقد نصوص الآثار الأدبية . ومنهم من يذهب الى أنه ليس درس اللغة فقط ولكنه بحث عن الحياة العقلية من جميع وجوها . واذا صح هذا فن الممكن أن يدخل في دائرة " الفيلولوجى " علم اللغة وفنونها المختلفة كتاريخ اللغة ومقابلة اللغات والنحو والصرف والعروض وعلوم البلاغة وعلم الأدب في معناه الأوسع فيدخل تاريخ الآداب وتاريخ العلوم

(١) الضبع — بفتحين — شهوة الناقة الى الفعل .

من حيث تصنيف الكتب العلمية ، وتاريخ الفقه من حيث تدوينه في المجموعات والمجلات وتاريخ الأديان من حيث درس الكتب المقدسة وتأليف الكتب الدينية واللاهوتية ، وتاريخ الفلسفة من حيث تأليف كتب الحكمة وكتب الكلام . ولا سبيل الى معرفة كنه هذه الحياة العقلية إلا بدرس أحوال المركز الذي نشأت فيه تلك الآثار الأدبية “ .

ويترتب على هذا التعريف كما ذكر السنيور جويدى أن يصبح هذا العلم من أوسع العلوم دائرة وأن يصبح «الفيلولوج» مضطرا الى البحث عن أوائل الأدب حين يدرس درجة التمدن عند شعب من الشعوب ، والى تأمل العلاقات التي كانت بينه وبين غيره وما أثر فيه من الحوادث السياسية والتاريخية . ثم لا يكفى لمن يريد درس كتب المجوس الدينية مثلا أن يقف عند معرفة اللغات الإيرانية بل عليه أن يطيل النظر في كل وجوه الحياة عند الفرس وما تأثر به هذا الدين مما اتصل به من العقائد والديانات .

هذا هو اتجاه السنيور جويدى الذي كان أستاذ فقه اللغة العربية بكلية الآداب . وهو كما يرى القارئ يجعل مهمة الباحث في هذا العلم شاقة عسيرة ويرد ما تميز واستقل من علوم اللغة الى علم واحد تنوء به عزائم الآحاد . وقد شعر الأستاذ نفسه بهذا فقرّر أنه لا يمكن للباحث أن يجيد إلا جزءا واحدا من ذلك العلم الكثير الأجزاء !

٢ — على أن من الحق أن نقرر أن كلمة “فقه اللغة” التي اختيرت لترجمة كتاب النعالي لم يرم بها قائلها من غير أن يكون لها في نفسه مدلول خاص : فقد وردت هذه الكلمة في فاتحة كتاب ابن فارس إذ قال “هذا الكتاب الصاحب في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها” وهو بالطبع كان يعرف ما ترمى إليه هذه التعابير . فلم يبق إلا أن يكون الباحثون في علوم اللغة العربية لذلك العهد قد فكروا في فن جديد غير ما عُرف من علوم البلاغة وما اصطُح عليه من مسائل النحو والصرف والاشتقاق . وهذا الفن الجديد الذي كاد ينفرد به رجال القرن الرابع والخامس لم يجد من يُعنى بتدوين أصوله ، وتحقيق فروعه ، حتى يستقل عن غيره بعض الاستقلال . وإنما ظل كما ابتدأ مسائل متفرقة ينقصها الترتيب والتفصيل

ويعوزها النقد والتمييز، وما الى ذلك من أنواع العناية بمختلف الفنون . وعندى ان أهم ما يؤخذ على المؤلفين فى فقه اللغة هو إهمال المصادر وإهمال التاريخ ولنضرب لذلك الأمثال :

جاء فى الفصل الثالث من الباب التاسع عشر من كتاب الثعالبي أن "الارتكاض" حركة الجنين "والنوس" حركة الغصن بالريح "والتدلل" حركة الشيء المتدلى - و"الترجرج": حركة الكفل السمين والقالودج الرقيق . و"النسيم": حركة الريح فى لين وضعف . و"الذماء": حركة القليل . و"النودان" حركة اليهود فى مدارسهم . وكان يجب أن يذكر بجانب هذا التنويع ما يؤيده من الشعر الموثوق بصحته وأن يدلنا على العصر الذى استعملت فيه كلمة "النودان" مثلاً وأن يبين أعربية هى أم عبرية .

وجاء فى الفصل السابع عشر من الباب الرابع والعشرين أن الانسان إذا شرب فهو نشوان وإن دب فيه الشراب فهو ثمل . فإذا بلغ الحد الذى يوجب الحد فهو سكران . فاذا زاد امتلاء فهو سكران طافح . فاذا كان لا يتماسك ولا يتمالك فهو ملتخ . فاذا كان لا يعقل شيئاً من أمره ولا ينطق لسانه قيل سكران بات وسكران ما يبت . وكان من الواجب أن يذكر لنا الثعالبي شيئاً عن أصول هذه التعابير وأن يرينا متى وقعت كلمة (سكران طافح) وكيف وقعت : فى شعر أوفى نثر . وإذا كان مصدرها الشعر فمن يدرينا لعل للوزن والقافية دخلاً فى صبغها بصبغة التأكيد . وكل ما عمله الثعالبي أن دلنا على أن كلمة (ملتخ) منقولة عن الأصمعى وأن (سكران بات وسكران ما يبت) كلاهما عن الكسائى ولم يتعرض لأيهما الراجح وأيهما المرجوح .

وهذا المأخذ يسرى على جميع الأبواب التى روى فيها حصر الأوصاف والنعوت . فإن أكثر ما جرى عليه الثعالبي فى "فقه اللغة" وآبن سيده فى "المخصص" وآبن الأجدابى فى "كفاية المتحفظ" لم يلحظ فيه اختلاف اللغات . وإنما كان الغرض منه جمع الأشباه والنظائر فى الصفات والأسماء .

٣ — قلت لك إن المتقدمين لم يفرّدوا هذا العلم بموضوع خاص ، والآن أشير إلى أن منهم من غلبت عليه صنعة الكتابة فكان من همه أن يزيد في مادة الإنشاء بجمع ما تبدّد من الألفاظ والتعابير، وكان منهم من غلب عليه النحو والتصريف فكان من همه أن يقيد ما أطلقه من حرموا صناعة الإعراب إذ وجدهم (لا يبينون ما أنقلب في الألف عن الياء مما انقلبت الواو فيه عن الياء ولا يحذون الموضع الذي انقلب الألف فيه عن الياء أكثر من انقلابها عن الواو مع عكس ذلك ولا يميزون مما يخرج على هيئة المقلوب ما هو منه مقلوب وما هو من ذلك لغتان . وذلك بكذب وجبذ . ويئس وأيس . ورأى وراء ... وكذلك لا ينبهون على ما يسمعون غير مهموز مما أصله الهمز على ما ينبغي أن يعتقد منه تخفيفا قياسيا وما يعتقد منه بدلا سماعيا ولا يفرقون بين القلب والإبدال ولا بين ما هو جمع يكسر عليه الواحد وبين ما هو اسم للجمع ^(١) .

وهذا الاتجاه يسير إلى ما رمى إليه ابن جنى في "الخصائص" وإن كان دونه .

فإن ابن جنى أراد أن يسمو على ما شُغل به الكوفيون والبصريون وأن يعمل في أصول النحو ما عمله الذين سبقوه في أصول الفقه ^(٢) . وهذا وذاك سعى إلى غاية واحدة هي إنشاء فن جديد يجمع بين أسرار اللغة وأسرار الإعراب . ولا تزال الحاجة شديدة إلى فهم ما حاوله الثعالبي وابن جنى وابن سيده من دقائق هذا الفن العجيب ، والبحث عن المصادر الأولى التي مهدت لهم السبيل إلى التعمق في بعض الأبواب ، وتعقب الآثار الأدبية التي تعين على تصحيح ما وقعوا فيه من الأغلاط . وذلك يتطلب كثيرا من الجهود .

٤ — في كتاب ابن فارس طائفة من الأبحاث يتصل بعضها بأسرار اللغة ويرجع بعضها إلى مسائل عرضية كانت مما يشغل الناس إذ ذاك . من هذا كلامه عن الخط العربي وأول من كتب به وهو ينقل في سذاجة أن أول من كتب الكتاب العربي والسرياني والكتب كلها آدم عليه السلام قبل موته بثلاثمائة سنة . كتبه في طين وطبخه فلما أصاب الأرض الغرق وجد

كل قوم كتابا فكتبوه فأصاب اسماعيل الكتاب العربي . ويرى كذلك أن الخط توقيف لظاهر قوله عز وجل : « إقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق . إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » ويرى أنه ليس ببعيد أن يوقف الله آدم أو غيره من الأنبياء على كتاب ويقول « فأما أن يكون مخترع اخترعه من تلقاء نفسه فشىء لا تعلم صحته إلا من خبر صحيح ^(١) » .

ويبالغ فى إثبات أن لغة العرب توقيف لا اصطلاح . ويرى كما رأى فى زعمه ابن عباس أن الأسماء التى علمها الله آدم "هى هذه التى يتعارفها الناس من دابة وأرض وسهل وجبل وحرار وأشباه ذلك" ويقول فى سذاجة "ولعل ظانا يظن أن اللغة التى دللنا على أنها توقيف إنما جاءت جملة واحدة وفى زمان واحد وليس الأمر كذلك بل وقف الله عز وجل آدم عليه السلام على ما شاء أن يعلمه إياه مما احتاج إلى علمه فى زمانه وانتشر من ذلك ما شاء الله ثم علم بعد آدم من عرب الأنبياء صلوات الله عليهم نبيا نبيا ما شاء أن يعلمه حتى انتهى الأمر إلى نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم . فأتاه الله جل وعز من ذلك ما لم يؤته أحدا قبله تماما على ما أحسنه من اللغة المتقدمة . ثم قر الأمر قراره فلا نعلم لغة من بعده حدثت ، فان تعمّل اليوم لذلك متعمّل وجد من نقاد العلم من ينفيه ويرده" وهذا التوقيف هو عند ابن فارس منشأ اللغات . وإنه لخطأ مبين . وقد خطر له أن النحاة يقولون إن العرب فعلت كذا ولم تفعل كذا : من أنها لا تجمع بين ساكنين ولا تبدئ بساكن ولا تقف على متحرك وأنها تسمى الشخص الواحد بالأسماء الكثيرة وتجمع الأشياء الكثيرة تحت الاسم الواحد ، وهذا دليل على أن للعرب شيئا من الاختيار فى كيفية التعبير وهو يدفع ذلك بقوله . "إن العرب تفعل كذا بعد ما وطأناه من أن ذلك توقيف حتى ينتهى الأمر إلى الموقف الأول" ويحسن أن نذكر أن ابن فارس لم يبالغ فى تأييد هذا رأى إلا عند الكلام عن منشأ اللغات فقد انطلق عقله بعد ذلك وأدرك أن لاختلاف الاصطقاع والأقاليم تأثيرا فى تكوين اللغة وإن لم يعط هذا الوجه حقه من البيان .

٥ - وقد عني ابن فارس وهو يتكلم عن الكتابة والقراءة والخط بمسألة تتعلق برسم المصحف وقراءته : فذكر بسنده أن عثمان أرسل إلى أبي بن كعب كنف شاة فيها "لم يتسن" و "فأمهل الكافرين" و "لا تبدل للخلق" فدعا بالدواة فمحا إحدى اللامين وكتب "لخلق الله" ومحا "فأمهل" وكتب "فمهل" وكتب لم "يتسنه" ألحق فيها هاء .

ونقل عن الفراء أنه قال (إنباع المصحف إذا وجدت له وجهها من كلام العرب وقراءة القرآن أحب إلى من خلافه) .

وأنه قال (وقد كان أبو عمرو بن العلاء يقرأ «إن هذين لساحران» ولست أجتري على ذلك وقرأ (فأصّدق وأكون) فزاد واوا في الكتاب ولست أستحب ذلك) .

وكان على ابن فارس أن يكشف عن مغزى هذا التغيير في رسم المصحف وأن يبين إلى أي حد يقبل تصحيح النحاة لقراءات القرآن . ولكن يظهر أن رغبة الجماهير في الكف عن التعمق في درس ما يتصل بالدين حالت بينه وبين الإفصاح عما لمحاولات النحاة من الغرض البعيد . ونحن أيضا نكتفي بالإشارة إلى هذا البحث الخطير^(٢) .

٦ - المعروف أن العلوم العربية لم تنشأ الا في الاسلام : فالتحوي من وضع أبي الأسود الدؤلى . والعروض من وضع الخليل بن أحمد . والبلاغة من وضع عبد القاهر الجرجاني . الى آخر ما يهيجس به أدعياء التاريخ . وقد تنبه ابن فارس الى استبعاد هذه البداية للعلوم العربية فدكر أن علم العروض أقدم من عهد الخليل . قال : والدليل على صحة هذا وأن القوم قد تداولوا الإعراب أنا نستقرئ قصيدة الخطيئة التي أولها :

شاقك أظعان ليلى دون ناظرة بواكر

فنجده قوا فيها كلها عند التزعم والإعراب تجيء مرفوعة ولولا علم الخطيئة بذلك لأشبهه أن يختلف اعراسها : لأن تساويها في حركة واحدة اتفاقا من غير قصد لا يكاد يكون^(٣) .

(١) ص ١٠٩ و ١١٠ و ١١١ (٢) القرآن يجب أن يفرده نحو خاص ، وكذلك الأدب الجاهل والأمور ، ولغات العالم كله تعرف بما يسمى "النحو التاريخي" ونحن في حاجة الى ذلك النحو لتوجيه بعض ما يبدو شاذا من تعابير القرآن . (٣) ص ١١٠ و ١١١

وهنا يجب أن نشير إلى غلطة وقع فيها ابن فارس وهو يذكر أن علم العربية وعلم العروض كانا قبل الدؤلى والخليل . فقد نص على "أن هذين العلمين قد كانا قديما وأتت عليهما الأيام وقلا في أيدي الناس ثم جددهما هذان الإمامان" .

ومعنى هذا أن النحو الذى نعرفه علم مجدد لا مبتكر، وكذلك العروض . وهذا خطأ إن أردنا أن النحو والعروض كانا قديما على مثل هذا الوضع . والحق أنه يبعد أن لا يكون العرب فكروا فى ضبط لغتهم منذ العهود القديمة . ولكنه يبعد كذلك أن يكون ما عرفوه وتواضعوا عليه من الضوابط والقواعد مماثل لما عرف بعد الاسلام . لأن النحو الذى نعرفه هو نحو اللغة القرشية فكلمة "العرب" فى عبارة ابن فارس تحتاج الى تحديد .

٧ — ولا بن فارس رأى فى التعابير الأدبية فقد نقل لنا تعابير كثيرة ضاعت مغازيها من أذهان المتكلمين وبقيت خلوا من المدلول . وهو يرى أن كثيرا من الكلام ذهب بذهاب أهله وأن علماء اللغة يختلفون فى كثير مما قالته العرب فلا يكاد واحد منهم يخبر عن حقيقة ما خولف فيه بل يسلك طريق الاحتمال والامكان، وأنه لا يعرف أحد منهم حقيقة قول العرب فى الاغراء (كذبك كذا) وما جاء فى الحديث من قوله (كذب عليكم الحج) "وكذبك العسل" .

وقول القائل :

كذبت عليكم أو عدوني وعلاوا بى الأرض والأقوام قردان موطبا

وقول الآخر :

كذب العقيق وماء شئ بارد ان كنت سائلى غبوقا فاذهى

ونحن نعلم أن قوله (كذب) يبعد ظاهره عن باب الإغراء . وكذلك قولهم (عنك فى الأرض "عنك شيئا" وقول الأَفَوْه :

عنكمو فى الأرض إنا مذبح ورويدا يفضح الليل النهار

ومن ذلك قولهم "أحمد من سيد قتله قومه" أى "هل زاد ؟" .

وقال ابن ميادة :

وأعمد من قوم كفاهم أخوهمو صدام الأعادي حين قُلتَ نيوها

قال الخليل وغيره "معناه هل زدنا على أن كفينا" قال ابن فارس فهذا من مشكل الكلام

الذي لم يفسر بعد . وقول أبي ذؤيب :

صخب الشوارب لا يزال كأنه عبد لآل أبي ربيعة مسبح

قال ابن فارس : فقوله "مسبح" لم يفسر حتى الآن تفسيراً شافياً .

ومن هذا الباب قولهم "ياعيد مالك" و"ياحي مالك" و"ياشئ مالك" ولم يفسروا قولهم

"صه" و"ويهك" و"إنيه" ولا قول القائل :

* بخائبك الحق يهتفون وحى هل *

ويقولون "خائبكما وخائبكم" . فاما الزجر والدعاء الذي لا يفهم موضعه فكثير كقولهم

"وحى" و"وحى هلا" و"وبعين ما أرينك" في موضع اعجل . و(هج) و(هجا) و"دع" و"دعا"

و"لعا" للعائر يدعون له وينشدون :

ومطية حملت ظهر مطية حرج تنمى مل عثار بدعدع

ويروى عن النبي أنه قال "لا تقولوا دعدع ولا لعل . ولكن قولوا اللهم ارفع وانقع"

قال ابن فارس : فلولا أن للكلمتين معنى مفهوما عند القوم ما كرهما النبي . وكقولهم

في الزجر "أنحر" و"أخرى" و"دها" و(هلا) و(هاب) و"ارحبي" و"عد" و"عاج"

و"باعط" و"يعاط" وينشدون :

وما كان على الجئ ولا الهى امتداحيكا

وكذلك "إجد" و"وأجدم" و"حدج" .

(١)
قال ابن فارس : لا نعلم أحدا فسر هذا .

تأمل أيها القارئ في هذه التعابير المجهولة وأذكر أنها لم تجهل إلا لأنها كانت متصلة بقبائل تناساها المحدثون . ولو كانت هذه التعابير متصلة في لغة قريش لبقيت معروفة المدلول . وهنا نشير الى أنه لا بد من وضع قاموس يراعى فيه جانب التاريخ . فان المعاجم العربية جمعت الألفاظ والتعابير من هنا وهناك من غير أن تعين ما عُرِف في عصر ثم جُهل وما استُعمل ثم تجاوزاه الاستعمال . وقد نجد من كتاب العصر الحاضر من يظن المعاجم صورة صادقة لما كان يذهب اليه العرب في طرائق التعبير وهو خطأ لو يعلمون شنيع !

٨ — وقد تنبه ابن فارس الى التعابير التي لا يمكن الوصول فيها الى تعيين المراد . والمشتبه الذي لا يقال فيه اليوم إلا بالتقريب والاحتمال وما هو بغريب اللفظ ولكن الوقوف على كنهه معتاص . وذكر من ذلك قولنا (الحين) و(الزمان) و(الدهر) و(الأوان) فانك لا تدري اذا قال الخالف « والله لا كلمته حيناً أو زماناً أو دهرًا » الى أى حد يتصل الإعراض وكذلك « بضع سنين » . مشتبه . قال ابن فارس وأكثر هذا مشكل لا يقصر بشيء منه على حد معلوم ومن هذا الباب على رأيه قولهم في الغنى والفقر وفي الشريف والكريم والثلثم اذا قال « هذا لأغنياء أهلى » أو « فقرائهم » أو « أشرفهم » أو « كرامهم » أو « لكاهم » وكذلك إن قال « امنعوه سفهاء قومي » لم يمكن تحديد السفه .

قال ابن فارس : ولقد شاهدت منذ زمان قريب قاضيا يريد حجرا على رجل مكتهل فقلت وما السبب في حجره عليه ؟ فقليل يزعم أنه يتصيد بالكلاب وأنه سفیه . فقرئ على القاضى قوله جل ثناؤه « وما علمتم من الجوارح مكلّين تعلموهن بما علمكم الله . فكلوا مما أمسكن عليكم » . فأمسك القاضى عن الحجر على الكهل .

٩ — وقد أراد ابن فارس أن يثبت للغة العرب خصائص ليست لغيرها من سائر اللغات فزعم أنها انفردت بالبيان : لقوله جل ثناؤه « وإنه لتنزِيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين » .

ثم أعقب هذا الشاهد الذى لا يقيم حجته بهذه العبارة « فإن قال قائل : فقد يقع البيان بغير اللسان العربى لأن كل من أفهم بكلامه على شرط لغته فقد بين . قيل له : إن كنت تريد أن المتكلم بغير اللغة العربية قد يعرب عن نفسه حتى يفهم السامع مراده فهذا أخس مراتب البيان : لأن الأبكم قد يدل بإشارات وحركات له على أكثر مراده ثم لا يسمى متكلماً فضلاً عن أن يسمى بيناً أو بليغاً .

”وإن أردت أن سائر اللغات تبين إبانة اللغة العربية فهذا غلط : لأننا لو احتجنا أن نعبر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد . ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة . وكذلك الأسد والفرس وغيرها من الأشياء المسماة بالأسماء المترادفة . فأين هذا من ذلك؟ وأين لسائر اللغات من السعة ما للغة العرب؟“^(١) .

وهذا كما يرى القارئ كلام أجوف لا طائل تحته وهو يدل على أن ابن فارس كان قليل العلم بما عُرف لعهد من آثار الفرس واليونان . وإلا فكيف جازله أن يظن أنه لاحظ لغير العرب فى البلاغة والبيان ! ثم ما هو الدليل على انفراد العرب بالإفصاح؟ لا شيء إلا أن للأسد خمسين ومائة اسم ، وللسيف خمسمائة ، وللمية مائتين ، وما شاء الله كان ! وقد شاع هذا الغلط عدة قرون وكان من آثاره أن سأل الرشيد الأصبغى عن شعر لابن حزام العكلى ففسره فقال الرشيد :

يا أصبغى ! إن الغريب عندك لغير غريب ! فقال ”يا أمير المؤمنين ألا أكون كذلك وقد حفظت للحجر سبعين اسماً“ وكان من آثاره أيضاً أن أفرد الصاحب ابن عباد هذه المترادفات بكتاب !

ولقد جرى ذكر هذه (الثروة اللغوية) فى درس الدكتور طه حسين فأشار الى أن هذا غير طبيعى أو أنه على الأقل إسراف . وهو يرجح أن كثرة المترادفات الى هذا الحد ليست إلا أثر من عبث الرواة ولعبهم بالجماهير . ويرى أنها ترجع الى السياحات العديدة التى كان

يرمى بها الرواة واللاغويون الى جمع ما تفرق في أحشاء البادية من مختلف الصفات والأسماء ليعودوا الى الحواضر مثقلين بمادة المكاثرة والتعجيز ثم لا يتخرجون من أن يقولوا إن العرب تعرف للأسد خمسين ومائة اسم ولل سيف خمسمائة وللحبة مائتين .

فمن هم هؤلاء العرب أيها الناس؟ أليسوا في أنفسكم كل من أفادت الجزيرة العربية من شتيت القبائل وعديد الأحياء؟ ولكن ألا تذكرون أننا حين نذكر لغة العرب لا نريد غير لغة قريش التي نزل بها القرآن؟ أقستطيعون أن تثبتوا أن قريشا عرفت للحجر سبعين اسما وللكلب ما لا ندري كم تعدون من الأسماء؟

١٠ — وقد غفل ابن فارس عن تأثير الاقليم في اللغة العربية فظن التعابير التي انفرد بها العرب — لما تأثر به أسماعهم وأبصارهم — فضلا تطول به لغتهم سائر اللغات . وكذلك يرى أنه لا يمكن لغير العربي أن يعبر عن قولهم (رحب العطن، وغمر الرداء . ويخلق ويفرى . وهو ضيق المحجم . قلق الوضين . وهو ألوى بعيد المستمر . وهو شراب بأنقع . وهو جذيلها المحكك وعذيقها المرجب . وعى بالاسناف) .

ولو تأمل ابن فارس قليلا لعرف أن هذه التعابير ليست إلا تمثيلا لما يراه العرب في باديتهم من الحيوان والنبات والجماد ، وأنه من المعقول أن يكون للهند والفرس والروم تعابير كهذه أخذت مما تقع عليه أبصارهم من أنواع الموجودات ولا يستطيع العرب أن يسبقوها لأنها وقعت على غير ما يألون .

٥ - النقد الأدبي عند ابن شهيد

سر البيان — خصومة ابن شهيد وحققه على المعلنين في قرطبة — مذهب الجاحظ في تعليم البيان — كيف تكون ملاحاة النحو وفصاحة الغريب — الأنساب والقرباب بين الحروف — ربط القوافي والأوزان بالمعاني — كيف كان الشعر ينفع المجتدين عند البقالين والقصاصين — هل في مقدور كل بلّغ أن يصل الى كل غرض — البلاغة سيارة نفسية من المتكلم للخطاب — أثر الطبع في البلاغة — هل لجمال الأعضاء دخل في جمال النفوس ؟ — وهل كان الجاحظ لدمامته من أهل الغفلة والحق ؟ — كيف وزن أقدار الرجال ؟

١ - أشرنا عند الكلام على رسالة "التواضع والزواضع"^(١) الى ما كان يراه ابن شهيد من أن البيان نفحة سماوية ولا صلة له بالنحو والتصريف ومعرفة الغريب، فلنذكر الآن أن هذا الرأي كان من المسائل التي شغل بها ابن شهيد وأخذ يبدئ فيها ويعيد كلما تكلم عن النقد والبيان . ومن الخير أن ننص هنا على أن ابن شهيد لم يكن في درس هذه المسألة مخلصا كل الإخلاص، فقد تبين لنا بعد مراجعة ما كتبه في ظروف مختلفة أنه كان حريصا على تحقير جماعة من اللغويين والنحويين الذين عاصروه في الأندلس وناصبوه الخصومة والعدا . وقد اجتهد في أن يخفي علينا تعامله على رجال النحو والتصريف والغريب ويصنع أحكامه بصيغة التعميم، ويبعد عن أذهاننا ما يريد من التخصيص، ولكنه غلب على أمره فصرح بشكواه من قلة إنصاف النحويين له وتسليطهم عليه وإسرافهم في ثلبه . فانفهم هذا جيدا قبل عرض آرائه لنذكر أن أقواله مشربة بالضعف والحق وأنها لا ينبغي أن نتخذها أساسا صالحا لتقدير العلوم العربية من نحو وصرف وأشتقاق: لأن تلك العلوم ضرورية، وليس من النفع أن نوافق ابن شهيد على الاستهانة بها وتحقير أهلها، وإن كنا نعرف أنها لا تكفي وحدها لمنح طلاب الأدب ملكة البيان .

(١) راجع تحليل رسالة التواضع والزواضع في باب « الأخبار والأفاصيص » من الجزء الأول .

٢ — يتحدثنا ابن شهيد أن قوما من المعلمين في قرطبة ممن أتوا على أجزاء من النحو وحفظ كلمات من اللغة ينحتون عن قلوب غليظة كقلوب البعران، الى فطن حثة، وأذهان صدئة، لا منفذ لها في شعاع الرقة، ولا مدب لها في نور البيان، سقطت اليهم كتب في البديع والنقد فهموا منها ما يفهم القرد اليماني من الرقص على الايقاع والزمير على الألحان، فهم يصرفون غرائبها تصريف من لم يرزق آلة الفهم، ولم يكن له آلة الصناعة، كالجمار الذي لا يمكنه أن يتعلم صناعة ضرب العود والطنبور لتدوير رؤسغه واستدارة حافره، وأنه لو جاز لجمار أن يغني :

ما بال أنجم هذا الليل حائرة أضلت القصد أم ليست على فلك

لما جاز أن يوقع بالضراب على الأوتار، ويرنخى الوتر في مجرى السبابة والبنصر فيلبل بنشيدته، ويولول في ضربه، وكذلك حال المتعلمين في قرطبة على رأى ابن شهيد^(١).

٣ — وفي موطن آخر نراه ينشد بالمعلمين ويصفهم بأوصاف منكرة ثم يقول :

”وما علم من خلق هذه العصابة اذا محتنا أبصارهم قابلونا بالملق، وهم منطوون على الحسد والحنق، فاذا جمعنا المحافل، وضممتنا المجالس، تراهم الينا مبصبصين، وعن الأخذ في شيء من تلك المعاني واقفين، وانما يتبين تقصير المقصر، وفضل السابق المبرز، اذا اصططكت الركب وازدحمت الخدق، واستعجل المقال ... الخ“^(٢).

٤ — ولا يكتفى ابن شهيد بمثل تلك الحملات في تحقير المعلمين، بل يضيف قول الجاحظ :

”إنا اذا اكثرنا من يعلم صبياننا النحو والغريب قنع منا بعشرين درهما في الشهر، ولو اكثرنا من يعلمهم البيان لما قنع منا إلا بألف درهم“ وقد أمكنت هذه الكلمة ابن شهيد من إعلان رأيه في كتاب البيان والتبيين الذي ألفه الجاحظ وهو في رأيه كتاب لم يكشف فيه عن وجه التعليم وصور كيفية التدريج“ ليرى القارئ كيف يكون وضع الكلام وتنزيل البيان،

(١) الذخيرة ص ١٢٢ ج ١ (٢) ص ١٢٤ (٣) ١١٨

وكيف يكون اتوصل الى حسن الابتداء وتوصيل اللفظ بعد الانتهاء . ومن رأى ابن شهيد أن الجاحظ " استمسك بفائده ، وضمن بما عنده غيرة على العلم ، وشحا بثمره الفهم " لأنه عرف ، « أن النفع كثير والشاكر قليل » ولذلك كان كتابه في البيان موقوفا على أهله ومن كرع في حوضه ، أما الجاحل والمبتدئ فلا نفع له من كتابه على الإطلاق .

٥ - ونحن لانوافق ابن شهيد على ما رآه في كتاب البيان ، ونفهم أن الجاحظ لم يخف شيئا عن عمد ، وإنما نفترض أن تلك كانت طريقة الجاحظ في التأليف : فهو ينتقل من فن الى فن ، ومن كلام الى كلام ، جريا على طريقته في تسطير كل ما يمر بخاطره من ألوان الأدب والعلوم لأيسر المناسبات . وما نكاد نتصور أن التعليم كان من مبتغيات الجاحظ حتى يهتم بالترتيب والتبويب ، وإنما نتمشله رجلا يكتب لنفسه قبل كل شيء ، ويرضى شهوته في تدوين عناصر الثقافة الأدبية والعلمية على طريقة كتاب الموسوعات من القدماء الذين كانوا يخشون على العلم من الضياع ويكفهم أن يدونوا ما يسمعون أو ينقل اليهم من مختلف الأقوال والآراء والشواهد والأمثال .

٦ - وليس إنحاء ابن شهيد على النحو والغريب معناه أنه ينكر قيمة ذلك في البيان ، كلا ، وإنما يحتم أن يختار الكاتب ألمح النحو وأفصح الغريب . وملاحظة النحو هذه لم أرها عند أحد غير ابن شهيد ، وهو يريد بها اختيار الوضع النحوي الذي يساعد على أداء المعنى ، فقد يكون الكلام مستقيا من الوجهة النحوية ولا يكون مستقيا من الوجهة البيانية ، فان البلاغة في الواقع تبني على سلامة التركيب .

والتركيب السليم لا يراد به التركيب الخالي من الغلط حين يراد وزنه بالموازن النحوية ، وإنما هو التركيب الذي يستوفي الدقائق المعنوية التي يهتم بتقيدها علماء المعاني . أما فصاحة الغريب فهي عند ابن شهيد وضع اللفظة الغريبة في موضعها بحيث لو وضعت مكانها كلمة مألوفة لتطرق الى المعنى شيء من الإخلال . ولنتظر كيف يقص علينا ابن شهيد بعض ما كان يقع له مع تلاميذه في هذا الباب :

« جلس إلى يوسف الاسرائيلي وكان أفهم تلميذ مرة بي وأنا أوصي رجلا عزيزا على من أهل قرطبة وأقول له : ان للحرور أنسابا وقرابات تبدو في الكلام . فاذا جاور النسيب النسيب ، ومازج القريب القريب ، طابت الألفة وحسنت الصحبة ، وإذا ركبت صور الكلام من تلك حسنت المناظر ، وطابت المخابر ، أفهمت ؟ قال :

إي والله ! قالت له : وللعربية إذا طلبت ، وللفصاحة إذا التمت ، قوانين من الكلام من طلب بها أدرك ، ومن نكب عنها قصر ، أفهمت ؟ قال : نعم . قلت : وكما تختار مליح اللفظ ورشيق الكلام فكذلك يجب أن تختار مليح النحو وفصيح الغريب وتهرب من قبيحه . قال : أجل . قلت أنفهم شيئا من عيون كلام القائل :

لعمرك إني يوم بانوا فلم أمت خفاتا على آثارهم لصبور
غداة التقينا إذ رميت بنظرة ونحن على متن الطريق نسير
ففاضت دموع العين حتى كأنها لناظرها غصن يراح مطير

فقال : إي والله ! وقعت (خفاتا) موقعا لذيذا ، ووضعت (رميت) و (متن الطريق) موضعا مليحا ، وسرى (غصن يراح مطير) مسرى لطيفا . فقلت له : أرجو أنك تنسجت شيئا من نسيم الفهم فأغد على بشيء تصنعه .

قال ابن شهيد : « وكان ذلك اليهودي ساكنا يبي ما أقول فغدا ذلك القرطبي فأنشدني :

حلفت برب مكة والجبال لقد وزنت كروبي بالجبال

في أبيات تشبه وجاء اليهودي فأنشدني :

أيهم ركبأنهم منعجا وقد ضمنوا قلبك الهودجا

وآستمز إلى آخر القصيدة فأني بكل حسن ، فقال لي ذلك القرطبي : شعر اليهودي أحسن من شعري ! قلت ولا بأس بفهمك إذ عرفت هذا . ولم يزل يتدرب باختلافه إلى حتى ندى ثربه ، وطلع عشبه ، ثم تفتح زهره ، وضاع عقبه . ورائي أستعمل وحشى الكلام

في موضعه ولم يشعر بحسن الموضع فاستعمل شيئاً منه وعرضه على . فقلت : استره ! فقال : تبخل علىّ به ! وعرضه على ابن الإفليل فقال له : تتكب هذا الكلام . فقال له : إن أبا عامر يستعمله ! قال : يضعه في موضعه وهو أدرب منك ^(١) .

وهذا كلام جيد، وأجوده مانص فيه على أن للحروف أنساباً وقرايات تبدو في الكلام، فإذا جاور النسيب النسب ومازج القريب القريب طابت الألفة وحسنت الصحبة . وهذه الفكرة الدقيقة ليست من مبتكرات ابن شهيد فقد رأيناها قبله منسوبة إلى ابن العميد حين حدثنا صاحب في مقدمة كتابه عن مساوى المتنبي أنه لم يحسد فيمن صحب من يفهم الشعر كما يفهمه أبو الفضل بن العميد « فانه يتجاوز نقد الأبيات إلى نقد الحروف والكلمات ولا يرضى بهذيب المعنى حتى يطالب بتخير القافية والوزن ^(٢) » .

وبذلك تكون كلمة ابن العميد أسبق وأشمل من كلمة ابن شهيد ، لأن ابن العميد يربط القوافي والأوزان بالمعاني، فليس كل وزن بصالح لكل معنى، لأن بعض القوافي والأوزان أرق أو أضخم من بعض، كما أن بعض الألفاظ والمعاني ألطف أو أجزل من بعض، وفطنة الشاعر والكاتب هي التي تؤلف بين المعنى وبين لبوسه من ألفاظ وحروف وقواف وأوزان.

٧ - ويرى ابن شهيد أن البلاغة تختلف باختلاف أقدار المخاطبين، ومعنى هذا أن البلاغة صلة نفسية بين المتكلم والمخاطب، فهي ترجع إلى فهم المتكلمين لنفوس المخاطبين، وعلى ذلك لا يكون أساس بلاغة الكلام صلاحيته لأن يلقي إلى جميع الناس في جميع الأحوال، وإنما بلاغة الكلام أن يبلغ بصاحبه إلى الغرض الذي يرمى إليه عند الخطاب . ويقول في ذلك :

«وربما لا ذ بنا المستطعم بأسم الشعر ممن يخطط العامة والخاصة بسؤاله فيصادف منا حالة لا تتسع في كبير مبرة فنشاركه ونعتذر له ، وربما أقدناه بأبيات يتعمد بها البقالين ومشايخ القصايين ، فإذا قارفت أسماعهم ، ومازجت أفهامهم ، در حلبهم ، وانخلت عقدهم ، وجل شخص

(١) ص ١١٨ و ١١٩ من السخيرة . (٢) مقدمة كشف مساوى المتنبي .

(٣) الخبط : السؤال ، من خبط الشجرة سدّها ثم نقض ورقها لتسقط منها الثمرة .

ذلك البأس في عيونهم : فما شئت إذ ذاك من خبزة وثيرة يحشى بها كفه ، ورقبة سمينة تدفن في مخلاته ، ومن كوز فقاع يصب في فمه ، وتينة رطبة يسد بها حلقه ، وسنو سمكة ودكة تدس تحت لسانه ، وقالودجة رطبة يحنك بها حنكه ، فلا يكاد البأس يستم ذلك حتى يأتينا فيكب على أيدينا يقبلها ، وأطرافنا يمسحها ، راغبا في أن نكشف له السر الذي حرك العامة فبذلت ما عندها له وبادرت برفدها إليه ^(١) .

وتلك قصة نعرف منها كيف كان الشعر الفصيح ينفع من يستجدون البقالين والقصايين في الأندلس ، وكيف كانت تلين اللغة لمثل ابن شهيد حتى يخاطب بها في بلاغة جميع الطبقات . والمهم أن نعرف رأى صاحبنا أبي عامر حين طُلب منه كشف السر الذي حرك العامة بفادات بعد بخل ، وهشت بعد جمود ، وهو يقول في الجواب :

”وتعليمه ذلك النحو من أنحاء الشحذ لا نستطيعه : لأن هذا الذي يريد منا تعليمه هو البيان وبين فكره وبينه حجاب . ولكل ضرب من الناس ضرب من الكلام ووجه من البيان“ ^(٢) .

٨ - وأبن شهيد يرى أنه ليس في مقدور كل بليغ أن يصل الى كل غرض : فهناك ناس بخلاء من الكبراء يعسر تحريكهم إلى البذل بحيث لا ينجح فيهم تقريظ ، وإذ ذاك ”يحتاج الى أنقب ما يكون من الذهن وأوسع ما يكون من الحيلة . إلا أن هذه العصابة لا يمكن لذى النباهة تحريكها ولا بد لها من طبقة يكون لها في العين بعض التصويب والتصعيد ، ولهذا صار سب الاشراف عسيرا عويضا فانك تجدهم يتدحرج عنهم قبيح المقال ، ولا يضعفهم خبيث الكلام ، لقوة بنيانهم وثبات أركانهم ، فهدم بنيان هؤلاء صعب“ ^(٣) .

وهذا الذي يقوله ابن شهيد يحتاج إلى تحديد : فمن الحق أن هناك مواطن يحار فيها البليغ وقد تبدو البلاغة في بعض الأحيان لونا من اللغو والفضول ، لعجز الكاتب والشاعر والخطيب عن غزو بعض النفوس ، ولكن في تلك المواطن وحدها يُحتاج الى بيان الكتاب والخطباء

والشعراء، وبمقدار فهم البليغ لما تعقد واستبهم من بعض الأهواء والميول يكون نجاحه في درك ما يتعسر على سواد المنشئين، لأن لكل شخصية مهما مكر صاحبها وخبت ولؤم جوانب من الضعف ينفذ إليها القول حين يتصل المنشئ بأسرار من يخاطبهم من أهل الشح والكنود، وسر البلاغة لا يظهر إلا في المواطن التي تبدو مفروغا من الكلام فيها، وميثوسا من فائدة العود إلى شرحها وتفصيلها، فإن المنشئ لا يعجز إلا حيث يكون الحق جوق بداهة وظهور بحيث يظهر كل بيان وكأنه حديث مررد معاد، عند ذلك يعرف البليغ الموفق كيف يحول المسائل الظاهرة إلى مشاكل عقلية وروحية واجتماعية، فينقل قلوب الجاحدين وعقولهم إلى جواء من البحث والتفكير ويقفهم موقف الحيرة والتردد بين الخير والشر والبر والعقوق. فليس البليغ هو من يأتي فقط بالبدع الطريف، ولكن البليغ هو من يحول الموضوعات العادية إلى شئون جديدة طريفة تتخلل فيها عزائم أهل الشح أو تنهض ضمائر أهل الجمود. وليس من الصحيح أن هناك ناسا يصعب هدم بنيانهم، ولكن الصحيح أن هناك ناسا لا يهدمون لأنهم يهاجمون بمحاول محطمة من الهجو القبيح.

والبليغ يستطيع أن يصل دائما من طريق علم النفس إلى مكان الضعف من نفوس الأقوياء الذين يتوحدون أمام دعوات الخير والبر والاحسان، فنى كل نفس مهما لؤمت جوانب خيرة غافية يقدر على إيقاظها البارعون من أهل البيان.

وجملة القول في هذا المعنى أن البلاغة ضرب من السياسة النفسية، ومن السياسة تكون نظراتهم أشد خطراً على أعدائهم من الجيوش والأساطيل، وكذلك البليغ يكون في أحيان كثيرة شراً مستطيروا على المعاندين من يخاطبهم أو يرأسهم أو يحاورهم في جد أو في هزل، من قرب أو من بعد، لأن البلاغة ليست إلا تقل ما في الروح من حب أو حقد، أو عتب، أو ملام، وصب ذلك كله في رفق أو عنف في أفئدة من تخاطب أو تكاتب من عدو أو صديق. وذلك يفرض أن تفيض عنا البلاغة ونحن في أعلى درجة من درجات التيقظ والقوة، وفي أسنى أوج من الغضب أو الحنان، بحيث تكون أنفاسنا شواظا يتلظى حين نهجم

ونفتك ، ونسيا يتأرجح حين نحنو ونعطف . أما وضع الكلام في ذهول ومن غير درس لأنفس المخاطبين فهو العي الذي استعاذ منه الخطباء ، والإخام الذي تهيب عواقبه الشعراء .

ومن الناس من يظن أن البلاغة ليست إلا سواد المداد في بياض القراطيس !

٩ — على أن ابن شهيد لم يفقه أن سر البلاغة يرجع الى الطبع قبل أن يرجع الى استيفاء مسائل النحو وحفظ كثير الغريب . وعنده أن البلغاء يتفاوتون بقدر ما يتفاوت تركيب أنفسهم مع أجسامهم :

” فمن كانت نفسه مستولية على جسمه كان مطبوعا روحانيا يطبع صور الكلام والمعاني في أجمل هيئاتها وأروق لباسها . ومن كان جسمه مستوليا على نفسه من أصل تركيبه كان ما يطلع من الصور ناقصا عن الدرجة الأولى في التمام والكمال وحسن الروق .

” فمن كانت نفسه هي المستولية على جسمه فقد تأتى منه في حسن نظام صور رائعة تملأ القلوب وتتعش النفوس ، فاذا قششت لحسنها أصلا لم تجده ، ولجمال تركيبها وجهها لم تعرفه ، وهذا هو الغريب أن يتركب الحسن من غير الحسن ، كقول امرئ القيس :

تنورتها من أذرعات وأهلها بيثرب أدنى دارها نظر عالى

فهذه الديباجة إذا تطابت لها أصلا من غريب معنى لم تجده ، ولكن لها من التعلق بالنفس والاستيلاء على القلب ما ترى^(١) .

وهذا الكلام يمثل جانبا من جوانب البلاغة عند ابن شهيد ، وهو جانب الطبع . ومعنى ذلك أنه قد يتفق لنا أن نهجب بفقرة من النثر ، أو بيت من الشعر ، بدون أن يكون لما أعجبنا به معنى غريب ، وإنما سر إعجابنا يرجع الى ما طبع به الكلام من شرف الطبع وسمو الروح . والجانب الثانى عند ابن شهيد هو المعنى ، أما اللفظ فهو عنده قالب ولَبَّوس لا قوام له بغير المعنى ، وهو لذلك يوصى الناقد بأن ” يفتش عن شرف المعانى ، وينظر مواقع البيان ، ويحترس من حلاوة خدع اللفظ^(٢) ” .

ويقتر أن البليغ "إنما يستحق اسم الصناعة بتقحم بحور البيان، وتعمد كرائم المعاني" ولا يتم له ذلك إلا بأن "يتمطى الفصل ويركب الحد، ويطلب النادرة السائرة وينظم من الحكمة ما يبقى بعد موته"^(١).

وكل هذا جدير بالتأمل والدرس ففيه شرح لما استغلق على النقاد أزمانا كثيرة، ألسنا نرى في بعض الرسائل والخطب والقصائد نماذج فاتنة، ودعى مع ذلك خلو من غرائب المعاني؟ فلنعرف الآن أن السر في إعجابنا بأمثال تلك النماذج مرجعه الى الطبع والروح. ونحن نستطيع تعليل ذلك بدرس من نعرف من الناس، فهناك أفراد غناؤهم قليل، ومحصولهم ضئيل، ومع ذلك تُفتن بهم أحيانا ونراهم أهلا للجب والإعجاب. وهذا هو سر ذبوع كثير من الآراء الخفيفة الوزن، القليلة العمق، فانها قد تصدر عن فطر سليمة، وطباع شريفة، ينقصها العمق ولكنها غنية بالنبل والصفاء.

١٠ - ولا يقف ابن شهيد عند اشتراط شرف النفس، وكرم الطبع، بل يتعدى ذلك الى الصفات الجسمية: وهو يرى الأجسام من صور النفوس. يوضح ذلك قوله في المعلمين بقرطبة: "يذكرون بالطبيعة ويقصرون بالآلة. وتقصيرهم بالآلة هو من طريق العلل الداخلة، من فساد الآلة الروحانية، والخادمة لآلات الفهم، الباعثة لريق الدم في الشريان الى القلب وزيادة غلظ أعصاب الدماغ وتقصرانها عن المقدار الطبيعي، وما يعين على ذلك بالحس وطريق الفراسة من فساد الآلات الظاهرة كفرطحة الرأس وتسفيطه، وتنسوء القمحودة،^(٢) والتواء الشدق، ونخر العين، وغلظ الأنف، وانزواء الأرنبة. فنستعيز بالله أن لا يشوه خلقه قلوبنا وجرم أبكادنا"^(٣).

وهذه الأحكام متصلة أوثق اتصال بعلم النفس وعلم منافع الأعضاء، فليس من شك في أن للجسم تأثيرا شديدا على الروح حتى في صورته. والصور المقبولة تبعث في أصحابها روح الثقة بالنفس. وليس من المجازفة في شيء أن نتخذ من ذلك تعليلا لهفوات العظام: فهم في الأكثر أصحاب أهواء وشهوات، وذلك مظهر من مظاهر الاتساق بين عافية البدن وشباب الروح.

(١) ص ١٥٦ (٢) القمحودة: عظم الرأس مما يميل الى القفا. (٣) ص ١٢٢

١١ - وابن شهيد وفي لمبدئه في ربط الصلة بين النفس والأعضاء، وقد حملة ذلك على النيل من الجاحظ والغض من قيمته العلمية والأدبية، ورميه بالغفلة والحمق . وقد خطأ أبا القاسم الافليسي في تقديمه الجاحظ على سهل بن هارون . ومن رأى ابن شهيد أن حرمان الجاحظ من شرف المنزلة بشرف الصنعة مع تقدم ابن الزيات وإبراهيم بن العباس إما أن يكون لأنه كان مقصرا في الكتابة وجميع أدواتها ، أو لأنه كان ساقط الهمة ، أو لأن إفراط بحوظ عينيه قعد به : لأنه لابد لللك من كاتب مقبول الصورة تقع عليه عينه ، وأذن ذكية تسمع منه حسه ، وأنف ذكي لا تذم أنفاسه عند مقاربتة له . ولذلك استحسنا من الكاتب أن يكون طيب الرائحة ، سليم آلات الحواس ، نقي الثوب ، ولا يكون وسخ الضرس منقلب الشفة ، مكحل الأظفور ، وضر الطوق .

وقد شعر ابن شهيد بأنه من التحامل أن يرمى مثل الجاحظ بنقص في أدوات الكتابة فقال :

”ربما أنكر قولنا في شرطه جمع أدوات الكتابة قليل : وأي أداة نقصت الجاحظ؟ فنقول : أول أدوات الكتابة العقل ، ولا يكون كاتب غير عاقل ، وقد نجد عالما غير عاقل ، وجدليا غير حصيف ، وفقيرا غير حليم . وقد وجدنا من ينسب العقل الى سهل أكثر من ينسبه الى الجاحظ ، ولو شاهد الجاحظ سهلا يخادع الرشيد ملكا ويدبر له حريا ، ويعانى له إطفاء جمرة فتنة ، ناهضا في ذلك كله بعقله وتجربة علمه لرأى أن تلك السياسة غير تسطير المقال ، في صفة غراميل البغال ، وغير الكلام في الجوزان ، وبنات وردان ، ولعلم أن بين العالم والكاتب فرقا“^(١) وهذا الكلام يعطى لابن شهيد صورة غير مقبولة ، فالأدب والعلم عنده من وسائل العيش والخطوة لدى الملوك ، وبمقدار نجاح الكاتب في دنياه يكون فضله . وهذا خطأ مبين .

قد تكون دمامة الجاحظ هي التي قعدت به كما قصّر ابن شهيد نفسه ثقل سمعه ، وكما تخلف صاحبه الأفيلي لورم أنفه . وإذا ذلك يكون للجاحظ عذره المقبول .

ولكن هل خطر ببال ابن شهيد أن هناك اختلافا بينا في تركيب النفوس ؟ إننا نعرف بالتجربة أن العقول شهوات ، فقد تكون السياسة أشهى ما يسمو اليه أمثال سهل بن هارون ولكن لا ريب في أن العلم أيضا شهوة ، وكان الجاحظ مفتونا أشد الفتنة بدرس علم الحيوان ، وكان كذلك مفتونا بدرس طبائع الناس وغرائزهم في مختلف الطبقات . فليس من العيب أن يهتم بالصغائر في العلوم لأن العلم في أصغر جزئياته لا ينال من العالم غير الإكبار والإجلال . إن من العدل أن تزن الأمور بميزان آخر غير النجاح المؤقت الذي يظفر به الكتاب السياسيون : يجب أن تزن أقدار الرجال بما يبذلون من الجهود في أعمالهم الأدبية والعلمية ، وإذا ذلك تمكن الموازنة بين ما عمل سهل بن هارون في ميدان السياسة وبين ما عمله الجاحظ في ميدان العلم ، أما الموازنة بين حظوظهما الدنيوية فباب من الضلال . ويا ويل أهل الفضل إن قيسست أقدارهم بمقياس ما يملكون من دراهم معدودات !

٦ - أبو بكر الباقلاني^(١)

١ - لم يصل إلينا من آثار أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني إلا كتابه «إعجاز القرآن» وفي بقاء هذا الكتاب مع ضياع سائر ما وضعه المؤلف دلائل على أن معاصريه كانوا احتموا بنسخه ومدارسته فسلم بذلك من الضياع . ونحن وإن لم نر من مؤلفات الباقلاني غير كتابه في إعجاز القرآن فانا نستطيع الحكم بأنه خير كتبه : لأنه في موضوع خطير جدا كان يستوجب من مثله حماسة واستعدادا بالغين . فقد كان بعض الناس في عصره يرتابون في إعجاز القرآن وكان في ارتيابهم ما يسوقه إلى درس الإعجاز من جميع أطرافه ، ودفع الشبه التي كان يذيعها الملحدون في الحواضر الاسلامية . وإنه ليمثل لنا الأزمة العقلية التي أطبقت على معاصريه إذ يقول :

« ومن أهم ما يجب على أهل دين الله كشفه ، وأولى ما يلزم بحجته ، ما كان لأصل دينهم قواما ، ولقاعدة توحيدهم عمادا ونظاما ، وعلى صدق نبينهم برهانا ، ولمعجزته ثبوتا وحجة . لا سيما والجهل ممدود الرواق ، شديد النفاق ، مستول على الآفاق . والعلم الى عناء ودروس ، وعلى خفاء وطموس ، وأهله في جفوة الزمن البهيم ، يقاسون من عبوسه لقاء الأسد الشليم ، حتى صار ما يكابدونه قاطعا عن الواجب من سلوك مناهجه ، والأخذ في سبيله . فالتناس بين رجلين : ذاهب عن الحق ذاهل عن الرشيد ، وآخر مصدود عن نصرته مكدود في صنعته ، فقد أدى ذلك الى خوض الملحدين في أصول الدين ، وتشكيكهم أهل الضعف في كل يقين . وقد قل

(١) ولد الباقلاني في البصرة ، وسكن بغداد ، وبها كانت وفاته يوم الأحد لسبع بقين من ذي القعدة سنة ٤٠٣ هـ . وكان من كبار أهل السنة . ورثاه بعض معاصريه بقوله :

أنظر الى جبل تمشى الرجال به وانظر الى القبر ما يحوى من الصلف

وانظر الى صارم الاسلام مقتدا وانظر الى درة الاسلام في الصدف

والباقلاني : نسبة الى الباقل بتشديد اللام وقصر الألف . وفيها كلام تجده في وفیات الأعيان ج ٢ ص ٢٧٠

أنصاره، واشتغل عند أعوانه، وأسلمه أهله، فصار عرضة لمن شاء أن يتعرض فيه حتى عاد مثل الأمر الأول على ما خاضوا فيه عند ظهور أمره : فمن قائل إنه سحر، وقائل يقول إنه شعر . وآخر يقول إنه أساطير الأقلين ... الخ^(١) .

وليس في هذه الفقرة شيء جديد فإن شكوى الزمان من الظواهر الإنسانية التي يجدها المطلع في أكثر ما اثر عن القدماء والمحدثين . ورجال الدين خاصة يكثر من التبرم بمعاصريهم ووصفهم بالزيف والاحاد والفسوق . فليس معنى هذا الكلام أن أهل القرن الرابع كانوا أكثر الناس شبهات وأضاليل ، ولكن معناه أنهم كانوا كذلك في نفس المؤلف ، وفي هذا ما يدفعه الى التأهب لمناضلة المرتابين في إعجاز القرآن .

٢ — ونحب في بداية هذا الفصل أن نحدد موقفنا في درس كتاب الباقلاني عن الإعجاز . ونقرر — في صراحة — أننا لا نريد عرض مسألة الإعجاز على بساط البحث من جديد . وانما يهمنا أن نتبين كيف كان القدماء يفهمون النقد وكيف كانت مذاهبهم في وزن الكلام البليغ . فكتاب الباقلان في نظرنا صورة للحياة الأدبية في أنفس الناقدين من رجال القرن الرابع . وليس حجة في تقدير القرآن . لأن وزنه أخف من أن يفصل في تلك المسألة الدقيقة : مسألة الكلام المعجز الذي يسمو ببلاغته على ما يتطلع اليه فرسان الفصاحة والبيان . وهناك جانب آخر لا نذكر أن من الباحثين من أشار اليه : وهو جمع المحاولات الأدبية التي حاولها خصوم القرآن ، ففي تلك المحاولات صورة من صور النقد لها قيمة في أنفس من يعنون بتاريخ الآداب . ونحن كمؤرخين للأدب يهمنا أن نستقصى جهد الطاقة ما تناثر هنا وهناك من محاولات الناقدين بدون تفريق بين الخطأ والصواب . فان ذلك في جملة ما يمكننا من درس الحياة الأدبية دراسة علمية بعيدة عن مطارح الأوهام والظنون .

٣ — من ذلك ما حدثنا الباقلاني أنه نقل اليه أن من خصوم القرآن من (جعل يعدله ببعض الأشعار ويوازن بينه وبين غيره من الكلام ولا يرضى بذلك حتى يفضل عليه)^(٢) — ففى

هذا الخبر ظاهرة أدبية خطيرة ينبغي أن نقيدها أنها وقعت في القرن الرابع . ولو أن الباقلاني بين لنا كيف كانت تلك المعادلات والموازنات لاستطعنا أن نعرف الى أى حد كانت تلك المحاولات تتصل بتاريخ النقد الأدبي ، ولكن ما صنعه الباقلاني نفسه في نقد امرئ القيس والهجري يحدد لنا ذلك المنهج بعض التحديد : فقد عرض لأشهر قصيدة نسبت الى امرئ القيس وهي المعلقة فنقدتها بيتا بيتا بعد أن أشار الى أنه لا يرتاب في جودة شعر امرئ القيس ولا يشك في براعته وفصاحته وما أبدع في طرق الشعر من أمور أتبع فيها كذا الديار والوقوف عليها وما يتصل بذلك من التشبيه الذي أحدثه والتلميح الذي يوجد في شعره والتصرف الكثير الذي يصادف في قوله والوجوه التي ينقسم اليها كلامه من صناعة وطبع وسلاسة وعلو ومثانة ورقة . ولم ينقد الباقلاني معلقة امرئ القيس إلا ليبين للقارئ أن تلك القصيدة ونظائرها تتفاوت في أبياتها تفاوتاً بيناً في الجودة والرداءة والسلاسة والانعقاد والسلامة والانحلال والتمكن والتسهل والاسترسال والتوحش والاستكراه : فهي على ذلك كلام ينحت من الصخر تارة ويذوب تارة . ويتلون تلقون الحرباء ، ويختلف اختلاف الأهواء ، ويكثر في تصرفه اضطرابه وتتقاذف به أسبابه . ومثل هذا الكلام لا يقارن بالقرآن الذي يصفه بأنه ” قول يجري في سبيله على نظام ، وفي وصفه على منهاج ، وفي وضعه على حد ، وفي صفاته على باب ، وفي بهجته ورواقه على طريق مختلفة مؤلفة ، ومؤلفة متحدة ، ومتباعدة متقاربة ، وشارده مطيع ، ومطيعه شارد ، وهو على متصرفاته واحد : لا يستصعب في حال ولا يتعقد في شأن “ .

٤ — ونتيجة هذا — من وجهة تاريخية — أن الباقلاني ومعاصريه رأوا أنه في الامكان أن يوازنوا بين قصيدة من الشعر وسورة من القرآن . وان لم يتحد الموضوع . وسبيل ذلك أن تبين محاسن القصيدة ومساوئها ويشرح فيها المبتذل والطريف والمقبول والمرذول ثم يقابل ما سلم فيها بالسورة التي توازيها في الكمية ليظهر ما في السورة من المحاسن التي لم يشنها ضعف ولا تهافت ولا فضول .

وهذا النحو من النقد يعمد من المحاولات البائرة في الأدب العربي . ولا عيب فيه إلا التحامل والإسراف . فان خصوم القرآن كانوا يأبون إلا الوصول إلى شواهد يحكمون لها بالنضيل . والباقلاني كان يعمد الى القصائد التي يعرف فيها الضعف ليصل دائماً الى الحكم للقرآن بالفضل . وقد بلغ به التحامل أن طعن في قول البحتري :

ما الحسن عندك ياسعاد بحسن فيما أناه ولا الجمال بجمال
وزعم أن أسلم منه وأبعد من الخلل قول كشاجم :

بجياة حسنك أحسنى وبحق من جعل الجمال عليك وقفا أجمل

مع أن الذي يفهم الشعر ويتذوقه يحكم بأن بيت كشاجم هذا لا يصح أن يقارن بيت البحتري إلا عند غُلف القلوب . وأغرب من هذا الشطط أن ترى الباقلاني يأخذ في نقد بيت البحتري فيقول :

قوله "عندك" حشو وليس بواقع ولا بديع وفيه كلفة . والمعنى الذي قصده أنت تعلم أنه متكرر على لسان الشعراء : وفيه شيء آخر لأنه يذكر أن حسنهما لم يحسن في تهيج وجده وفي تهيم قلبه . وضد هذا المعنى هو الذي يميل اليه أهل الهوى والحب .

هـ - هذا كلام الباقلاني . وهو كلام سقيم يدل على أنه لم يفهم بيت البحتري على الإطلاق ! وعلى هذا النمط من التحامل أفسد الرجل تلك الطريقة الجميلة : موازنة قصيدة من الشعر بسورة من القرآن . وكيف تنتظر العدل من حكم يكتب صحيفة الاتهام على خواه ؟ إن الذي يوازن بين قصيدة من الشعر وسورة من القرآن يجب عليه أن يكون مستعداً للحكم بالعدل . وهذا لا يتيسر لنا قد يرى من همه أن يبحث عن مساوئ القصيدة ويطمس محاسنها أو يتجاهلها أو يغض من قيمتها . وهو في مقابل ذلك يبحث في البحث عن محاسن السورة القرآنية وإبراز مزاياها ولا يستريح لنفسه التفكير في وضع ألفاظها أو معانيها أو أغراضها أو أسلوبها موضع النقد . وهذا كاف في تجريح ما هموا به قديماً من الموازنة بين أثرين : أحدهما من الشعر، وثانيهما من القرآن .

٦ — وتقع بعد ذلك مسألة شغل بها أكثر الباحثين في إعجاز القرآن .

وهي إعجاز غير القرآن من كلام الله كالطورا والإنجيل والصحف الربانية .

ويجب الباقلا أنى بأنه لا شىء من ذلك بمعجز فى النظم والتأليف وان كان معجزا كالقرآن فىما يتضمن من الأخبار بالغبوب . وىضف إلى ذلك أنه لم يكن معجزا لأن الله لم يصفه بما وصف به القرآن ولأنه لم يقع التحدى إليه كما وقع التحدى إلى القرآن^(١) .

ومعنى ذلك أن الباقلا أنى يرى أن غير القرآن من كلام الله لم يكن معجزا لأن الله لم يصفه بذلك . وتكون النتيجة أن نسبة الكلام إلى الله لا تعطيه صفة الإعجاز إلا إذا وصف الله كلامه به وتحدى المعارضين إليه كما تحداهم إلى القرآن .

ونحن نسأل : لماذا لم يصف الله الطورا والإنجيل بالإعجاز ؟ ولماذا لم يمنح تلك الكتب المزية التى منحها القرآن ؟ ؟ .

وقد توقع الباقلا أن يوجه إليه هذا السؤال . وكذلك عرض لنا رأيا له قيمته فى فهم القدماء لخطر اللغة العربية ومقارنتها بما سبقها أو عاصرها من اللغات . وهو يرى أن اللغات التى كتبت بها الطورا والإنجيل لا يتأتى فيها من وجوه الفصاحة ما يقع به التفاضل الذى ينتهى إلى حد الإعجاز . وانما يقع فيها التقارب فى البيان^(١) .

فان سأل القارئ : أكان الباقلا أنى يعرف من اللغات الأجنبية ما يمكنه من الحكم بأن اللغة العربية انفردت من بين سائر اللغات بالتفاضل فى وجوه الفصاحة ؟ فانا نجيب بالنفى .

وهو نفسه يحدثنا بأنه رأى أصحابه يذكرون هذا فى سائر الألسنة ويقولون : ليس يقع فيها من التفاوت ما يضمن التقديم العجيب^(١) .

٧ — وهنا يتطوع الباقلا أنى بشرح أسرار تفوق اللغة العربية فىقول :

«ويمكن بيان ذلك بأننا لا نجد في القدر الذي نعرفه من الألسنة للشئ الواحد من الأسماء ما نعرفه من اللغة العربية وكذلك لا نعرف فيها الكلمة الواحدة تتناول المعاني الكثيرة على نحو ما تتأوله العربية^(١)» .

وهذا المعنى عرض له ابن فارس إذ قال :

«إنا لو احتجنا أن نعبر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة وكذلك الأسد والفرس وغيرهما من الأشياء المسماة بالأسماء المترادفة . فبين هذا من ذلك وأين لساتر اللغات من السعة ما للغة العرب^(٢)» .
والفكرة في ذاتها سخيفة : لأن فضل اللغة العربية لا يرجع الى ما فيها من كثرة المترادفات إذ كانت هذه المترادفات من الثروات الضائعة التي لا يحتاج اليها الا عند اللغو والتطويل .
والقرآن نفسه الذي اتفقوا على سموه لم يعتمد على المترادفات في كثير ولا قليل وانما هو كلام طلق يجرى الى غاية في غير تعمل ولا اعتساف .

٨ - ومن غرائب المقارنات أن المسيو مرسيه استفاد من اجماع علمائنا القدماء على أن كثرة المترادفات من أهم خصائص اللغة العربية بقاء أخيراً وطعن لغتنا طعنة دامية في تقرير مطول قدمه الى وزير المعارف في باريس زعم فيه أن اللغة العربية لغة «مائعة» لا تعرف تحديد الألفاظ ولا الصفات^(٣) .

والمسيو مرسيه غير منصف في هذا الموضوع لأنه في تقريره اهتم بجمع المنات والعيوب وكان الظن به أن لا يتناسى أن المترادفات التي كان منها نحسبون اسماً للجر ومائة للسيف وخمسةائة للأسد ليست مترادفات جمعت من اللغة القرشية وهي أساس لغتنا العربية وانما هي كلمات «تصيدها» الرواة من مختلف أرجاء الجزيرة حبا في المبالغة والإغراب .

فمن يبلغ الباقلاني وابن فارس ان ما كان غرة في زمانهم أصبح في زماننا من أعراض الأمراض ؟

(١) ص ٣٤ (٢) اصاحي ص ١٢

(٣) كاد دث في خريف سنة ١٩٢٠ وشرا التقرير في أحد مطبوعات وزارة المعارف الفرنسية .

وذلك التحل من جانب البلاغيات ساقه الى تقرير « أن الشعر لا يتأتى في تلك الألسنة على ما قد اتفق في العربية وإن كان قد يتفق فيها في صنف أو أصناف ضيقة لم يتفق فيها البديع ما يمكن ويتأتى في العربية وكذلك لا يتأتى في الفارسية جميع الوجوه التي تتبين فيها الفصاحة على ما يتأتى في العربية » .

٩ - وهذه التهم التي كان يوجهها القدماء الى اللغات الأجنبية يقدمها الأجانب اليوم الى اللغة العربية : فلتتنا في أذهان كثير من أهل الغرب والشرق لا يتأتى فيها الشعر على ما قد اتفق في الانجليزية والفرنسية والألمانية مثلا « وإن كان قد يتفق فيها في صنف أو أصناف ضيقة » فما أعجب ما تشابه التهم على اختلاف الأجيال ! .

على أن كلام البلاغيات له دلالة ومعناه : فهو صريح في اعتزاز القدماء باللغة العربية . وإنا لنجد عند الجاحظ أصلا لهذا القول . وهو يتحدثنا بأن الفرس والهند والروم كانت لهم خصائص لم يتفق مثلها للعرب وأن العرب في مقابل ذلك انفردوا بالفصاحة والبيان^(١) .

١٠ - وللقارئ أن يذكر أن هذا « الغرور القومي » كانت له مضار ومنافع ، فمن مضاره أنه صرف العرب عن نقل الشعر الفارسي واليوناني ظنا منهم أن في شعر امرئ القيس مثلا غنى عن شعر هوميروس . ومن منافعه أنه أغراهم بالاعتزاز بشعرهم ولغتهم حتى ظنوا أن الاعجاز لا يتأتى وقوعه في غير اللغة العربية التي حسبوها تفردت بالتصرف في الاستعارات والاشارات .

وقد يكون حظ القدماء أبجل من حظنا في هذا الباب . فنحن اليوم نؤمن بأن اللغة العربية كسائر اللغات لا يتفق فيها الاعجاز لذاتها . وإنما يقع الاعجاز حيث تكون العبقرية في القلوب والعقول .

ونؤمن بأن في اللغات ضروبا من التصرف في القول قد لا يتفق مثلها أحيانا للغة العربية ولأننا لم ننقل من الشعر الأجنبي شيئا يقارب ما نقله أسلافنا من الفلسفة الأجنبية وانصرف

كثير من شباننا عن دراسة الشعر القديم فخرموا من تراث الأسلاف وكان لهم فيه معين من الفن لا ينضب ولا يفيض .

ووقف المجددون في الشعر موقف التردد والحيرة : فلا هم عرب ينسجون على منوال الفرزدق والبحتري والمتنبي ، ولا هم في طبعهم فرنجة يمجدون محاكاة يرون وجوت ولا مرتين .

١١ — وقد جاء في كتاب « إعجاز القرآن » ما يفيد أن القرآن ليس من جنس كلام

العرب ؟

فما هي حجة الباقلاني ؟ حجته أن العرب لم يأتوا بمثله وأن منهم من خشع له بدون أن يدرك معناه . ومن أمثلة ذلك أن جماعة بعثوا بعتبة بن ربيعة إلى الرسول — وكان عتبة حسن الحديث عجيب الشأن بليغ الكلام — فلما وصل إلى الرسول طمعا في أن يأتي أصحابه بما عنده قرأ عليه النبي سورة (حم . السجدة) من أولها حتى انتهى إلى قوله : (فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) . فوثب عتبة مخافة العذاب .

قال الباقلاني " فاستحكوه ما سمع فذكر أنه لم يسمع منه كلمة واحدة ولا اهتدى لجوابه . ولو كان ذلك من جنس كلامهم لم يخف عليه وجه الاحتجاج والرد . فقال له عثمان ابن مظعون " لتعلموا أنه من عند الله إذ لم يهتد لجوابه " .

ذلك ماقرره الباقلاني . وما نحسب أحدا يرتاب في أن هذا محض اختلاق : فانه لا يعقل أن يؤمن الرجل بما لا يفهم . ومن المبرح أن مثل هذه الأقاويل مما وضعه الرواة والقصاص .

ويقول الباقلاني في موطن آخر :

" قد ذكرنا أن العرب كانت تعرف ما يباين عاداتها من الكلام البليغ لأن ذلك طبعهم ولعنتهم فلم يحتاجوا إلى تجربة عند سماع القرآن ... وقال تعالى : (ولو جعلناه قرآنا أعجميا

لقالوا لولا فصلت آياته أ أعجمي وعربي^(١)، فأخبر أنه لو كان أعجميا لكانوا يحتجون في رده إما بأن ذلك خارج عن عرف خطابهم أو كانوا يعتذرون بذهابهم عن معرفة معناه بأنهم لا يتبين لهم وجه الإعجاز فيه لأنه ليس من شأنهم ولا من لسانهم أو بغير ذلك من الأمور وأنه إذا تحداهم إلى ما هو من لسانهم وشأنهم فمعجزوا عنه وجبت الحجة عليهم^(١) .

والقارئ يرى تناقضا بين هذه الفقرة وبين الفقرة التي نقلناها آنفا . وهذا التناقض وقع بين سياقين فصل بينهما بنحو ما أتى صفحة فللإقبال في عذره حين غاب عنه هنا ما أثبتته هناك . خلاصة الفقرة الأولى أن القرآن ليس من جنس كلام العرب لأنه اتفق لأحدهم أن خضع له بدون أن يستطيع حكاية لفظه أو معناه .

وخلاصة الفقرة الثانية أن القرآن من جنس كلام العرب . ولولا ذلك لاحتجوا في رده بأنه خارج عن عرف خطابهم، أو اعتذروا بذهابهم عن معرفة معناه بأنهم لا يتبين لهم وجه الإعجاز فيه لأنه ليس من شأنهم ولا من لسانهم .

١٢ — ونحب أن نفصل رأينا في هذه المسئلة ونحن نرى أن الفوارق بين اللغات تنحصر في الألفاظ والأساليب: فاللغة تكون غير عربية إذا كانت ألفاظها أو أساليبها أعجمية . وقد يتفق مثلا أن نفتح كتابا تركيا أو فارسيا فنرى إحدى صفحاته تغلب فيها الكلمات العربية أو تكون بعض الجمل في ألفاظ عربية ولكننا لا نفهم شيئا لأن الأسلوب غير عربي .

وقد تكون جملة وضعت في ألفاظ أعجمية ورتبت في وضعها على الأسلوب العربي . ولكننا لا نفهمها لأن ألفاظها غير عربية . ومن هنا يتضح أن العرب فهموا بلا جدال ألفاظ القرآن ومعانيه لأنه عربي اللفظ والأسلوب . ولا عبرة بما حكاه الباقلائي من أن بعض العرب عجز عن تأدية ما سمعه من آي القرآن . لأن هذا يخالف المعقول والمنقول ويتناقض ما من به القرآن على منكريه من أنه بلسان عربي مبين .

١٣ - بقی نوع آخر من وجود التفاضل في الكلام وهو المعنى : ونحن نرى أن سر الفصاحة والبلاغة يرجع إلى ما في المعنى من قوة وروح . ومن المتفق عليه أنه لا يكفي أن يكون المعنى صحيحا ليكون الكلام بليغا . ألا ترى أنه لا يوجد أصدق من قول من قال :
كُنَّا والماء من حولنا قوم جلوس حولهم ماء

ولكن من الذي يقيم وزنا لصدق هذا الكلام ؟ إن هذا الصدق هو التفاهة بعينها . وقد رأى بعض النحاة ان البدييات لا تسمى كلاما . ومن رأى ذلك البعض أن من يقول " السماء فوقنا والأرض تحتنا " لم يقل شيئا ولا يضاف ما يلفظ به الى الكلام المفيد .

وعلى هذا لا يكفي أن يكون الكلام صادقا ليكون بليغا . وإنما يجب أن يكون مع صدقه طريقا يستهوى العقل والقلب . ومن امثلة ذلك قول قريظ بن أنيف :

لو كنت من مازن لم تستنج إيلي	بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذنت لقام بنصرى معشر خشن	عند الحفيظة أن ذلولثة لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم	طاروا إليه زرافات ووحدا
لا يسألون أخاهم حين ينسدهم	في النائبات على ما قال برهانا
لكن قومي وإن كانوا ذوى عدد	ليسوا من الشر في شيء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة	ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق لحشيتة	سواهم من جميع الناس إنسانا
فليت لي بهم قوما إذا ركبوا	شدوا الإغارة فرسانا وربانا

وهذه القطعة من بدائع الشعر العربي . وهي قطعة خالدة ستظل قوية بارعة ما بقي في العالم ناس يفهمون سر العربية . ومع هذا لا تستطيع أن تجد فيها ألفاظا يعز على غير قائلها الوصول إليها ، أو أسلوبا في التعبير يتميز عن غيره من الأساليب . وجمالها كله يرجع إلى دقة المعنى وطرافته وتخير الألفاظ تخيرا يجعلها تتمثل مع المعنى كلمة واحدة . فقولها مثلا :

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدا

هذا البيت يمكن رجعه طرافته الى كلمة "أبدى ناجذيه" وكلمة "طاروا" وهاتان ليستا كلمتين وإنما هما المعنى تجسم في لفظين فرضهما السياق . وقوله :

لكن قومي وإن كانوا ذوي عدد ليسوا من الشرفي شيء وإن هانا

فقوة هذا البيت ترجع الى قوله "وإن كانوا ذوي عدد" وقوله — "وإن هانا" وفيهما أيضا يتجسم المعنى في قوة وروح . وقد بلغ هذا الشاعر أقصى غايات التهم في قوله :
كأن ربك لم يخلق لحشيتيه سواهم ومن جميع الناس إنسانا

١٤ — وقد تجدد من الشعر ما تخلو معانيه وألفاظه من الروعة الظاهرة . ولكن قوة الروح تصل به الى أسنى غايات الابداع . ومثال ذلك قول حطان بن المعلى يشكو فقره وما وضع القدر في رجليه من قيود الأهل والذرية :

أنزلى الدهر على حكه	من شامخ عال الى خفيض
وغالني الدهر بوفر الغنى	فليس لي مال سوى عرضي
أبكاني الدهر وياربما	أضحكني الدهر بما يرضي
لولا بنات كزغب القطا	رُددن من بعض الى بعض
لكان لي مضطرب واسع	في الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادنا بيننا	أكبادنا تمشي على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم	لا متنت عيني عن الغمض

وقوة هذا الشعر ترجع الى الشاعر لا الى اللفظ ولا الى الأسلوب : ومن ذلك يتضح أن من يزعمون أن القرآن ليس من جنس كلام العرب لم يفهموا شيئا من أسرار الإعجاز . ولذلك نراهم يدورون حول الظواهر والمحسنات اللفظية : فيقول بعضهم إن العرب لم يكونوا يعرفون غير الأسجاع والأمثال فبهزم القرآن لأنه جاء على نمط غير الذي كانوا يعرفون من أنماط الأسجاع والأمثال . ويقول آخرون : إن العرب كانوا تارة يسجعون وتارة يترسلون بخاء القرآن فجمع بين السجع والترسل في نظام بديع . ويقول مؤلفو كتاب "المجمل" الذي قدرت الوزارة

تدريسه بالمدارس الثانوية : إن العرب لم يكونوا يعرفون غير الشعر وفنونه وأوزانه وأغراضه
بغناء القرآن ففاجأهم بلون من الأدب جديد^(١) .

١٥ — وهذا كما يرى القارئ يرجع الى الناحية اللفظية أو الفنية . ونحن نرى غير ذلك
فترى أن مجدا عليه السلام اجتذب العرب لأنه نبي ولم ينجذبهم لأنه فنان . فالفن الكلامي لم يكن
جديدا عند العرب وإنما كان الجديد عندهم أن يأتيهم رجل منهم بأساليب من الفكر والعقل
والوجدان غير التي كانوا يألفون . ولو رجعنا الى حزب المعارضة لعهد الرسول لرأيناه لا ينكر
إلا ما جاء به القرآن من معان وأغراض . ولم يتعزز مطلقا بما جاء به من ألفاظ وأساليب .
فالمعركة كانت تدور رحاها حول ما في القرآن من الدعوة الى توحيد الله عز شأنه وإفراجه
بالقدرة والجبروت . ولو تأملنا قليلا لرأينا أن الذي يروعنا من الشاعر الواحد هو ما تنفرد به
بعض قصائده أو أبياته من دقة المعنى أو طرافة الخيال .

ومن هنا صح للنقاد القدماء أن يقولوا عن بعض الشعراء :
”لو قال هذا وسكت لكان أشعر الناس“ .

وصح لهم أيضا أن يقولوا :

”أشعر الناس النابغة إذا رغب . والأعشى إذا شرب . وامرؤ القيس إذا طرب . وعمرو
ابن كلثوم إذا غضب“ .

وهذا كلام دقيق جدا لأنه يضيف قوة الشعراء الى خصائصهم النفسية والروحية : فالشاعر
شاعر لأنه يتحدث عن ذات نفسه وعن ضميره وروحه ووجدانه ، فهو فيما يرجع الى جوهر
نفسه أفصح منه فيما يتعلق بنوافل الأغراض .

ولذلك كان هذا الشاعر أبلغ إذا مدح . وذلك أفصح إذا شَبَّ . وذلك أحفل إذا تمجس .
ولو استقرينا المنازعات الأدبية في الأمم التي نعرفها لرأيناها ترجع الى المعاني والأغراض لا الى
الألفاظ والأساليب . فالنزاع في فرنسا مثلا بين الكلاسيك والرومانتيك كان نزاعا حول الفكرة .

فالكلاسيك يرون أن الأغراض يجب أن تكون موضوعية (objectif) والرومانتيك يفضلون أن تكون الاغراض ذاتية (Subjectif) .

١٦ — وفي مصر والشرق العربي كانت المنازعات الأدبية تدور حول الفكرة فالنزاع الأدبي القديم بين محمد عبده ومعاصريه كان نزاعا حول فكرة . والنزاع بين قاسم أمين ومعاصريه كان يدور حول فكرة . والخصومات العنيفة التي وقعت بين علي يوسف وعبد العزيز جاویش كانت حول فكرة . والنزاع القريب جدًّا بين الجديد والقديم كان نزاعا حول فكرة . وما نحسب أحدا ممن هاجموا المنفلوطي كان ينكر أن أسلوبه جيد ولكن الذين هاجموا ادَّعوا أنهم يحاربون في شخصه فكرة المحافظة على قديم التقاليد .

ولا جدال في أن الألفاظ والأساليب تتلون وتتشكل بلون الفكرة التي تسيطر عليها . وعلى هذا الأساس وجد الأسلوب الجزل والأسلوب الرقيق . فالرقة والجزالة من مقتضيات المعاني لا الألفاظ . فالمعنى الجزل له لفظ جزل ، والمعنى الرقيق له لفظ رقيق . فاذا غلبت الرقة على شاعر مثل البها زهير فمرجعها الى الفكرة لأنه شاعر وديع يعبر عن معاني ديدة يلهم أمثالها أصحاب الوداعة والرقة من الشعراء المترفين . واذا غلبت الجزالة على شاعر مثل المتنبي فمرجعها أيضا الى الفكرة لأنه شاعر طامع في أسمى ما يطمح اليه فحول الرجال وهو الملك والتغلب والسيطرة والسلطان .

أبعد هذا البيان يدهش ناس مما أشرت اليه مرة من أن السلامة والتعقيد والرقة والجزالة والوضوح والغموض كلها صور للنفس الانسانية التي تفصح عما يطيف بها من معاني وأفكار وأراء وأغراض ؟ .

١٧ — وبعد هذا وذاك : أكان القرآن كلاما من جنس كلام العرب أم كان لونا من التعبير يختلف عما عرفوه وألفوه كل الاختلاف ؟ .

هو كلام من جنس كلامهم ومن جوهره ومعدنه . ولكنه يمتاز بقوة المعنى وقوة الروح . فان قيل : ولم تعذر عليهم أن يأتوا بشيء من مثله ؟ فانا نجيب بأن القرآن نفسه فصل

في هذه المسألة حين قال ﴿فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُقْتَرِيَاتٍ وَأَدْعُوا مَنْ أَسْطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ .

فلتأمل جيدا عبارة ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ففيها الجواب كل الجواب . وهل كان في مقدور العرب أن يكونوا جميعا أنبياء حتى يصلوا الى ما وصل اليه مواطنهم وزعيمهم وسيدهم محمد بن عبد الله الذي صدقت كلمتهم فيه قبل نبوته حيث لقبوه بالصادق الأمين ؟

١٨ — وقد كان من القدماء من يرى أن البلاغة لا ترجع الى المعاني : لأن المعاني في رأيهم يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي . وإنما ترجع البلاغة الى جودة اللفظ وصفائه .

ودليل ذلك عندهم أن الخطب والأشعار الرائعة ما عملت لإفهام المعاني فقط . لأن الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها في الإفهام وإن الكلام اذا كان لفظه حلوا عذبا ومعناه وسطا دخل في جملة الجيد ، وإذا كان المعنى صوابا واللفظ باردا دخل في جملة المستهجن الملتفوظ^(١) .

١٩ — أما نحن فنلقى العجم والقرويين جانبا ونحصر البلاغة في جمهور المثقفين . ثم نقرر أن الألفاظ ملك للجميع يجدونها حيث أرادوا في المعاجم والدواوين ، ولا يبقى موضعا للجهل والعتى أو العبقرية إلا المعاني والأغراض . ومن العبث أن نزن أن البلاغة لا تخرج عن المناورات اللفظية . فإن هذا إسراف في تقدير الزخرف وامتهان لصولة العقول . إن الألفاظ في مقدور كل شاعر وكل كاتب وكل خطيب . ولكن المعجز حقا هو الفكرة . وليس معنى هذا أننا لا نقيم وزنا للصناعة الفنية . ولكن معناه أننا نقرر أن الفكرة تجيء أولا ويحيى الورق ثانيا كما يقول الفرنسيون .

وقد رأى ناس قول الباقلاني "ليس القرآن من جنس كلام العرب" فقررُوا خاطئين أن القرآن يخالف ما درجت عليه البلاغة العربية من حيث الأسلوب . ولو سألتهم عن تحديد معنى (الأسلوب) لعجزوا عجزا مبيئا ، لأن الأسلوب في رأيها هو الصورة الظاهرة لعقل الكاتب

وروحه وفكرته ومرماه، وليس في مقدور أحد من المتفوقين في علوم البلاغة أن يحدد الأسلوب تحديدا منطقيا يجمع خصائصه ويمنع ما يتطرق اليه من غريب الأوصاف ، أو أن يدلنا على خواص أسلوب القرآن دلالة واضحة بريئة من عوارض اللبس والغموض، فان ألفاظ القرآن كألفاظ كل كلام عربي مبين لا تمتاز باللفظ ولا بالأداء وإنما تمتاز بالمعنى والغرض والروح .

فان أراد أحد شاهدا على ما نقول فانا نفتح المصحف عرضا بدون تخيير ثم ننقل آيات لنسأله أن يعين ما جاء فيه غريبا عن الأساليب العربية . ولنختر خمس آيات من مطلع سورة الأنبياء : ﴿ اقترِبْ لِلنَّاسِ حَسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفلةٍ معرضُونَ . مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ . لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأَ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرِ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ . قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾ .

فأين تكون غرابة الأسلوب في هذه الآيات الخمس ؟ وأين يكون السياق الفني الغريب عن الأعراب ؟ أليس مرجع الروعة في هذه الآيات الى المعنى والروح ؟ أترونها تمتاز بالسجع ؟ وكيف والسجع كان معروفا قبل القرآن ؟ أترون ألفاظها متخيرة متقاة ؟ هو ذلك . ولكن كيف يدور اختيار الألفاظ ؟ أترون لاختيار الألفاظ مدارا غير موجبات المعاني والأغراض ؟ فان كانت هذه الآيات الخمس لا تكفى فالى القارئ شواهد أخر من القرآن المجيد . يقول الله عز شأنه : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَانُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ لَا تَعْدِلُوا ﴾ .

وأنا أشهد صادقا أنى ما فكرت في هذه الآية إلا دهشت من سمو هذا النصح النبيل، فأين يكون جمال هذه الآية ؟ أترونها من جنس غير جنس كلام العرب كما زعم الباقلائي ؟ هيئات ! إن ألفاظها تشبه جميع الألفاظ وتركيبها لا يتميز بشيء عن غيره من التركيب .

ولكن الجمال هنا في المعنى الشريف الذى قضى به القرآن وذلك المعنى هو الدعوة الى إثارة العدل في جميع الأحوال من غضب وسكون وحب وشتان . وقد راجعت صديقا ادبيا في هذه الآية فأراد أن يلتمس الجمال الفني في كلمة (ولا يجرمنكم) فان صح افتراض ذلك الصديق

فإننا نسأل أيضا ومن أين ظفرت تلك الكلمة بمعنى الإعجاز. أليس مرجع ذلك الى ربطها بالمعنى الذي اقتضاه السياق ؟ على أنه من الخير أن نسوق الآية كاملة لتبين كيف يمكن أن تكون بعض أجزاء الآية الواحدة أقوى من بعض :

﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ .

ألا ترون إن أنصقتم أن كلمة (اعدلوا هو أقرب للتقوى) ثقل في قوتها عن كلمة (ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا) فما هو سبب التفاوت ؟ لا يظن أحد أن مرجع التفاوت هو الأسلوب فإن القرآن تنفرد في رأى مخالفينا بوحدة الأداء والتعبير، فلم يبق من فرق بين صدر الآية وعجزها غير تفاوت المعنى . والتفاوت هنا جاء من أن صدر الآية معنى يكره لا يجرى إلا على السنة الحكماء والأنبياء . على حين نرى عجز الآية يؤدي معنى مفهوما لدى جميع الناس .

ثم لننظر قوله جل شأه ﴿ ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين ﴾ . هذه من غرر الآيات القرآنية : فأين يقع منها الحسن ؟ أترونها في اللفظ ؟ أترونها في الأسلوب ؟ وكيف وهى ألفاظ يحددها من يريد في أسلوب واضح يدرسه جميع المخاطبين ويستطيعه جميع الكاتين . ان الجمال هنا في الروح العالى : حيث يخاطب الله الآمين وقد ألقى بهم في نار الجحيم .

٢٠ — تترك شواهد القرآن جانبا لأنها من المواطن الشائكة . ونوضح نظريتنا بشواهد

من النثر الجيد والشعر البليغ .

قيل لأعرابي يسوق مالا كثيرا: لمن هذا المال ؟ قال : لله في يدي !

تأملوا عبارة "لله في يدي" لتروا انها من نوادر الكلام الجيد البليغ ، ثم انظروا أترون فيها شيئا غير جمال المعنى ؟

ان الأدباء جميعا يحفظون كتاب عمرو بن مسعدة، كتاب التوصية الذي ضربت ببلاغته الأمثال، فلنذكر به القراء :

”كأنى هذا كتاب معنى بمن كتب له ، وائق بمن كتب اليه ، وأرجو أن لا يضيع حامله بين الثقة والعناية . والسلام “ .

أفترون هنا جديدا فى لفظ أو فى أسلوب ؟ إن الطرافة كلها تنحصر فى المعنى لو يتنظرون . وكتب أحد الأمراء يوصى بعض قواد الجيش :

”وكن من احتيالك على عدوك أشد حذرا من احتيال عدوك عليك “ .

وهذا كلام نادر قلما تجود بمثله القرائح . فأين يكون جماله ؟ أترونه فى شىء غير المعنى ؟ وكتب عمر بن الخطاب الى أبى موسى الأشعرى :

”عُد مرضى المسلمين ، وأشهد جنائزهم ، وباشر أمورهم بنفسك ، فانما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أثقلهم حملا “ .

وهى نصائح عادية وأبغها جميعا قوله ” فانما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أثقلهم حملا “ .

أفترون الجمال هنا ، جمال البلاغة ، فى شىء غير المعنى ؟

٢١ — والشعر ؟ ما جماله وما عذوبته ؟ أنظروا قول ابن الأحنف :

أتأذنون لصب فى زيارتك فعندكم شهوات السمع والبصر

إن صدر هذا البيت عادى لا طريف فيه ولكن تأملوا عجزه حيث يقول (فعندكم شهوات السمع والبصر) ألا ترون أنه معنى نادر نفيس وفيه وحده جمال البيت ؟ ألا ترون أن لفظة ” شهوات “ لم تكن أوفى ولا أدق إلا حيث قرنت بالسمع والبصر وتحاشت ماعداهما من نعيم الحواس ؟

وانظروا قول قيس بن ذريح :

الى الله أشكو فقد بُنى كما شكا الى الله بعد الوالدين يتيم

وهذا من الكلام الجيد : فهل كانت جودته فى غير معناه ؟ أليس كل ما هنا من روعة

يعود الى تشبيه الزوجة الصالحة بالأم الروم ، وتشبيه العاشق المهجور بالطفل اليتيم ؟

وانظروا قول جميل بن معمر :

فلو أرسلت يوما بثينة تبتغي	يميني ولو عزت على يميني
لأعطيتها ما جاء يميني رسولها	وقلت لها بعد اليمين سليني
سليني مالي يا بشين فائما	يبين عند المال كل ضنين
فما لك لما خبر الناس أنني	أسأت بظهر الغيب لم تسليني
فأبلى عذرا أو أجيئ بشاهد	من الناس عدل أنهم ظاهوني
لما الله من لا ينفع الود عنده	ومن حبله ان مُدَّ غير متين
ومن هو ذلولونين ليس بدائم	على ثقة خوان كل أمين

وقد تقولون : إن جمال هذا الشعر في رفته وعذوبته . ولكن أترون الرقة والعذوبة إلا صورة ظاهرة لروح الشاعر وما يضممه لمعشوقته من عطف وحنان ؟ ألم أقل لكم إن الرقة والجزالة هي صفات للمعاني تمثل في أشباح الألفاظ !

٢٢ — ولو أننا عدنا إلى كتب النقد لرأينا أن القدماء كانوا يجعلون المعنى أساس الصورة بحيث يعد الشاعر سارقا للمعنى وإن غير من صورته . ومن ذلك قول البيهقي :

أترجو كليب أن يحيى حديثها بخير وقد أعيأ كليباً قديمها

أخذه الفرزدق فقال :

أترجو ربيع أن يحيى صغارها بخير وقد أعيأ ربيعاً كبارها

وهذا ليس بشيء في جانب المعاني التي تؤخذ من المدح إلى الهجاء ومن النسيب إلى الرثاء وهي كثيرة جداً ، ومع ذلك تنبه النقاد إلى أنها سرقة ، وتنبيه الشعراء إلى جرائمهم حتى روى عن الأخطل أنه قال : " نحن معاشر الشعراء أسرق من الصياغة " (١) .

٢٣ — وأنا مع هذا كله من أعرف الناس بقدر الألفاظ والأساليب فلست أنكر أن الشعراء والكتاب والخطباء يتفاوتون في الصياغة الفنية ، ولكنني أومن قبل كل شيء بالمعنى

والروح . وأرى الألفاظ على لسان الشاعر والكاتب والخطيب تشبه أدوات الحرب وأسلحة القتال في أيدي الرجل : فالسيف هو السيف في يد البطل وفي يد الجبان ، ولكنه في يد البطل موت أزرق الناب . على حين نراه في يد الجبان أقل غناء من العصا في يد الوليد . والخليل هو الخليل ، ولكن الجواد لا يكون جوادا إلا اذا اعتلى صهوة فارس مغوار ، وهو تحت الرجل الرخو أشبه شيء بالحمار "تحت الفلاح العبيط" والمرأة هي المرأة ، ولكنها بين يدي الرجل الغزل أنضر منها في حضرة الرجل البليد ! والكاتب المحيّدون الذين أجمع الناس على احترامهم تتفاوت أيامهم فتفاوتا شديدا : فهم في بعض الأيام من فرسان البلاغة وأعيان البيان ، وهم في أيام أخرى يُسَقَّون ويتهافتون . فما سبب ذلك ؟ السبب معروف فان روح الكاتب يتأثر بمزاجه وظروفه وموضوعه تأثرا بليغا . فلو كان الأسلوب هو سر البلاغة لتحتم أن يكون الكاتب بليغا في جميع أحواله ، وهذا محال . فلم يبق إلا أن يكون للبلاغة سر آخر غير الأسلوب . وذلك السر هو المعنى والروح . وليست المعاني الجيدة بطائعة للكاتب في كل لحظة ، ولا الروح القوي بمواتية في كل حين . أي فهم قوم الآن أن القرآن من جنس كلام العرب في اللفظ والأسلوب ؟ أي فهمون الآن أن القرآن يشمل النثر العربي في العصر الذي نزل فيه وأن سر إعجازه راجع الى روحه ومعانيه ؟

٢٤ — ومن أغلاط الباقلاني قوله بنفي السجع من القرآن ، وهو يتابع في هذا أبا الحسن الأشعري وأصحابه ، ويعارض جمهورا كبيرا من أهل العلم والأدب ، منهم من سبقه ومنهم من عاصره ، وحجة مخالفيه أن السجع مما يبين به فضل الكلام وأنه من الأجناس التي يقع بها التفاضل في الفصاحة والبيان . ومن أقوى ما يستدلون به على وجود السجع في القرآن أن المسلمين اتفقوا على أن موسى أفضل من هارون ، ومع ذلك قيل في موضع "هارون وموسى" قراءة للسجع ، ولما كانت الفواصل في موضع آخر بالواو والنون قيل "موسى وهارون"^(١) .

والواقع أن السجع موجود في القرآن في مواطن كثيرة ، ولا ينكره إلا معاند لا يفقه ما يقول ، ومن أمثلته : ﴿ والسبأ ذات الرجع ، والأرض ذات الصدع ، إنه لقول فصل ، وما هو بالهزل ﴾^(١) .

ومن أمثلته أيضاً : ﴿ والسبأ ذات البروج ، واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود ، قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، إذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ﴾^(٢) . وكذلك : ﴿ إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سُيرت ، وإذا العِشارُ عُطِّلت ، وإذا الوحوش حشرت ، وإذا البحار سجَّرت ، وإذا النفوس زوجت ، وإذا الموءودة سئلت ، بأي ذنب قتلت ، وإذا الصحف نشرت ، وإذا السماء كشطت ، وإذا الجحيم سعرت ، وإذا الجنة أزلقت ، علمت نفس ما أحضرت . فلا أقسم بالخنس ، الجوار الكنس ، والليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس ، إنه لقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين ، مطاع ثم أمين ، وما صاحبكم بمجنون ، ولقد رآه بالأفق المبين ، وما هو على الغيب بضنين ﴾^(٣) .

ولا أطيل في سرد الآيات المسجوعة ، ففي السور المكية شواهد كثيرة على السجع والازدواج .

٢٥ - والمهم أن نعرف ما هي حجة الباقلاني على نقي السجع من القرآن لتقدر وزنه للسجع والبيّنات ، وهو يقول :

” لو كان القرآن سجعاً لكان غير خارج عن أساليب كلام العرب ، ولو كان داخلاً فيها لم يقع بذلك إعجاز ، ولو جاز أن يقال : هو سجع معجز ، لجاز لهم أن يقولوا : شعر معجز ، وكيف والسجع مما كان يألف الكهان من العرب ، وفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نقي الشعر ، لأن الكهانة تنافي النبوة ، وليس كذلك الشعر “^(٤) .

وهذا كلام ساقط ضعيف، فالسجع موجود في القرآن، ولكن الرجل يأبى أن يعترف به، لأن الاعتراف بوجوده في القرآن يتضمن الاعتراف بأنه غير خارج عن أساليب كلام العرب، والاعجاز في رأيه ينحصر في الأسلوب، وما دمنا سامنا بأن القرآن معجز فانه يجب أن نؤمن بأنه غير مسجوع، وإلا ساوينا بينه وبين سائر الكلام !

ونحن لا ندرى كيف آتفق للباقلاني وأصحابه من الأشعرية أن يفهموا هذا الفهم العميق ولا ندرى كيف صح له أن يحتم نفى السجع من القرآن قياسا على نفى الشعر، بل يزيد على ذلك أن نفى السجع أوجب لأنه كان أسلوب الكهان . والمسألة كلها لعب في لعب وضلال في ضلال : لأن اختصاص السجع بالكهان حديث خرافة ، والمعقول أن السجع كان عند أهل الجاهلية لونا من الزخرف الفنى يابجا اليه الكاتب والخطيب رغبة في التأثير ، ولم يغلب السجع على الكهان إلا لأنهم كانوا أكثر من غيرهم ثقافة وأدبا ، إذ كانوا قادة الجماهير في الجاهلية . والسجع في القرآن لا يمنع من إعجازه، لأن الاعجاز كما أسلفنا مرجعه الى سمو المعنى وقوة الروح، والرسول رجل من العرب تفرد من بينهم بتبليغ الرسالة الى قومه ، فمن الواضح أنه ينقلها اليهم في أبجل ما عرفوا من الأساليب . ونفى الشعر عن القرآن ليس معناه أن الشعر غير صالح للإعجاز كما توهم الباقلاني، ولكنى أرجح أن الشعر لعهد النبوة لم يكن من تقاليده الاهتمام بالشؤون الجدية، وخاصة المسائل الروحية والدينية، ولذلك نجد القرآن يعرض بالشعر ويهتم الشعراء باللغو والفضول والهيام في أودية الخيال . والشعر مع هذا في أسلوبه لعهد النبوة كان أضيق من أن يتسع لشرح المشاكل الدينية والاجتماعية التي أطلت في شرحها القرآن، ومن هذا يتبين أن عدم تبليغ الرسول رسالته شعرا لم يكن معناه أنه تحامى الشعر لكلا يشارك العرب في أساليبهم كما ظن الباقلاني وأصحابه الأشعريون .

٢٦ — على أن الباقلاني لا يقف عند هذا الخطأ بل يتعداه الى خطأ أشنع في فهم

السجع فيقول :

”والذي يقدر أنه سيجع فهو وجم لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع وإن لم يكن سجعاً ، لأن ما يكون به الكلام سجعاً يختص ببعض الوجود دون بعض ، لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع ، وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع من القرآن لأن اللفظ يقع فيه تابعا للمعنى ، وفصل بين أن ينتظم الكلام في نفسه بألفاظه التي تؤدي المعنى المقصود فيه وبين أن يكون المعنى منتظماً دون اللفظ ، ومتى ارتبط المعنى بالسجع كانت إفادة السجع كافادة غيره ، ومتى ارتبط المعنى نفسه دون السجع كان مستجاباً لتجنيس الكلام دون تصحيح المعنى“^(١) .

وخلاصة هذه الفكرة أن الكلام لا يكون سجعاً إلا إذا كان المعنى فيه تابعا للفظ ولا ندرى من أين أتى الباقلاني بهذه القاعدة . والصواب أن خير السجع ما كان اللفظ فيه تابعا للمعنى ، كما أشار إلى ذلك غير واحد ممن كتبوا في فنون البيان ، ونحن إذا تأملنا السجع في القرآن رأينا اللفظ فيه تابعا للمعنى ، ونرى القرآن في مواطن كثيرة يضحى بفواصل السجع في سبيل المعنى ، لا كما يفعل المتكفون حين يضحون بالمعنى في سبيل السجع .

وهناك خطأ آخر تورط فيه الباقلاني إذ يقول :

”لو كان الذي في القرآن على ما تقدرونه سجعاً لكان مذموماً مردولاً ، لأن السجع إذا تفاوتت أوزانه واختلفت طرقه كان قبيحاً من الكلام ، وللسجع منهج مرتب محفوظ وطريق مضبوط ، متى أخل به المتكلم أوقع الخلل في كلامه ونُسب إلى الخروج على الفصاحة ، كما أن الشاعر إذا خرج عن الوزن المعهود كان مخطئاً وكان شعره مردولاً ، وربما أخرجه عن كونه شعراً ، وقد علمنا أن بعض ما يدعونه سجعاً متقارب الفواصل متداني المقاطع ، وبعضها مما يمتد حتى يتضاعف طوله عليه وترد الفاصلة على ذلك الوزن الأول بعد كلام كثير ، وهذا في السجع غير مرضي ولا محمود“^(٢) .

ووجه الخطأ هنا أن الباقلاني يحاكم القرآن الى قواعد وضعها المتأخرون ، وكان أولى به أن يفهم أن القرآن هو الأساس ، وخروج القرآن على السجع من حين الى حين من دلائل سلامته وبلاغته ، لأن الترام السجع باب الى الغلو والإغراق ، ولم يقبح السجع على ألسنة المتأخرين إلا لأنهم التزموا به ما لا يلزم في الترين والتجميل . والذين قالوا بوجود السجع في القرآن لم يفرضوا التزامه في جميع الأحوال ولا وقعوا في مثل ما وقع فيه الباقلاني من الخطأ حين نقاه على الاطلاق^(١) .

(١) يحسن بالقارئ أن يرجع الى الفصل الذي بسطنا فيه «أطوار السجع» في الجزء الأول .

٧ - أبو القاسم الرصدي

١ - لم يصل إلينا من أخبار الحسن بن بشر الآمدى شئ كثير . وكل ما نعرفه أنه ولد بالبصرة - ولا ندري متى - وأنه انتقل الى بغداد فتلق النحو واللغة عن الأخفش والزجاج وابن دريد وابن السراج ، وأنه عاد الى البصرة فكتب لأبي الحسن أحمد وأبي أحمد طلحة بن الحسن بن المثنى . وكتب بعدهما للقاضي أبي جعفر بن عبد الواحد . ثم لأخيه أبي الحسن محمد بن عبد الواحد ثم لزم بيته بالبصرة الى أن مات نحو سنة ٣٧١ هـ^(١) .

٢ - وليس فيما قرأنا من أخباره ما يعين مذهبه في الحياة . ونستطيع فقط أن نتخذ من مؤلفاته دليلاً على أن حياته العقلية قصرت أو كادت على اللغة والنقد . يؤيد ذلك مجموعة كتبه التي أشار إليها ياقوت ومنها : كتاب المختلف والمؤتلف في أسماء الشعراء . وكتاب نثر المنظوم . وكتاب الموازنة بين أبي تمام والبحتري . وكتاب في أن الشاعرين لا تتفق خواطرهما . وكتاب ما في عيار الشعر لابن طباطبا من الخطأ . وكتاب فرق بين الخاص والمشارك من معاني الشعر . وكتاب تفضيل شعر امرئ القيس على الجاهليين . وكتاب تبين غلط قدامة بن جعفر في كتاب نقد الشعر . وكتاب معاني شعر البحتري . وكتاب الرد على ابن عمار فيما خطأ فيه أبا تمام . وكتاب فعلت وأفعلت^(٢) .

وهذه المجموعة تعين اتجاهات ذهنه في حياته الأدبية : فهو من النقاد المولعين بدرس الشعر ونقد ما كتب عنه . وهو بنوع خاص مغرم بدرس البحتري وأبي تمام ، وتعقب ما كتبه رجال القرن الثالث عن الشعر والشعراء . ولو بقيت مؤلفاته لاستطعنا أن نصل الى شئ كثير من المعارف الأدبية التي كان يملكها رجال القرن الثالث والرابع ، ولأمكننا أن نعرف

(١) راجع ترجمته في معجم الأدباء ج ٣ ص ٥٤ - ٦١ (٢) ياقوت ص ٥٨ ج ٣

الى أى حد كان أولئك القوم يعرفون من الدقائق الفنية التى تسبق الى أذهان الشعراء فتتفق أو تختلف وفقا لاختلاف الأحوال أو توافق المشاعر والأذواق .

وهناك شواهد تدل على أنه فى حياته الاجتماعية كان حريصا على تتبع أحوال معاصريه وربط ما يسمع من أخبارهم بما تُقل إليه من أخبار السالقين وتقييد ما عرف عن أهل عصره من النوادر والفكاهات .

٣ - وكان فوق ذلك كثير الشعر، حسن الطبع، جيد الصنعة، مشتهرا بالتشبيهات - كما قال يا قوت - ولكن شعره ضاع وما بقى منه يدل على أنه كان جيد المعانى فى أسلوبه ينقصه الرواء . من ذلك قوله :

يا واحدا بان فى الزمان	من يحاريه أو يدانى
دعنى من نائل جزيل	يعجز عن شكره لسانى
فلمست والله مستميحا	ولا أخا طامعا ترانى
وهب اذا كنت لى وهوبا	من بعض أخلاقك الحسان

وقوله فى عالم تمام :

لا تنظرن الى تمتعه اذا	رام الكلام ولفظه المعتاص
وانظر الى الحكم التى يأتى بها	تشفيك عند تطلق وخلص
فالدرد ليس يناله غواصه	حتى تقطع أنفوس الغواص

ومن الشعر الفكاهى قوله فى أحد القضاة :

رأيت قلنسوة تستغيث	ث من فوق رأس تنادى خذونى
وقد قلقت فهى طورا تميم	ل من عن يسار ومن عن يمين
فطورا تراها فبويق القفا	وطورا تراها فويق الجبين
فقلت لها أى شىء دهاك	فردت بقول كئيب حزين
دهانى أنى لست فى قالبي	وأخشى من الناس أن يبصرونى

وَأَنْ يَعْشُوا بِمَزَاجٍ مَعِيَ وَإِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ بِي قَطْعُونِي
 قُتِلْتُ لَهَا مَرَّةً مِنْ تَعْرِيفِينَ مِنَ الْمُنْكَرِينَ لِهَذِي الشُّعُونَ
 وَمَنْ كَانَ يَشْهَقُ إِمَّا رَأَاكَ وَيُخْرِجُ مِنْ جُوفِهِ كَالرَّيْنِ
 وَمَنْ كَانَ يَصْفَعُ فِي اللَّهِ لَا يَمْلُ وَيَشْتَدُّ فِي غَيْرِ لَيْنِ
 وَيَسْلُحُ مَلَأَكَ كَيْلَ اتِّتَامِ إِمَّا عَلَى صَحَّةٍ أَوْ جُنُونِ
 فَفَارَقَهَا ذَلِكَ الْإِنْزَاجِ وَعَادَتْ إِلَى حَالِهَا فِي السُّكُونِ

٤ — وأهم ما بقي من آثار الأمدى هو كتابه "الموازنة بين أبي تمام والبحتري" وهو كتاب يضعه في الصف الأول ويقدمه على كثير من الناقدين .

وأسلوبه في ذلك الكتاب من أدق الأساليب وأصفأها وأبعدها من اللغو والفضول، وآراؤه في نقد الشعر آراء جيدة سديدة تعجب لها اليوم أشد العجب وبيننا وبينه عشرة قرون .

٥ — وأمتن ما يصل بيننا وبين ذلك الرجل — على بعد العهد — معرفته لنفسية الأدعياء أدعياء الأدب والبيان : فهو يقرر أن الناس يعتقدون أن الشعر منفرد من بين سائر الأشياء بجواز العلم به لكل أحد والحكم عليه لكل ناظر . لأن الذي يعرف منهم من الذهب والفضة والرقيق والخيل والسلاح والنياب والطيب أكثر مما يعرف من الشعر لا يتم نفسه في المعرفة بالشعر تهمة إياها في المعرفة بتلك الأشياء : لأنه يرى العرس فيعجبه ملاحه سببه ، واستدارة كفله ، وبريق شعره ، وصحة قوائمه ، وسلامة أعضائه ، وبراءته من العيوب الظاهرة والباطنة ، ولكنه لا يقدم على آتباعه حتى يشاور في أمره أصحاب البصيرة . ويرى السيف فيبهرة منه جلاؤه ، وصقاله ، وصفاء حديده ، ولكنه لا يمضي فيه آختياره حتى يعتمد على من يعرف حسنه وطبعه وجوهره وفرنده ومضائه . ويريد آتباع ثوب الوشي فيروقه منه حسن طرزده ، وكثرة صورده ، وبديع نقوشه ، واختلاط ألوانه ، فلا يبادر إلى إعطاء ثمنه حتى يرجع إلى أهل العلم بجوهره وجودة رقعة وصحة نسجه وصحة إبريسمه . ولكنه لا يجري على هذه القاعدة في الشعر لأنه ربما سمع القصيدة فأعجبه منها حسن وزنها

أودقة معانيها أو ما آشتلت عليه من مواظ و آداب وحكم وأمثال : فيتعجل بالحكم لها على سواها قبل أن يرجع إلى من هو أعلم منه بالشعر واستواء نظمه ووضع الفاظه في مواضعها ، وغير ذلك من الأنظار الدقيقة التي لا يدركها إلا أرباب الصناعة ^(١) .

٦ — ومن الدقائق الغريبة أن نرى الآمدى منذ عشرة قرون يفهم أن هناك حاسة فنية يرجع إليها الناقد حين يعوزه الإفصاح عما يدركه من أسرار البيان : فهو يحذثنا أنه كما قد يكون الفرسان سليمين من كل عيب موجود فيهما سائر علامات العتق والجودة والنجابة ويكون أحدهما أفضل من الآخر بفرق لا يعلمه إلا أهل الخبرة والدراية الطويلة ، وتكون الجاريتان بارعتين في الجمال سليمتين من كل عيب فيفرق بينهما العالم بأمر الرقيق حتى يجعل في الثمن بينهما فضلا كبيرا بدون أن يقدر على عبارة توضح وجه ذلك الفرق وإنما يعرفه بطبعه وكثرة درسته وطول ملاحظته ، فكذلك الشعر : قد يتقارب البيتان الجيدان النادران فيعلم أهل العلم بصناعة الشعر أيهما أجود إن كان معناه واحدا ، وأيهما أجود في معناه إن كان معناه مختلفا ^(٢) .

٧ — وهذه النظرية البعيدة في تقدير الحاسة الفنية لم تكن مما انفرد به الآمدى : فقد سبق إليها ولكنه استغلها أحسن استغلال . وأجمل ما جاء في هذا الباب ما حكاه إسحق الموصلي : ”قال لي المعتصم أخبرني عن معرفة النغم وبينها لي — فقلت إن من الأشياء أشياء تحيط بها المعرفة ولا تؤذيها الصفة“ .

٨ قال : ”وسألني محمد الأمين عن شعرين متقاربين وقال : اختر أحدهما فاخترت . فقال : من أين فضلت هذا على هذا وهما متقاربان ؟ فقلت : لو تفاوتنا لأمكنني التبيين ، ولكنهما تقاربا ففاضلت بينهما بشيء تشهد به الطبيعة ولا يعبر عنه اللسان“ . وقيل لخلف الأحمر : إنك لا تزال ترد الشيء من الشعر وتقول هو رديء والناس يستحسنونه فقال :

”إذا قال لك الصيرفي : إن هذا الدرهم زائف فليس بنافعك قول غيره إنه جيد“ ^(٢) .

ولكن كيف السبيل إلى كسب الذوق الأدبي أو الحاسة الفنية ؟

حنا يحجب الآمدى بأن ذلك لا يكون إلا بكثرة النظر في الشعر، والارتياض فيه، وطول الملابس له والانتقطاع إليه، والانجذاب عليه، والجلد فيه، والحرص على معرفة أسرارهِ وغوامضهِ .

٨ — والآمدى مع هذا يقرر بأنه ليس في مقدور كل إنسان أن يصل الى كسب الذوق الأدبي بطول الممارسة : لأن كل امرئ إنما يتيسر له ما في طبعه قبوله وما في طاقته تعلمه . وليس كل طبع قابلاً لفهم أسرار الأدب والبيان ومن هنا صح له أن يقول :

« واعلم أيها السائل المتعنت أن هذا الذى تسأله ليس في وسعه أن يجعلك في العلم بالصناعة كمنفسه . ولا يجد سبيلاً الى قذف ذلك في نفسك ولا في نفس ولده ومن هو أخص الناس به، ولا أن يأتيك في ذلك بعلّة قاطعة ولا حجة باهرة . على أن العلم الذى لا يستقر في الذهن إلا بالروية والمشاهدة وطول الملابس لا يمكن أن ينتقل الى ذهن آخر بمجرد القول والصفة . إلا إذا استطاع صاحب البصر بالسيوف أن يصف لك عشرة آلاف سيف مختلفات الأجناس والجواهر، بحيث يجعلك مشاهداً لها كلها في لحظة واحدة، عالم بكل علة، محيطاً بكل حجة .

”وبعد ففعل الذى غرك في دعواك المعرفة بالشعر والقدرة على الحكم فيه أن عندك خزانة كتب تشتمل على عدّة من دواوين الشعراء تصفحها أحياناً وتحفظ منها القصيدة أو القصائد وفاتك أنك لم تغتر هذا الاغترار فيما يتعلق بثياب بدنك، وأثاث بيتك، وطرق نفقتك؛ لأننا لانراك تبتاع وشياً ولا آلة ولا تصرف ديناراً بدرهم ولا درهما بدينار، حتى ترجع الى من يعرف ذلك دونك فتستعين به على حاجتك مخافة أن تفجع في مالك . فكان خليفاً بك أن تسلم أمر الشعر الى ألدله مخافة أن تفجع في عقلك . ومصيبة الغبن في العقل أكبر من مصيبة الغبن في المال“ .^(١)

٩ — والآمدى يؤثر الشعر المطبوع على الشعر المصنوع . ويعيب على الشعراء طلب الإغراق والإبداع والميل الى وحشي المعاني والألفاظ، وإن كان ذلك مما يروى ويستجاد

فى المعانى والألفاظ والتعابير . فالشاعر الحضرى لا يُقبل منه التوعر لأنه خروج على فطرته ، وقد يقبل من البدوى لأنه يحرى فيه على سجيته ، فكأن الفطرة هى الميزان . وهذا كما يرى القارى من أدق الأحكام .

وقد يكون لهذا الاتجاه دخل فى أعمار الألفاظ ، فبعضها عمّر طويلا لأنه وافق هوى فى أنفس الحضريين وبعضها هجرات لقلّة الاستعمال : ومن هذه الناحية فضل الآمدى البحترى على أبى تمام : لأن البحترى كان يتعمد حذف الغريب والوحشى من شعره ليقربه من فهم من يمتدحه . إلا أن يأتيه طبعه باللفظة بعد اللفظة فى موضعها من غير طلب لها . وكان من أسره فى ذلك أنه كان يكتفى أبا عبادة ، فلم يدخل العسراق تكنى أبا الحسن ليزيل العنجهية والأعرابية ويساوى فى مذاهبه أهل الحاضرة ويقرب بهذه الكنية الى أهل النباهة ^(١) والكتاب من الشيعة . فهو بذلك بدوى تحضر فراج شعره فى البدو والحضر . ولا كذلك أبو تمام فإنه حضرى تشبه بأهل البدو فلم ينفق بالبادية ولا عند أكثر الحاضرة .

١١ — والآمدى لا يستبعد اللحن بل يقرّر أنه " لا يكاد يعرى منه أحد من الشعراء المحدثين ولا يسلم منه شاعر من الشعراء الاسلاميين . وأنه قد جاء فى أشعار المتقدمين ما لا يقوم العذر فيه إلا بالتأويلات البعيدة . وأن ما عيب على البحترى من مخالفة المقاييس ^(٢) والبعد عن الصواب قد جاء كثير مثله فى أشعار القدماء . والأعراب الفصحاء " .

والواقع أن اللحن قديم . ومن الخطأ أن يُظن أن العرب لم يلحنوا إلا حين اختلطوا بالأعاجم . ولكنه من الواجب أن يلاحظ أن لطبايع الشعراء والكتاب دخلا فى فيما أثر عنهم من اللحن : لأن لبعض الأذهان طرائق خاصة فى التعبير قد تعدّ انحرافا عن الصواب . فى حين أنها تفصح عن أغراض اصحابها أتم الافصاح — ولو ترك الناس على فطرتهم لكان من طرائق تعبيرهم مادة صالحة لعلم النفس : لأن الأساليب الكتابية صور للاتجاهات العقلية ، والوجدانية ، والنفسية . وفى العقول كما فى الأساليب وضوح وغموض وخطأ وصواب .

بين صاحب أبي تمام وصاحب البحرى

اخترع الآمدى مناظرة طريفة تمثل النزاع الذى قام بين أصحاب أبي تمام وأصحاب البحرى . وهى مناظرة طويلة يجدها القارئ فى صدر كتاب "الموازنة بين الطائيين" ورأينا أن نثبت طرفا منها فى هذا الفصل ليرى القارئ كيف لآن الثر وعذب على قلم الآمدى وهو ^(١) يصوغ هذا الحديث :

صاحب أبي تمام — كيف يجوز لقائل أن يقول إن البحرى أشعر من أبي تمام ، وعن أبي تمام أخذ ، وعلى حدوه احتذى ، ومن معانيه استقى : حتى قيل الطائي الأكبر والطائي الأصغر .

صاحب البحرى — أما الصحبة له فما صحبه ، ولا تتلمذ له ، ولا روى ذلك أحد عنه ولا نقله ، ولا أرى قط أنه محتاج إليه .

ودليل ذلك الخبر المستفيض من اجتماعهما وتعارفهما عند أبي سعيد محمد بن يوسف الثغرى وقد دخل عليه البحرى بقصيدته التى أولها :

* أفأفك صب من هوى فأفقا *

وأبو تمام حاضر فلما أنشدها علق أبو تمام منها أبياتا كثيرة فلما فرغ من الانشاد أقبل أبو تمام على محمد بن يوسف فقال : أيها الأمير ! ما ظننت أن أحدا يقدم على أن يسرق شعري وينشده بحضرتى حتى اليوم ! ثم اندفع ينشد ما حفظه حتى أتى على أبيات كثيرة من القصيدة فهبت البحرى . ورأى أبو تمام الإنكار فى وجه أبي سعيد فحينئذ قال أبو تمام :

"أيها الأمير والله ما الشعر إلا له وإنه أحسن فيه الاحسان كله" وأقبل يقرظه ، ويصف معانيه ، ويذكر محاسنه ، ولم يقنع من محمد بن يوسف حتى أضعف له الجائزة . فمن كان يقول مثل هذه القصيدة التى هى من عين شعره ، وفانركلامه ، قبل أن يعرف أبا تمام ، جدير به

(١) اكتفينا فى إثبات هذه الصفحات بما أورده المرحوم مصطفى لطفى المشلولى فى مختاراته . ومن أراد الشواهد فليرجع إليها فى صدر كتاب الموازنة بهى هناك أوفى وأمتع .

أن يستغنى عن أن يصحبه، أو يتلمذ له أو لغيره من الشعراء . على أننى لا أنكر أنه استعار بعض معانى أبى تمام لقرب البلدين وكثرة ما كان يطرق سمع البحرى من شعره . وليس ذلك بمقتضى أن يكون أبو تمام أستاذ البحرى ولا بمانع أن يكون البحرى أشعر من أبى تمام . فهذا كثير قد أخذ من جميل واستقى من معانيه، فما رأينا أحدا قال إن جميلا أشعر منه بل هو عند أهل العلم بالشعر والرواية أشعر من جميل .

صاحب أبى تمام — إن البحرى نفسه يعترف أن أبا تمام أشعر منه فقد سئل عنه وعن أبى تمام : « فقال إن جيده خير من جيدى » وجيد أبى تمام كثير .

صاحب البحرى — إن كان هذا الخبر صحيحا فهو للبحرى لا عليه، لأن قوله هذا يدل على أن شعر أبى تمام كثير الاختلاف، وشعره شديد الاستواء، والمستوى الشعر أولى بالتقدمة من المختلف الشعر، وقد اجتمعنا نحن وأنتم على أن أبا تمام يعلو علوا حسنا ويخط انحطاطا قبيحا . وأن البحرى يعلو بتوسط ولا يسقط . ومن لا يسقط ولا يسف أفضل ممن يسقط ويسف .

صاحب أبى تمام — إن أبا تمام انفرد بمذهب اخترعه وصار فيه أولا وإماما متبوعا وشهر به حتى قيل هذا مذهب أبى تمام وطريقة أبى تمام . وسلك الناس نهجه واقتفوا أثره، وحى فضيلة عرى عن مثلها البحرى .

صاحب البحرى — ليس الأمر على ما وصفت، وليس أبو تمام صاحب هذا المذهب ولا بأول فيه ولا سابق إليه، بل سلك فيه سبيل مسلم بن الوليد وأحسنى حذوه وأفرط فى ذلك وأسرف حتى زال عن النهج المعروف، والسَّنن المألوف، بل إن مسلما غير مبتدع له ولكنه رأى هذه الأنواع التى وقع عليها اسم البديع متفرقة فى أشعار المتقدمين فقصدها وأكثر فى شعره منها . ولكنه حرص على أن يضعها فى مواضعها ولم يسلم مع ذلك من الطعن عليه حتى قيل أنه أول من أقصد الشعر بجاء أبو تمام على أثره واستحسن مذهبه، وأحب أن يجعل كل بيت من شعره غير خال من هذه الأضناف، فسلك طريقا وعرا، وأستكره الألفاظ

والمعاني استكراها : ففسد شعره ، وذهبت طلاوته ، ونشف مأؤه . فقد سقط الآن احتجاجكم باختراع أبي تمام لهذا المذهب وسبقه اليه . وكل ما في المسئلة أنه استكثر منه وأفرط فكان إفراطه فيه من أعظم ذنوبه ، وأكبر عيوبه . أما البحتري فانه ما فارق عمود الشعر وطريقته المعروفة على كثرة ما جاء في شعره من الاستعارة والتجيس والمطابقة فكان انفراده بحسن العبارة وحلاوة اللفظ وصحة المعنى والبعد عن التكلف والتعمل سببا في إجماع الناس على استحسان شعره واستجادته وتداوله . ونفاق شعر الشاعر دليل على علو مكانته واضطلاحه بما يلائم الأذواق ويلامس القلوب من أساليب الكلام ومناهجه .

صاحب أبي تمام — إنما أعرض عن شعر أبي تمام من لم يفهمه لدقة معانيه وقصور فهمه عنه ، أما النقاد والعلماء فقد فهموه وعرفوا قدره ، وإذا عرفت هذه الطبقة فضيلته لم يضره طعن من طعن بعدها عليه .

صاحب البحتري — لا يستطيع أحد أن ينكر منزلة ابن الأعرابي وأحمد بن يحيى الشيباني ودعبل بن علي الخزاعي من الشعر ومنزلتهم من العلم بكلام العرب . وقد علمتم مذهبهم في أبي تمام واذدراءهم بشعره . حتى قال دعبل : إن ثلث شعره محال ، وثلاثة مسروق ، وثلاثة صالح . وقال : ما جعل الله أبا تمام من الشعراء بل شعره بالخطب والكلام المنشور أشبه منه بالشعر . وقال ابن الأعرابي في شعر أبي تمام : ان كان هذا شعرا فكلام العرب باطل ! وهذا محمد بن يزيد المبرد ما علمناه دؤن له كبير شيء .

صاحب أبي تمام — إن دعبلا كان ^(١) يشنأ أبا تمام ويحسده على ما هو معروف ومشهور ، فلا يقبل قول شاعر في شاعر . وأما ابن الأعرابي فكان شديد التعصب عليه لغرابية مذهبه ، ولأنه كان يرد عليه من معانيه ما لا يفهمه ولا يعلمه ، فكان إذا سئل عن شيء منها يأنف أن يقول لا أدري فيعدل الى الطعن عليه . ولا مانع أن يكون جميع من تذكرونه على هذا القياس .

صاحب البحرى — لا عيب على ابن الأعرابى فى طعنه على شاعر عدل فى شعره عن مذاهب العرب الى الاستعارات البعيدة المخرجة للكلام الى الخطأ والإحالة . والعيب فى ذلك يالحق أبا تمام إذ عدل عن المحجة الى طريقة يحهلها ابن الأعرابى وأمثاله من المضطلمين بالسليقة العربية .

صاحب أبى تمام — إن العلم فى شعر أبى تمام أظهر منه فى شعر البحرى ، والشاعر العالم أفضل من الشاعر غير العالم .

صاحب البحرى — كان الخليل بن أحمد عالما شاعرا ، وكان الأصمعى شاعرا عالما ، وكان الكسائى كذلك ، وكان خلف بن حيان الأحمر أشعر العلماء ، وما بلغ بهم العلم طبقة من كان فى زمانهم من الشعراء غير العلماء ، وقد كان أبو تمام يعمل على أن يدل فى شعره على علمه باللغة وكلام العرب .

أما البحرى فلم يقصد هذا ولا أعتمده ، ولا كان يعدّه فضيلة ولا يراه علما ، بل كان يرى أنه شاعر لا بد له أن يقرب شعره من فهم سامعه فلا يأتى بالغريب إلا أن يتفق له فى اللفظة بعد اللفظة فى موضعه من غير طلب له ولا حرص عليه . على أن هذا العلم الذى تؤثر به أبا تمام لم ينفعه : فقد كان يلحن فى شعره لحنا يضيق العذريه ولا يجد المتأول له مخرجا منه إلا بالحيلة والتحمل الشديد .

صاحب أبى تمام — لسنا نذكر أن يكون صاحبنا قد وهم فى بعض شعره وعدل عن الوجه الأوضح فى كثير من معانيه . وغير غريب على فكر نتج من المحاسن ما نتج ، وولد من البدائع ما ولد ، أن يلحقه الكلال فى الأوقات ، والزلل فى الأحيان ، بل من الواجب لمن أحسن إحسانه أن يسأخ فى سهوه ويتجاوز له عن خطاه . وما رأينا أحدا من شعراء الجاهلية سلم من الطعن ولا من أخذ الرواة عليه الغلط والعيب ، وكذلك ما أخذته الرواة على المحدثين المتأخرين من الغلط والخطأ واللحن أشهر من أن يحتاج إلى أن نبرهنه أو ندل عليه ، وما كان أحد من

أولئك ولا هؤلاء مجهول الحق ولا مجرود الفضل بل عفى إحسانهم على إساءتهم، وتجوّدهم على تقصيرهم .

صاحب البحرى — أما أخذ السهو والغلط على من أخذ عليهم من المتقدمين والمتأخرين ففى البيت الواحد والبيتين والثلاثة . أما أبو تمام فلا تكاد تخلوله قصيدة واحدة من عدة أبيات يكون فيها مفسداً أو مُحمّلاً أو عادلاً عن السنن أو مستعيراً آستعارة قبيحة أو مخطئاً للغنى بطلب الطباق والتجنيس ، أو مبهماً بسوء العبارة والتعقيد حتى لا يفهم ولا يوجد له مخرج .

صاحب أبى تمام — إنكم تنكرون على أبى تمام من الفضل ما يعترف به البحرى نفسه فقد رثاه بعد موته وثاء اعترف فيه له بالسبق وفضله على شعراء عصره .

صاحب البحرى — لم لا يفعل البحرى ذلك وقد كان هو وأبو تمام صديقين متحابين وأخوين متصافين يجمعهما الطلب والنسب والمكتسب ، فليس بمنكر ولا غريب أن يشهد أحدهما لصاحبه بالفضل ويصفه بأحسن ما فيه ، ويخله ما ليس فيه ، على أن الميت خاصة يُعطى فى تأبينه من التقرّيز والوصف وجميل الذكّر أضعاف ما كان يستحقه .

صاحب أبى تمام — كيفما كان الأمر لا تستطيعون أن تدفعوا ما أجمع عليه الرواة والعلماء أن جيد أبى تمام لا يتعلق به جيد أمثاله . وإذا كان جيده بهذه المكانة وكان من الممكن إغفال رديئه وأطراحه كأنه لم يقله فلا يبقى ريب فى أنه أشعر شعراء عصره والبحرى واحد منهم .

صاحب البحرى — إنما صار جيد أبى تمام موصوفاً ومذكوراً لندرتة ووقوعه فى تضاعيف الردىء فيكون له رونق وماء عند المقابلة بينه وبين ما يليه . وجيد البحرى بكيد أبى تمام إلا أنه يقع فى جيد مثله أو متوسط فلا يفاجئ النفس منه ما يفاجئها من جيد صاحبه .

٨ - أبو سهل العسكري

١ - في الأدب العربي رجلاً باسم العسكري يشتهر كثيراً على الباحثين؛ لأن كلا منهما الحسن بن عبد الله العسكري . وكان من أسباب هذا اللبس أن أخطأ صديقنا الأستاذ خير الدين الزركلي في كتابه "الإعلام" ^(١) فزخ وفاة أحدهما بوفاة الآخر اعتماداً على فهرس دار الكتب المصرية .

قل ياقوت : أما وفاته فلم يبلغني منها شيء غير أنني وجدت في آخر كتاب الأوائل من تصنيفه (وفرغنا من إملأ هذا الكتاب لعشر خلت من شعبان سنة ٣٩٥) وقد ظن جورجي زيدان أن هذا تاريخ الوفاة .

والفرق بين ذينك الشخصين أن أحدهما يكنى أبا أحمد وهو الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري ، وثانيهما يكنى أبا دلال وهو الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري ، وقيل إن أبا دلال كان ابن أخت أبي أحمد ^(٢) .

والعسكري نسبة إلى عسكر مكرم، وهي مدينة من كور الأهواز ، ومكرم الذي تنسب إليه مكرم الباهلي وهو أول من اختطها؛ كما يقول ابن خلكان ^(٣) .

٢ - وكان أبو أحمد العسكري من رجال اللغة والرواية . وكان صاحب ابن عباد يودة الاجتماع به ولا يجد إليه سبيلاً ، فقال لمخدومه مؤيد الدولة بن بويه : إن عسكر مكرم قد اختلت أحوالها ، وأحتاج إلى كشفها بنفسي ، فأذن له في ذلك ، فلما أتاها توقع أن يزوره أبو أحمد العسكري فلم يزرد . فكتب صاحب إليه :

ولما أبيتم أن تزوروا وقسمو ضعفتنا فلم تقدر على الوخدان ^(٤)

(١) ص ٢٢٩ ج ١ (٢) ياقوت ص ١٢٧ ج ٢ (٣) وفيات الأعيان ص ٢٣٥ ج ١

(٤) الروضان : سعة الخطوة ، كلوخد والوخيد .

أتيناكمو من بعد أرض زوركم وكم منزل بكر لنا وعوان
نسائلكم هل من قرى لنزيلكم بملء جفون لا بملء جفان

وكتب مع هذه الأبيات شيئا من النثر بخاوبه أبو أحمد عن النثر بنثر مثله ، وجاوبه عن الشعر بهذه الأبيات :

أروم نهوضا ثم يثنى عزيمتي تعوذ أعضائي من الرجفان
فضممت بيت ابن الشريد كأنما تعمّد تشبيهي به وعناني
”أهم بأمر الحزم لو أستطيعه وقد حيل بين العير والنزوان“

فلما وقف الصاحب على الجواب عجب من اتفاق هذا البيت له وقال : « والله لو علمت أنه يقع له هذا البيت لما كتبت اليه على هذا الروي » .

وقد رأى أبو أحمد أن هذا لا يقنع الصاحب وأنه لا بد من الجمل على النفس ، فركب بغلة وقصده فلم يتمكن من الوصول اليه لاستيلاء الحشم ، فصعد تلعة ورفع صوته بقول أبي تمام :

مالي أرى القبة الفيحاء مقفلة دوني وقد طال ما استفتحت مقفلها
كأنها جنة الفردوس معرضة وليس لي عمل زالك فأدخلها

فناداه الصاحب : ادخلها يا أبا أحمد فلك السابقة الأولى ! فتبادر اليه أصحابه فحملوه حتى جلس بين يديه فسأله عن مسألة فقال : الخبير صادفت ! فقال الصاحب : يا أبا أحمد ! تغرب في كل شيء حتى في المثل السائر ! فقال : ففألت عن السقوط بحضرة مولانا . وأصل المثل (على الخبير سقطت) وكانت وفاة أبي أحمد العسكري سنة ٣٨٢^(١)

وانما كتبنا هذه الكلمة عن أبي أحمد لأنه كان أستاذ أبي هلال ، ولنرشد القارئ الى أن أبا هلال حين يقول في الصناعتين : « أخبرنا أبو أحمد » فإنه لا يريد رجلا سواه . ومن

كتاب الصناعتين نعرف شيئا كثيرا عن أبي أحمد العسكري من الوجهة الأدبية ، فقد نقل عنه أشياء كثيرة في أغلب ضروب البيان ، واختار شذرات من ثمره تمثله من أوساط الكتاب ^(١) .

٣ — أما أبو هلال فهو شخصية قوية جذابة لها أثر عظيم في اللغة العربية ، ولولم يكن له إلا كتاب الصناعتين لكفى دلالة على فضله وبراعته وتفوقه فيما عني به من درس الشعر والنثر وتعقب مذاهب الشعراء والكتاب .

كان أبو هلال أبا النفس ، قوى القلب ، يترفع عن الدنيا ويأى بنفسه عما يرتطم فيه أدعياء الأدب من كسب العيش عن طريق التزلف الى الأمراء والرؤساء . وقد رأينا أن أستاذه وخاله أبا أحمد العسكري كان قدوة له في ذلك ، إذ كان الصاحب يستدعيه الى حضرته فيعتذر بالضعف والشيخوخة فرارا من أن يحشر في زمرة الأتباع وطلاب المغامم وأرباب الغايات .

كان أبو هلال يتجر في الثياب احترازا من الطمع والدناءة والتبدل ^(٢) ، ولكنه كان قوى الشعور بأن تلك مهنة لا تليق به ولا بأدبه ، فكان يزفر بمثل قوله :

جلوسى فى سوق أبيع وأشترى دليل على أن الأثام قروء
ولا خير فى قوم يذل كرامهم ويعظم فيهم نذلهم ويسود
ويهجوهمو عنى رثانة كسوتى هجاء قبيحا ما عليه مزيد

وقوله :

إذا كان مالى مال من يلقط العجم ^(٣) وحالى فيكم حال من حاك أو يحجم
فأين انتفاعى بالأصالة والحجا وما ربحت كفى على العلم والحكم
ومن ذا الذى فى الناس يبصر حالى فلا يلعن القرطاس والخبر والقلم ^(٤)

٤ — وقد كان أبو هلال مع هذا التأبى متصل الجبل بالصاحب بن عباد ، وليس في كتب التراجم ما يشرح لنا صلته بذلك الوزير الذى استعبد معاصريه من الكتاب

(١) أنظر ص ٣١٩ صناعتين . (٢) ص ١٣٥ ج ٣ ياقوت . (٣) العجم : البوى .

(٤) ص ١٣٦

والشعراء ، ولكنني رأيت في كتاب الصناعتين ما يدل على أن صلته به كانت قوية ، ولذلك مظهران :

الأول إشادته بأدب صاحب ، والثاني تحامله على المتنبي ، وكان ابن عباد يكره المتنبي كرها شديدا لترفعه عن مدحه ، فكان لذلك يدفع النقاد الى النيل منه والوقوع فيه ، والغرض من شعره .

أما إشادته بأدب صاحب فتظهر في استشهاده بكلامه ، كقوله في باب السجع والازدواج : ” ومثله قول صاحب : لكنه عمد الى الشوق فأجرى جياذه غرا وقرحا ، وأورى زناذه قدحا فقدحا ... وقوله : هل من حق الفضل تهضمه شغفا ببلدتك ، وتظلمه كلفا بأهل جلدتك ، ... وقوله : وقد كتبت الى فلان ما يوجز الطريق الى تخلية نفسه ، وينجز وعد الثقة في فك حبسه “^(١) .

ونرى أبا هلال في مكان آخر يقول : ” روى لنا أن عمر بن أبي ربيعة أنشد ابن عباس رضي الله عنه :

* تشط غدا دار جيراننا *

فقال ابن عباس :

* وللدار بعد غد أبعد *

فقال عمر : والله ما قلت إلا كذلك ... وإذا كان القوم في قبيلة واحدة وفي أرض واحدة فإن خواطرهم تقع متقاربة ، كما أن أخلاقهم وشمائلهم تكون متضاربة ... وأنشدت صاحب اسماعيل بن عباد :

* كانت سراة الناس تحت أظله *

فسبقني وقال :

* فغدت سراة الناس فوق سراته *

وكذلك كنت قلت ، فعلى هذا جائز ما يدعى لهم^(٢) .

وفي هذه العبارة تظهر مجاملة أبي حلال للصاحب، فهو يتخذ من حضور ذهنه دليلا على أن حضور الذهن من النعم التي قد يهبها الله للناس !

ونراه في باب الفصل والوصل يقول : ” وهكذا يفعل الكتاب الحذاق، والمترسلون المبرزون ... ألا ترى ما كتب الصاحب في آخر رسالة له : فان حثت فيما حلفت ، فلا خطوت لتحصيل مجد ، ولا نهضت لاقتناء حمد ، ولا سعت الى مقام خفر ، ولا حرصت على علو ذكر ... وهذه اليمين التي لو سمعها عامر بن الظرب لقال هي الغموس ، لا القسم باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ... فأتى بإيمان ظريفة ومعان غريبة .

وكتب أيضا في آخر رسالة : وأنا متوقع لكاتبك ، توقع الظمان للاء الزلال ، والصوم للال شوال .

وكتب آخر أخرى : وسئل أن أخلفه في تجشيم مولاى الى هذا المجمع ، ليقرب علينا تناول البدر بمشاهدته ، ولمس الشمس بغرته .

فانظر كيف يقطع كلماته على كل معنى بديع ، ولفظ شريف ^(٢) .

هـ — وأما تحامله على المتنبي فيظهر في مواطن كثيرة من كتابه ، فهو لا يذكره باسمه ، ولا يتحدث عن شعره إلا حين يريد التمثيل للشعر القبيح . ففى باب تمييز المعاني ينشد قول السيد الحميرى :

أيارب إني لم أرد بالذى به مدحت عاليا غير وجهك فارحم

ثم يقول : ” فهذا كلام عاقل يضع الشيء في موضعه ، ويستعمله في إبانته ، ليس كمن قال وهو في زماننا :

جفخت وهم لا يحفخون بها بهم شيم على الحسب الأغر ^(٣) دلائل

فأشمت عدوه بنفسه .

(١) اليمين الغموس بالعين المعجمة التي تنفس صاحبها في النار . (٢) ص ٣٥٤ و ٣٥٥

(٣) لم يذكر أبو حلال عجز البيت (ص ٤٥) . ص ٢٩٣

وفي باب الكناية والتعريض يقول : « ومن شنيع الكناية قول بعض المتأخرين :

إني على شغفى بما فى نحرها لأعف عما فى سراويلاتها

وسمعت بعض الشيوخ يقول : الفجور أحسن من عفاف يعبر عنه بهذا اللفظ » .

و « بعض الشيوخ » ذاك هو الصاحب بن عباد الذى قيد هذه الملاحظة فى آخر رسالته

فى الكشف عن مساوى المتنبي^(١) .

وفي باب الترصيع يقول : « ومن معيب هذا الباب أيضا قول بعض المتأخرين :

عجب الوشاة من اللحاة وقولهم دع ما نراك ضعفت عن إخفائه

هذا ردىء لتعمية معناه^(٢) » .

وفي باب التوشيح يقول : « وما عيب من هذا الضرب ... قول بعض المتأخرين :

فقلقلت بالهم الذى قلقل الحشا قلاقل عيس كلهن قلاقل

وإنما أخذه من قول أبى تمام فأفسده :

طلبتك من نسل الجديل وشدقم^(٣) كوم عقال من عقائل كوم

٦ — وتحامل أبى هلال على المتنبي هو المطعن الظاهر فى أخلاقه ، فقد كان يستطيع

أن ينقد شعر المتنبي فيظهر الجيد منه والردىء ، ولكل شاعر جيد وردىء ، ولكنه سلك

خطا واحدة هى النص على السخيف من شعر المتنبي مع التعامى عن معانيه الجيدة ، وخياله

الوثاب . فانضم بذلك إلى النقاد المغرضين الذين كلفوا بالبحث عن عيوب المتنبي ابتغاء

مرضاة الوزير ابن عباد ، وما أخط الأدب إذا سخر لأهل الملك والسلطان !

٧ — ويعدّ ثرأبى هلال من الطبقة العالية . وهو يسجع ، ولكنه لا يلتزم السجع ،

والتعبير المشرق الفصيح من أظهر مميزات ، ولا يكاد القارئ يرى فى نثره عبارة غامضة أو فكرة

(١) مخطوطة فى دار الكتب المصرية . (٢) ص ٣٠٠ (٣) ص ٣٠٤ والجديل وشدقم لخالد

يحوطها اللبس ، وإنما يمضى فى الشرح والإيضاح بلغة سهلة مقبولة لا يعتريها ضعف ولا التواء . وانظر قوله فى جودة الرصف وحسن النظم :

«أجناس الكلام المنظوم ثلاثة : الرسائل والخطب والشعر . وجميعها تحتاج إلى حسن التأليف وجودة التركيب . وحسن التأليف يزيد المعنى وضوحا وشرحا . وسوء التأليف مع رداءة الرصف والتركيب شعبة من التعمية . فإذا كان المعنى ^(١) سبيا ، ورصف الكلام رديا ، لم يوجد له قبول ولم تظهر عليه طلاوة . وإذا كان المعنى وسطا ، ورصف الكلام جيدا ، كان أحسن موقعا وأطيب مستمعا ، فهو بمنزلة العقد إذا جعل كل خرزة منه إلى ما يليق بها كان رائعا فى المرأى وإن لم يكن مرتفعا جليلا ، وإن اختل نظمه فضمت الحبة إلى ما لا يليق بها اقتحسته العين وإن كان فائقا ثمينا . وحسن الرصف أن توضع الالفاظ فى مواضعها وتمكن فى أماكنها ، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير والحذف والزيادة إلا حذفًا لا يفسد الكلام ولا يعنى المعنى ... وسوء الرصف تقديم ما ينبغى تأخيرها منها وصرفها عن وجوها وتغيير صيغتها ومخالفة الاستعمال فى نظمها ^(٢) .

ولا يستطيع وضع لغة التأليف فى مثل هذه السهولة وهذه الدقة إلا الكتاب المتفوقون . وانظر أيضا قوله :

«البلاغة ليست مقصورة على أمة دون أمة ، ولا على ملك دون سوقة ، ولا على لسان دون لسان ، بل هى مقسومة على أكثر الألسنة . فهم فيها مشتركون ، وهى موجودة فى كلام اليونان وكلام العجم وكلام الهند وغيرهم ، ولكنها فى العرب أكثر لكثرة تصرفها فى النثر والنظم والخطب والكتب والسجع والمزدوج والرجز ، وهم أيضا متفاوتون فيها ، فقد يكون العبد بليغا ولا يكون سيده ، وتكون الأمة بليغة ولا تكون ربها ، فالبلاغة قد تكون فى أعراب البادية دون ملوكها ، وقد يحسنها الصبي والمرأة ^(٣) .

(١) السي ، هنا ، معناه الجيد ، والسبية : الدرة . (٢) ص ١٢٠ إلصناعتين .

(٣) ص ٢١٣ التفضيل بين بلاغى العرب والعجم ضمن مجموعة التحفة البهية طبع الآستانة .

وجمال هذه الفقرة يرجع الى دقتها وسلامتها من الفضول ، وفيها صورة لفهم رجال ذلك العهد لمواقع البلاغة ، فهي في رأيهم ليست وقفا على أمة دون أمة ، ولكنهم يشعرون أن العرب أقدر الناس على الكلام البليغ ، ولا يمكن أن يطالب الرجل بغير ذلك ، فمن الصعب أن يدرك الناقد أن هناك لغة أجمل من لغته ، إذ كان تذوق الأساليب يرجع الى طول الألفة والصدقة الروحية لأسرار الكتاب والشعراء . وفي رأي أن البلاغة كالموسيقا لا تفهم ولا تُذاق إلا بطول السماع ، فهناك ألحان شرقية بديعة لا يدرك جمالها إلا الشرقيون ، ولو سمعها الغربيون لسخروا منها وعدوها من عبث الرعاع . وهناك ألحان غربية دقيقة لا يقدروا إلا الغربيون ، ولو سمعها الشرقيون لسدوا آذانهم وقالوا هذه همهمة الأعجم !

٨ — وكان أبو هلال يجيد الشعر ، ويضع شعره في طبقة أشعار المفلقين ، فينشده في الصناعتين مستشهدا به كما يستشهد بشعر أبي تمام والبحترى ، أو النابغة وامرئ القيس ، ومن إليهم من القدماء والمحدثين ، وهذا يدل على اعتداده بقيمته الفنية ، ونحن كذلك نراه من الشعراء المجيدين ، فنستحسن قوله — وقد أنشده في باب المطابقة — :

قل لمن أدنيه جهدى	وهو يقصيني جهده
ولمن ترضاه مولا	ك ولا يرضاك عبده
أملح بملح الشـ	كل أن يخلف وعده
أم جميلٌ بجميل الـ	وجه أن ينقض عهده
ما الذي صدك عني	ليت ما صدك صدك ^(١)

ونستجيد قوله في تفضيل الشتاء على غيره من الأزمنة :

إن روح الشتاء خلّص روجي	من حرور تشوى الوجوه وتكوى
برد الماء والهواء كأن قد	سرق البعد من جوانح خلّو

ريحه تلمس الصدور فتشفي	وغماماته تصوب فتروى
لست أنسى منه دمانه دجن	ثم من بعده نصارة صحو
وجنوبا يبشر الأرض بالقط	بركا بشر الليل بنبو
وغيوما مطر زات الحواشي	بوميض من البروق وخفو
كلما أرخت السماء عراها	جمع القطر بين سفلى وعلو
وهي تعطيك حين هبت شمالا	برد ماء فيها ورقة جـو
وليال أطلن مئة درسي	مثلا قد مددن في عمر لحوي ^(١)

(١) ص ١٣٨ ج ٣ ياقوت.

٩ - كتاب الصناعتين

١ - أجمل أثر لأبي هلال العسكري هو كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر . وقد أراد أن يودعه جميع ما يحتاج اليه في صنعة الكلام نثره ونظمه ، من غير إخلال ولا إسهاب ، وجعله عشرة أبواب مشتملة على ثلاثة وخمسين فصلا ، تكلم فيها عن موضوع البلاغة ، وتميز الكلام جيده من رديئه ، والإيجاز والإطباب ، وحسن الأخذ وقبحه ، والتشبيه والسجع والازدواج ، والبديع وفنونه ، الخ .

والغاية من علم البلاغة فيما بص أبو هلال هي أن يعرف المتأدب إعجاز القرآن . وهي فكرة كثيرة الذبوع عند المتقدمين : فعلوم اللغة العربية في عرفهم إنما وضعت لفهم القرآن المجيد ، وهم يريدون أن يطمئن المؤمن الى إعجاز القرآن اطمئنانا مؤسسا على قواعد من البيان تحمل المنصف على الإقرار بإعجاز ذلك الكتاب . وهناك غايات ثانوية منها فهم الأدب ومنها القدرة على إجادة الإنشاء . وقد أشار أبو هلال الى أن الكتب المصنفة في ذلك الفن كانت لعهد قليل وأنها أشهرها كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وهو في رأيه كتاب جم المنافع لما أشتمل عليه من جيد الفصول والفقر والخطب والأخبار ، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء ، إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة ماثورة في تضاعيفه : فهي ضالة بين الأمثلة لا توجد إلا بالتأمل الطويل ، والتصفح الكثير .^(١)

٢ - كتاب الصناعتين كتاب جيد ، تشعر وأنت تقرأه أنه كتاب نادر المثال ، والمؤلف قوى الشعور بذلك ، فإذا نراه يقول بعد أن شرح نعوت البلاغة ووجوه البيان والفصاحة : « ولم يسبقني الى تفسير هذه الأبواب وشرح وجوهها أحد ، وإنما أقتصر من كان قبلي على ذكر تلك النعوت عارية مما هي مفتقرة اليه من إيضاح غامضها ، وإنارة مظلمها ،

فكان المنفعة بها للعالم دون المتعلم ، والسابق دون اللاحق ، وربما اعترض الشك فيها للعالم المبرز؛ فسقطت عنه معرفة كثير منها، وأنت أيدك الله تعتمد ما ذكرته من ذلك؛ وتأتّم بما شرحه منه ، وتستدل به على ما أليته من جنسه إذا عثرت به ، لتستغنى عن جميع ما صنف في البلاغة، وسائر ما ذكر من أصناف البيان والفصاحة، إن شاء الله^(١) .

وزاه يقول بعد أن تكلم عن قبح الأخذ : «وقد أتيت في هذا الباب على الكفاية، ولا أعلم أحدا ممن صنف في سرق الشعر فثقل بين قول المبتدئ وقول التالى وبين فضل الأول على الآخر والآخر على الأول غيرى ، وإنما كان العلماء قبلى ينبهون على مواضع السرق فقط، فقس بما أوردته على ما تركته ، فاني لو استقصيته لخرج الكتاب عن المراد^(٢) .

٣ — وأول ما يلاحظ في كتاب الصناعين أنه كتاب أدب قبل أن يكون كتاب نقد، فان المؤلف يلتزم جميع الفرص ليعرض للقارئ طرائف النثر الجيد والشعر البليغ، وهو لا يكتفى بشاهد واحد، وإنما يندفع فيثقل من رسالة أنيقة الى حكمة بليغة، ومن بيت جيد الى قطعة مختارة . وقد بقي كتاب الصناعين لذلك مرجعا لأجل ما أنتجته القرائح العربية : ففيه نماذج من النثر البليغ قد يندر أن نجدها في كتاب سواه، واليك هذه الدرة التي نقلها عن كثير ابن هراسة في وصية ابنه :

”يا بنى ! إن من الناس ناسا ينقصونك اذا زدتهم ، وتهون عليهم اذا أكرمتهم ، ليس لرضاهم موضع فتقصده، ولا لسخطهم موقع فتحذره، فاذا عرفت أولئك بأعيانهم ، فأبد لهم وجه المودة وأمنعهم موضع الخاصة ، ليكون ما أبديت لهم من وجه المودة حاجزا دون شرهم وما منعته من موضع الخاصة قاطعا بحرمتهم^(٣) .

٤ — ومن أظهر الدلائل على أنه كتاب أدب قبل أن يكون كتاب نقد أنه يكثر من الاستطراد، والاستطراد هو المنهج الغالب على كتب الأدب الخالص، وهو منهج جميل كان يريد به القدماء نشر المعارف الأدبية، أو ما يسمى اليوم بالثقافة العامة، ومن أمثلة

استطاعه أنه أراد أن يضرب مثلاً للعلم الكثير في القول اليسير فقال : وسئل بعض الأوائل :
ما كان سبب موت أخيك ؟ قال : كونه ! ... وهنا مضى أبو هلال ينحرفنا أن الناس تنازعوا
هذا المعنى . فقد قيل لأعرابي : كيف حالك ؟ فقال : ما حال من يقنى ببقائه ، ويسقم بسلامته ،
ويؤتى من مأمته . وأن النبي عليه السلام قال : كفى بالسلامة داء . وأن حميد بن ثور قال :

أرى بصرى قد رابني بعد صحة وحسبك داء أن تصح وتسلما
وقال آخر :

كانت قناتي لا تلين لغامر فالأنها الإصباح والإمساء
ودعوت ربي بالسلامة جاهدا ليصحني فاذا السلامة داء
وقال ابن الرومي :

لعمرك ما الدنيا بدار إقامة اذا زال عن نفس البصير غطاؤها
وكيف بقاء العيش فيها وانما ينال بأسباب الفناء بقاءها
وقريب من ذلك قول محمد بن علي : مالك من عيشك إلا لذة تردلف بك إلى حمامك ،
وتقربك من يومك . فأية أكلة ليس معها غصص ، وشرية ليس معها شرق ؟ فتأمل أمرك .
(١)
فكأنك قد صرت الحبيب المفقود أو الخيال المحترم . وقال أبو العتاهية :

* أسرع في نقص امرئ تمامه *

ولم يكنف بهذا أبو هلال ، بل ذكر أن أول من نطق بهذا المعنى النمر بن تولب
في الجاهلية إذ قال :

يود الفتى طول السلامة والغنى وكيف يرى طول السلامة يفعل
يرد الفتى بعد اعتدال وصحة ينوء اذا رام القيام ويميل

ثم ذكر من الأمثال : كل من أقام شخص ، وكل من زاد نقص . وأضاف الى ذلك
شيئا من مختار شعره في هذا المعنى .
(٢)

(١) في الأصل « الجيب » وهو تحريف ، والتصويب عن الكامل ج ١ ص ٨٧ طبعة الخشاب .

(٢) راجع ص ٢٧ — ٢٩

هـ — وما يؤخذ عليه أبو حلال أنه يهمل أسماء الكتاب والشعراء في كثير من الشواهد، كأن يقول: كتب بعضهم إلى أخ له^(١) "أما بعد فإن المرء ليسر درك ما لم يكن ليفوته؛ ويسوء فوت ما لم يكن ليدركه؛ فليكن سرورك فيما قدمت من خير، وأسفك على ما فاتك من بر" وكأن يقول: "كتب بعضهم يصف رجلا فقال: "أما بعد فانك قد كتبت تسأل عن فلان كأنك قد همت بالتقدم عليه، أو حدثت نفسك بالوفود إليه، فلا تفعل، فإن حسن الظن به لا يقع إلا بخذلان الله تعالى، وإن الطمع فيما عنده لا يخطر على القلب إلا بسوء التوكل على الله تعالى، والرجاء لما في يديه لا ينبغي إلا بعد اليأس من رحمة الله تعالى، لا يرى إلا أن الإقنار الذي نهى الله عنه هو التبذير الذي يعاقب عليه، والاقتصاد الذي أمر به هو الإسراف الذي يفضب منه ... وأن مواساة الرجل أخاه من الذنوب الموبقة، وأفضاله عليه إحدى الكبائر المرحقة، وأن الله تعالى لا يغفر أن يؤثر المرء على نفسه ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء!"

٦ — ويكثر أبو حلال من كلمة "قال الشاعر، وقال الآخر" من غير تعيين، وهذا عيب لم ينفرد به، وإنما هو عيب غالب على أكثر المؤلفين في اللغة العربية، وصلنا به إلى الجهل المطبق بتمييز العصور بعضها من بعض، ولو نسبت كل كلمة إلى قائلها لعرفنا كثيرا من تطورات المعنى والألفاظ والأساليب.

٧ — وسر البلاغة عند أبي حلال يرجع إلى الألفاظ "وليس الشأن في إيراد المعاني، لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي، والقروي والبدوي، وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه، وحسنه وبهائمه" ودنايه على أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ أن الخطب الرائعة، والأشعار الرائقة، ما عملت لإدهام المعاني فقط، لأن الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها في الإيهام. ودليل آخر عنده أن الكلام إذا كان لفظه حلوا عذبا ومعناه وسطا دخل في جملة الجيد، وإذا كان المعنى صوابا واللفظ باردا فاترا — والفاتر شر من البارد — كان مستهجننا ملفوظا، ومذموما مردودا^(٢).

وقد ضرب المثل فيما سبق بالعقد المنظوم : فانه يكون أروع إذا جعلت كل خُرزة منه إلى ما يليق بها وإن لم يكن مرتفعا جليلا ، وإن اختل نظمه فضمت الحبة منه إلى مالا يليق بها اقتحمته العين وإن كان فائقا ثميناً .

وقد عرض في باب التميم إلى قول الخنساء :

وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

وبين أنه مأخوذ من قول الأعشى :

وتدفن منه الصالحات وإن يُسئ يكن ما أساء النار في رأسي كبكبا

إلا أنها أخرجه في معرض أحسن من معرض الأعشى . ثم قال : ” وهذا دليل على

صحة ما قلناه من أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ وتجميل الصورة ^(١) ”

٨ — وحسن اللفظ عند أبي هلال موقوف على جمال المعنى ، فلا خير فيما أجيد لفظه

إذا سئف معناه ^(٢) . والكلام عنده بسلاسته وسهولته وتخير لفظه وإصابة معناه وجودة مطالعه واستواء تقاسيمه ، مع عدم ضروراته بحيث يكون المنظوم مثل المنشور في حسن رصفه وتأليفه ، وكإل صوغه وتركيبه ^(٣) . وهو يفضل الكلام السهل ، ويراه أدل على قدرة الشاعر والكاتب ^(٤) .

وهذا حق : فإن سهولة الكلام تحتاج إلى صنعة ومهارة وحذق ، وليس في مقدور كل

كاتب أن يخاطب الناس جميعاً بما يفهمون في لغة سهلة تجرى إلى أذهانهم وعقولهم وأذواقهم ، ثم تظل مع ذلك فوق قواهم لا يستطيعون أن يأتوا بشئ من مثل ما فيها من الألفاظ المتخيرة ، والمعاني الشريفة ، والخيال الجميل .

وقد ضرب المثل للسهل الممتنع بقول العباس بن الأحنف :

إليك أشكوب ما حلّ بي من صدّ هذا التائه المعجيب

إن قال لم يفعل وإن سئل لم يبذل وإن عوتب لم يُعتب

صبّ بعصيانى ولو قال لى لا تشرب البارد لم أشرب

وقول البحترى :

أيهما العاتب الذى ليس يرضى	نم هنيئا فليست أطعم غمضا
إن لى من هوائك وجدا قد استمر	مالك نومي ومضجعا قد أفضا
بخفوني فى عبرة ليس ترقا	وفؤادى فى لسوعة ما تقضى
بأبى شادن ^١ تعلق قلبى	يجفون فواتر اللحظة مرضى
لست أنساه إذ بدا من قريب	يتثنى ^٢ ثثنى الغصن غضا
واعذارى إليه حين تجافى	لمى عن بعض ما أتيت وأغضى
واعتلاقى تفاح خديه تقيبه	لا ولثا طورا وشما وعضا

وقول الآخر :

صرفت القلب فانصرفا	ولم ترع الذى سلفا
وبنت فلم أذب كعدا	عليك ولم أمت أسفا
كلانا واجد فى النا	س ممن مله خلفا

ولكن السهولة عند أبى هلال شىء آخر غير الليونة ، فالكلام الذى يسهل حتى يصل إلى الرخاوة والانحلال ردىء مردود .^(١)

والكلام الجزل يبعث بعد السهل فى الرتبة ، والجزل فى رأيه هو الذى تعرفه العامة إذا سمعته ولا تستعمله فى محاوراتها . والفرق بين السهل والجزل على هذا أن السهل تفهمه العامة وتطمع فيه مع عجزها عنه ، أما الجزل فهو ما تفهمه العامة وشعر مع فهمها له أنها لا تقدر عليه . والجزالة عند أبى هلال شىء آخر غير الوعورة ، فهى الجمع بين القوة والسهولة ، كقول سعيد بن حميد :

”وأنا من لا يحاجك عن نفسه ، ولا يفاطك عن جرمه ، ولا ياتمس رضاك إلا من جهته ، ولا يستدعى برك إلا من طريقته ، ولا يستعطفك إلا بالإقرار بالذنب ، ولا يستميلك

إلا بالاعتراف بالجرم . نبت بى عنك غيرة الحداثة، وردتنى اليك الحنكة، وباعدتنى منك الثقة بالأيام ، وأدنتنى اليك الضرورة. فان رأيت أن تستقبل الصنيعة بقبول العذر، وتجتد النعمة بآطراج الحقد، فان قديم الحزمة وحديث التوبة يحقان ما بينهما من الإساءة، فان أيام القدرة وان طالت قصيرة، والمتعة بها وان كثرت قليلة، فعلت^(١) .

ومما هو أبجل من هذا قول الشعبي للحجاج وقد أراد قتله لخروجه عليه مع ابن الأشعث :
 ”أجذب بنا الجنب، وأحزن بنا المنزل، واستحلنا الحذر، واكتحلنا السمر، وأصابتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء، ولا بغيرة أقوياء“ فعفا عنه^(٢) .

ومع اهتمام أبى هلال باللفظ نراه ينص فى مكان آخر على أن المدار على إصابة المعنى ، وأن المعانى تحل من الكلام محل الأبدان ، والألفاظ تجرى معها مجرى الكسوة^(٣) . وهنا ينافى رأيه الأول، فضلا عن ضعف تشبيه المعانى بالأبدان والألفاظ بالأثواب ، وكان أولى لو شبه الألفاظ بالأجسام والمعانى بالأرواح . وفى رأيه أنه يجب أن يفرق بين المعنى والغرض، لأن ما جرى عليه أبو هلال وغيره من كتاب النقد والبيان يرتكز على وحدة البيت فى الشعر، وعلى وحدة الفاصلة فى النثر، مع أنه يجب التفكير فى وحدة الغرض الذى سيق من أجله الكلام، وبذلك ننقل النقد الى أفق أوسع، وتكون المعانى الجزئية وحدات تتكون منها الرسالة أو الخطبة أو القصيدة، كما ينظم العقد من حبات الجمان^(٤) .

وهناك أبواب فى كتاب الصناعتين تشعر بنفحات الأدب الجميل، وان لم تكن فى جملتها من مبتكرات أبى هلال . ففى باب الالتفات شواهد بديدة مسندة الى الأصمعى إذ قال :
 أتعرف التفاتات جرير؟ قلت : لا، قال :

أتنسى إذ تودعنا سليمى يعود بشامة؟ سقى البشام

(١) ص ٤٩ (٢) استحلنا الحذر : اتخذناه حلسا . والجلس بالكسر كساء على ظهر البعير تحت البرذعة ويسط فى البيت . (٣) ص ٤٩ (٤) ص ٥١ (٥) انظر الصفحات ٩٣ — ١٠٢ من كتاب (الموازنة بين الشعراء) .

ألا تراه مقبلا على شعره (لعل الصواب شأنه) ثم التفت الى البشام فدعا له ؟

وقوله :

طرب الحمام بذى الأراك فشاقتي ^(١) لازلت في علل وأيك ناظر ^(٢)

وفي باب الرجوع يمثل بقول القائل : ليس معك من العقل شيء ، بلى بمقدار ما يوجب
الجنة عليك . وقول الشاعر :

أليس قليلا نظرة أن نظرتها إليك ؟ وكلا ليس منك قليل ^(٣)

وفي تجاهل العارف يتخفنا بهذه القطعة النفيسة من ثره هو — طيب الله ثراه — إذ يقول
«سمعت بورود تكابك ، فاستغزني الفرح قبل رؤيته ، وحرز عطني المرح أمام مشاهدته ،
فما أدرى أستمع بورود تكاب ، أم ظفرت برجوع شباب ، ولم أدر ما رأيت : أخط مسطور ،
أم روض مطور ؟ وكلام منشور ، أم وشى منشور ؟ ولم أدر ما أبصرت في أشائه : أبيات
شعر ، أم عقود در ؟ ولم أدر ما حملته : أغيث حل بوادي ظمان ، أم غوث سيق الى لطفان» ^(٤)
وقد يلاحظ أن أبا حلال يغالى أحيانا في نقده ، فيؤاخذ مثلا أوس بن حجر في قوله :
ولست بخابئ أبدا طعاما حذار غده لكل غد طعام

لما تكر فيه من لفظ غد ^(٥) .

ونحن لا نطالب أبا حلال بأن يصيب في كل أحكامه ، فذلك مطلب عسير ، وإنما يكفي
أن نقول إن كتابه يضع القارئ في حركة فكرية متصلة . وأنا شخصيا مدين له ، فقد قرأته أكثر
من عشرين مرة ، وأشعر كلما عدت اليه بأنه كتاب جديد يُقرأ لأول مرة ، وذلك أقصى
ما يطلب من الكتاب النفيس .

(١) اللال ، بالتحريك ، انشرب بعد الشرب تبادا . (٢) ص ٣١٠ (٣) ص ٢١٣

(٤) ص ٣١٤ (٥) ص ٤١

١٠ - أبو على الحاتمي

١ - أبو على محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي من الشخصيات القوية التي غابت أخبارها عن الناس فلم يعرفها منهم إلا القليل : وسبب ذلك يرجع إلى أن جمهورنا لا يعرف من أعيان الشعر والنثر والنقد إلا من وصلت إليه من آثارهم صبايات كافية تميظ اللثام عن بعض الجوانب من أدبهم المجهول . ونحن من بين الأمم لا نعرف من أدبنا القديم إلا قليلا ، لأن نهضتنا الحديثة تشبه يقظة الخمر الذي ينظر حواليه فتراءى له صور وأشباح لا يميزها إلا بجهد شديد . من أجل ذلك قل عندنا من صحت عزيمته على النظر إلى أدب العرب بمثل ما ينظر الأوربيون إلى أدب اليونان والرومان . وسيرى القارئ في هذا الفصل بوارق من ذهن الحاتمي تشعره بأن من الخجل أن ينسى مثل هذا الرجل في عصر يزعم ناشئوه أنهم طلاب مجد وأنهم حريصون على وصل ما انقطع من تراثهم الفكري المجيد .

٢ - ألف أبو على الحاتمي عدة كتب في اللغة والأدب والنقد، منها حلية المحاضرة في صناعة الشعر ، والموضح في مساوي المتنبي ، والهلابة في صناعة الشعر ، وسر الصناعة في الشعر أيضا ، والحالي والعاطل في الشعر كذلك ، وكتاب المجاز في الشعر أيضا . وهذا الإلماح^(١) في الكتابة عن الشعر يدل على أنه كان من المولعين بدرس الشعر ونقده وأنه كان من أئمة زمانه في هذا الباب . وقد ضاعت كتبه النقدية مع الأسف الموجه ، ولم يبق منها إلا شواهد ضئيلة تذكر الحسرة في أنفس من يقدرون قيمة النقد الحق في دلالاته على ثقافة الذهن ، ومثانة العقل ، وسلامة الذوق ، وإفصاحه عن تطور الحياة العقلية في مختلف الأجيال .

ولنسارع فنقدم للقارئ كلمة حفظت في " زهر الآداب " تمثل فهم الحاتمي لوحدة

القصيد إذ يقول :

«مَثَلُ الْقَصِيدَةِ مَثَلُ الْإِنْسَانِ فِي اتِّصَالِ بَعْضِ أَعْضَائِهِ بِبَعْضٍ ، فَتَمَيَّزَ الْفَتَى بِاتِّصَالِ وَاحِدٍ عَنْ الْآخَرِ وَبَيَّنَّهٖ فِي صِحَّةِ التَّرَكِيبِ غَادِرَ الْجَسْمِ ذَا عَاطَةِ تُخْتَوْنَ مُحَاسِنُهُ ، وَتَعْنَى مُعَامَلُهُ . وَقَدْ وَجَدْتُ حَذَاقَ الْمُتَقَدِّمِينَ ، وَأَرْبَابَ الصَّنَاعَةِ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ ، يَحْتَرِسُونَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ احْتِرَاسًا يَجْنِبُهُمْ شَوَائِبَ النِّقْصَانِ ، وَيَقِفُ بِهِمْ عَلَى حُجَّةِ الْإِحْسَانِ ، حَتَّى يَقَعَ الْإِتِّصَالُ ، وَيُؤْمِنَ الْإِتِّصَالُ ، وَتَأْتِيَ الْقَصِيدَةُ فِي تَنَاسُبِ صُدُورِهَا وَأَعْجَازِهَا ، وَانْتِظَامِ نَسِيبِهَا بِمَدِيحِهَا ، كَالرَّسَالَةِ الْبَلِیْغَةِ وَالْخُطْبَةِ الْمَوْجِزَةِ لَا يَنْفَصِلُ جُزْءٌ مِنْهَا عَنْ جُزْءٍ . وَهَذَا مَذْهَبُ اخْتِصَاصِ الْمُحَدِّثِينَ لِنُوقَدِ خَوَاطِرَهُمْ ، وَلُطْفِ أَفْكَارِهِمْ ، وَاعْتِمَادِهِمُ الْبَدِيعَ وَأَفَانِيَّتِهِ فِي أَشْعَارِهِمْ ، وَكَأَنَّهُ مَذْهَبُ سَهْلَوَا حَزَنِهِ ، وَنَهَجُوا دَارِسَهُ . فَأَمَّا النِّحُولُ الْأَوَائِلُ وَمَنْ تَلَاهَمَ مِنَ الْمُخَضَّرِينَ وَالْإِسْلَامِيِّينَ فَمَذْهَبُهُمُ النَّعَامُ عَنْ كَذَا إِلَى كَذَا ، وَقَصَارَى كُلِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَصَفَ نَاقَتَهُ بِالْعَتَقِ وَالنَّجَابَةِ وَالنَّجَاءِ ، وَأَنَّهُ امْتَنَاطَاهَا فَادَّرَعَ عَلَيْهَا جِلْبَابَ اللَّيْلِ . وَرَبَّمَا اتَّفَقَ لِأَحَدِهِمْ مَعْنَى لَطِيفٌ يَتَخَلَّصُ بِهِ إِلَى غَرَضٍ لَمْ يَتَمَدَّدْ ، إِلَّا أَنْ طَبِيعَةُ السَّلِيمِ ، وَصِرَاطُهُ فِي الشَّعْرِ الْمُسْتَقِيمِ ، نَضًا بِنَارِهِ ، وَأَوْقَدَ بِالْبَقَاعِ نَارَهُ . فَمَنْ أَحْسَنَ تَخْلُصَ شَاعِرٍ إِلَى مَعْتَمَدِهِ قَوْلُ النَّابِغَةِ الذِّبْيَانِي :

فَكَفَكَفَتْ عَنِّي عِبْرَةٌ فَرَدَدْتُهَا	عَلَى النَّحْرِ مِنْهَا مَسْتَهْلٌ وَدَامُعٌ
عَلَى حِينَ عَاتَبْتَ الْمَشِيبَ عَلَى الصَّبَا	وَقُلْتَ أَلْمَا أَصَحَّ وَالشَّيْبَ وَازِعٌ
وَقَدْ حَالَ حَمٌّ دُونَ ذَلِكَ شَاغِلٌ	مَكَانَ الشَّغَافِ تَبْغِيهِ الْأَصَابِعُ
وَعِيدَ أَبِي قَابُوسَ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ	أَتَانِي وَدُونِي رَاكِسٌ فَالضُّوَاجِعُ

وَهَذَا كَلَامٌ مُتَنَاسِبٌ تَقْتَضِي أَوَائِلَهُ أَوَاخِرُهُ ، وَلَا يَتَيَّزُ مِنْهُ شَيْءٌ عَنْ شَيْءٍ . وَلَوْ تَوَصَّلَ إِلَى ذَلِكَ بَعْضُ السَّعْرَاءِ الْمُحَدِّثِينَ الَّذِينَ وَاصَلُوا تَفْتِيشَ الْمَعَانِي ، وَفَتَحُوا أَبْوَابَ الْبَدِيعِ ، وَاجْتَنَوْا ثَمَرِ الْآدَابِ ، وَفَتَحُوا زَهْرَ الْكَلَامِ ، لَكَانَ مُعْجَزًا عَجَبًا ، فَكَيْفَ يَجَاهِلُ بِدَوَى إِنَّمَا يَغْتَرَفُ مِنْ قَلْبِ قَلْبِهِ ، وَيَسْتَمَدُّ عَفْوً حَاجِسَهُ ^(١) .

أليس في هذه الفقرات دليل على أن الحاتمي كان بعيد الغور في نقد الشعر؟ ألا تسمو نظراته هذه الى أدق ما وصل اليه النقد في العصر الحديث؟ وأي تمثيل أصدق من تمثيل القصيدة بالإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض؟ يضاف الى ذلك جرأته في رمي الجاهليين ومن تلاهم من المخضرمين والإسلاميين بقلة الفهم لأسرار الصناعة، وقصر ذلك على المحدثين الذين توقدت خواطرهم ولطفت أفكارهم واعتمدوا أفانين البديع . وإنما عددنا ذلك جرأة لأن الرأي الغالب في تلك الأيام كان يميل الى تفضيل القدماء واختصاصهم بالإمامة في الشعر ورمي من عداهم بالتخلف والإسفاف . على أن الحاتمي لم يفته أن يقرر أن البدوى الجاهل قد يغترف من قلب قلبه ويستمدّ عفواً جسه فيأتى بالمعجز الذي يعزّ أحياناً على العارفين بأسرار البيان .

٣ - ولكن هذه البراعة التي يمثلها ما بقي للحاتمي من الشذرات القليلة لم ترتفع به كثيراً في الأوساط الأدبية لعصره ولم يتحدث عنه من معاصريه إلا القليل . فما تعليل ذلك؟ إننا نفترض أن نحول الحاتمي يرجع الى انصراف الناس عنه لصلفه وكبريائه وذهابه بنفسه الى أبعد غايات الزهو والخيلاء ، وقد حدثنا ياقوت أنه كان مبغضاً الى أهل العلم فهجّاه ابن الجراح وغيره بأحاج مرة . ولم يكن لهذا البغض من سبب فيما نفترض غير إسراف الحاتمي في العجب ودعواه التفرد بالحدق واللوزعية والذكاء . والحدقة من أخطر ما يُرْزأ به العلماء والأدباء وهي تجلب الى أصحابها من ألوان العداوة والبغضاء ما يذهب بما لهم من وطيد المجد وكريم الصيت . وقد يتفق لأهل العلم والأدب أن يُشغّلوا بالإعلان عن مواهبهم وكفاياتهم فيكون ذلك أسرع الى هدمهم وتهوين أقدارهم في أنفس الناس . وكيف لا يضيق الجمهور صدراً بحذقة الحاتمي وهو يقول عن نفسه في مقدمة كتاب وضعه في سر صناعة الشعر :

«وقد خدمت سيف الدولة — تجاوز الله عن فرطاته ! — وأنا ابن تسع عشرة سنة تميل بي سنة الصبا وتنفاد بي أريحية الشباب بهذا العلم ، وكان كلفاً به علقاً علاقة المغرم

بأجله ، متبعا عن أسرارهِ . وُوزِنَتْ في مجلسه تكمة وإدناء وتسوية في الرتبة — ولم تفسر خدائى عن عذريتهما — بأبى على الفارسي وهو فارس العربية وحائز قصب السبق فيها منذ أربعين سنة ، وبأبى عبد الله بن خالويه وكان له السهم الفائق في علوم العربية تصرفا في أنواعه ، وتوسعا في معرفة قواعده وأوضاعه ، وبأبى الطيب اللغوي وكان كما قيل حُتِفَ الكلمة الشرود حفظا وتيقظا ، ونازعت العلماء ومُدَحَّت في مصنفاتهم ، وعُدَّت في الأفراد الذين منهم أبو سعيد السيرافي وعلي بن عيسى الرمانى وأبو سعيد المعلى ، واتخذت بعضا ممن كان يقع الإيثار عليه سخرة ، وأما إذ ذاك غزير الغرارة ، تميذ بي أسرار السرور ، ويسرى على رخاء الاقبال ، وأختال في ملأه العز في بُلْهَيْنِيَّة من العيش وخفض من النعيم ، وخطوب الدهر راقدة وأيامه مساعدة .

فعلام يدل هذا الكلام ؟ ألا يدل على أن الحاتمي كان مفتونا بنفسه أشد الفتنة ، ومسرغا في الزهو أشنع الاسراف ؟ وقد نفهم أن يدافع الرجل عن نفسه فيذكر من مناقبه ومحامده ما يشاء حين يرى الجمهور يمجّد فضله ، ويطمس محاسنه ، ولكننا نعرف كذلك أن هذا لا يقع إلا من المشغوفين بالشهرة والصيت : لأنهم يتوهمون دائما أنهم مغبونون ، وأن الجمهور لفضلهم كنود .

٤ — وقد أصطدم كباراء الحاتمي بكبرياء المتنبي ، وكأنا متعاصرين يضرر كلاهما لصاحبه أقم ألوان البغضاء . والشاعر والناقد حين يختصمان يصلان الى أبشع صور التحامل والعنوان ، ولا سيما إذا أصطبغت الخصومة بصبغة سياسية ظاهرها التعصب للأدب وباطنها التحزب الشنيع . وهذا هو الذى وقع في خصومة الحاتمي للمتنبي : فقد كان الحاتمي صديقا أوتبعا للوزير المهلبى ، وكان المهلبى يبغض المتنبي بغضا شديدا لترفعه عن مدحه واتصاله بأنداده من الوزراء والرؤساء ، وكذلك تربص الحاتمي وانتظر قدوم المتنبي الى بغداد لينظره ويؤلب العامة عليه ويژهدهم في شعره ، فتم له من ذلك بعض ما أراد .

٥ — ترك الحاتمي رسالتين في نقد المتنبي : أولاهما خلاصة ما جرى في المجلس الذي تلافا فيه لأول مرة، وهى رسالة مغرضة بالطبع، لأنه تكلم وحده وقصّ ظروف المناظرة على هواه. ولكن ذلك لا يمنع من أن نصدق الحاتمي حين يذكر أنه ضايق المتنبي، لأننا نعرف أن كل ناقد أقوى من كل شاعر، لأن كل معول يؤثر في كل بناء، والناقد يستطيع كل شيء متى أستباح لنفسه الظلم واختلاق العيوب. والمتنبي كان رجلا واسع الشهرة، والمشاهير في الغالب جبناؤ: يتوهم أكثرهم أن سوء القالة يذهب بأجد الأعمال، ويأتى على أرفع الأقدار. وبعض هذا الوهم صواب.

ولترك الحاتمي يتحدث قليلا لئلا نرى خياله وقد قارع المتنبي :

« كان أبو الطيب المتنبي عند وروده مدينة السلام التحف رداء الكبير، وأذال ذيول التيه، وصعّر خده، ونأى بجانبه، وكان لا يلقى أحدا إلا نافضا مذرويه^(١) رافلا في التيه في برديه، يتخيل إليه أن العلم مقصور عليه، وأن الشعر بحر لم يغترف غير مائه غيره، وروض لم يرع نواره سواه، فدل بذلك مديدة... حتى تخيل أنه القريع الذى لا يقارع، والتزع الذى لا يجارى ولا ينازع، وأنه رب الغلب، ومالك القصب، وثقلت وطأته على أهل الأدب بمدينة السلام فظا طأ كثير منهم رأسه، وخفض جناحه، وطامن على التسليم له جأشه، تخيل أبو محمد المهلبى أن أحدا لا يقدر على مساجلته ومجاراته ولا يقوم لتبعه بشيء من مطاعنه. وساء معز الدولة أن يرد عن حضرة عدوه رجل فلا يكون في مملكته أحد يأنثله في صناعته ويساويه في منزلته، نهدت حينئذ متبعا عواره، ومتعقبا آثاره، ومطفيا ناره، ومهتكا أسرارته، ومقلما أظفاره، وناشرا لمطاويه، وممزقا جلباب مساويه... الخ^(٢) ».

والرسالة تقع في أربع عشرة صفحة كلها مقارعة ونضال، وهى تمثل طريقة الحاتمي في الكتابة ومذهبه في النقد، وفيها فقرات قوية، كقوله يجب المتنبي وقد سأله عن خبره

(١) المذروران بالكسر أطراف الآلية، بلا واحد، أو هو المذرى، ومن الرأس ناحيته، ومن القوس ما يقع عليها طرف الوتر من أعلى وأسفل. وجاء ينفض مذرويه بأغيا متهددا (قاموس).

(٢) ياقوت ج ٦ ص ٥٦٥ وقد وردت القصة أيضا في وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٣٢ باختلاف قليل.

في تناقل وفتور : ”أنا بخير، لولا ما جئيت على نفسي من قصدك ، وكلفت قدمي في المسير الى مثلك“^(١) ونقدات الحاتمي في هذا المجلس لا تخرج عن أخذ المتنبي بالسرققات الشعرية وسوء التعبير في طائفة من الأبيات اشتهر أمرها بين الناقدين . وقد ختمت هذه الرسالة بنقرات تفصح عن سرور المهلبي ومعز الدولة بهزيمة المتنبي ؛ وهي كذلك دليل ما وصفنا به الحاتمي من الإسراف في التيه والخيلاء .

٦ — أما الرسالة الثانية فهي أعظم أثر وصلنا عن الحاتمي ، وهي رسالة ردّ فيها حكم المتنبي الى أصولها من كلام أرسططاليس ، وقد وضع لها مقدّمة صغيرة أراد أن يشعرنا بها أنه في نقده عفّ نزيه إذ حدّثنا أنه يدافع عن المتنبي ”حين اتهم بسرقة ما في شعره من أغراض فلسفية ومعانٍ منطقية“^(٢) لأن ذلك إن كان وقع من المتنبي ”عن فحس ونظر وبحث فقد أغرق في درس العلوم ، وإن يكن ذلك منه على سبيل الاتفاق فقد زاد على الفلاسفة بالإيجاز والبلاغة“^(٣) وهو في الحالين على غاية من الفضل ، ونهاية من النبل .

وقد رأيت بعد الاطلاع على هذه (الرسالة الحاتمية) أن صاحبنا نال من المتنبي باللفظ ما لم يناله بالعنف ، فقد أخذ يسرد كلمات أرسططاليس ثم يعتبها بشعر المتنبي ، فاستطاع بذلك أن يفضح المتنبي فضيحة شنعاء . وفي الحق أن هذا العمل كان غاية في اللؤم من جانب الحاتمي ، لأن حكم المتنبي تبدو فطرية لأوّل وهلة ، وذلك سرّ سحرها في أنفس القراء ، ولكنها تبدو متكلفة مصنوعة حين تُقرن الى ما نقلت عنه من كلام أرسططاليس ، وذلك سهم من النقد مسموم .

ومن أمثلة ذلك أن يقول المتنبي :

فان قليل الحب بالعقل صالح وإن كثير الحب بالجهل فاسدُ

وهو بيت مقبول ، ولكنه أقل قيمة من الحكمة التي أخذ عنها في قول أرسططاليس ”يسير من ضياء الحس خير من كثير من حفظ الحكمة“^(٣) .

وقول المتنبي :

يراد من القلب نسيانكم وتأني الطباع على الناقل
يبدو للقارئ متنافر المعنى بعض الشيء ، ثم يفضح تنافره حين يُنظر الى أصله في قول
أرسططاليس ” روم نقل الطباع من ردئ الأطلاع شديد الامتناع “^(١) .

وقول المتنبي :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراحلون هم
أقل عمقا من قول أرسططاليس :
” من لم يردك لنفسه فهو التأي عنك وإن كنت قريبا منه ، ومن يردك لنفسك فأنت
قريب منه وإن تباعدت عنه “^(٢) .

وقول المتنبي :

لعل عتبك مجود عواقبه فر بما صحت الأجسام بالعلل
أقل وضوحا من قول أرسططاليس :
” وقد يفسد العضو لصلاح أعضائه كالكي والفصد للذين يفسدان الأعضاء لصلاح غيرها “^(٣)
وقول المتنبي :

وما التيه طبي فيهمو غير أني بغيض الى الجاهل المتعافل
أقل تعليلا من قول أرسططاليس :
” إن الحكيم تريه الحكمة أن فوق علمه علما فهو يتواضع لتلك الزيادة ، والجاهل يظن أنه
قد تنهى فيسقط بجهله فتمتته النفوس “^(٤) .

وقول المتنبي :

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذى فعل الفقر
منقول من قول أرسططاليس :

” من أفنى مدته في جمع المال خوف العدم فقد أسلم نفسه للعدم “^(٤) .

والرسالة الحاتمية تقع في خمس عشرة صفحة نقد بها مؤلفها نحو عشرين ومائة بيت من شعر المتنبي، وحى كما أشرنا طعنة نجلاء يهون يجانبها كل ما لقي المتنبي من خصومه المسرفين .
٧ - ولكن لا يتوهم القارئ أن الحاتمي أصاب في كل ما رمى به المتنبي من سرقة معاني أرسططاليس، فقد يتفق الرجلان أحيانا في المعنى وينفرد المتنبي بجمال الصورة .

فقول المتنبي :

إذا أعناد الفتى خوض المنايا فأهون ما يمر به الوحولُ

أروع بلا جدال من قول أرسططاليس :
”من استمرت عليه الحوادث لم يَألم بحلولها“^(١) .

وقول المتنبي :

إنعم ولَدٌ فلأُمور أوانحُرُ أبدا كما كانت لهن أوائلُ

معنى عادى : فلا قيمة للادعاء بأنه مسروق من قول أرسططاليس :
”كل ما له أول تدعو الضرورة إلى أن له آخر“^(٢) .

وقول المتنبي :

نحن بنو الموتى ، فما بالنا نعاف ما لا بد من شره

أفعل في النفس من قول أرسططاليس :
”كره ما لا بد من كونه عجز في صحة العقل“^(٣) .

٨ - ولنا أن نأخذ على الحاتمي وقوفه عند أرسططاليس، كأن المتنبي لم يعرف فيلسوفا سواه، وهذا يشعر بأن أرسططاليس كان معروفا جدا عند العرب لذلك العهد، حتى أستطاع الحاتمي أن يرجع إليه طائفة كبيرة من حكم المتنبي، ويشعر كذلك بأن الشعراء كانوا يتصرفون فيما يقرءون تصرف الخبرة والعقل، فقد نظر المتنبي إلى قول أرسططاليس : ”ليس جمال الإنسان بنافع له إذا كان ميت الحس من العلم“ .

ثم أداره في نفسه وما زال به حتى أغرقه في بلعة من الشرحين قال :

لا يعجبني مضيّا حسن بزّته وهل يروق دفيناً جودة الكفن

٩ — ولنا أن نلاحظ أن الرسالة الثانية للحاتمي أوفر أدبا من رسالته الأولى عن المتنبي ، وقد يكون السبب في ذلك أنها كتبت بعد موت الشاعر : بدليل قوله في أول المراجعة " قال المتنبي رحمه الله ! " .

ولنا أن نلاحظ كذلك أن الحاتمي كتب رسالته الثانية وقد اكتمل وغلب عليه الوقار وفارقه التزق الذي ساد في رسالته الأولى ، وحسبنا أن نقرأ قوله في مقدمة الرسالة الثانية :
"أما بعد فإن أحق ما آحتكت إليه نفوس أولى النظر، وانقادت إليه آراء أهل الفكر ، وجلت الشبه عنه نواظر المتصفحين ، وأمضت به عزائمها قلوب المعبرين : العدل ، فانه سنخ^(١) العقل ، وحليف النهى ، وصنو الفهم ، وعدو الهوى " .

١٠ — هذا وكان الحاتمي متين الشعر، كما كان رصين النثر، وهو الذي يقول :

لى حبيب لو قيل لى ما تمنى ما تعديته ولو بالمنون

أشهى أن أحلّ فى كل جسم فأراه يلحظ تلك العيون

وهو القائل فى قصر الليل :

يارب ليل سرور خلته قصرا كعارض البرق فى أفق الدجى برقاً

قد كاد يعثر أولاه بآخره وكاد يسبق منه بخره الشفقا

وهو القائل فى وصف الثريا :

وليل أقنأ فيه نعمل كأسنا إلى أن بدا للصبح فى الليل عسكراً

ونجم الثريا فى السماء كأنه على حلة زرقاء جيب مدنراً

ومات رحمه الله سنة ٣٨٨ وكان أبوه كذلك شاعراً أثبت له صاحب اليتيمه عدة

مقطوعات فليرجع إليها القارئ هناك^(٢) .

١١ - أبو عبد الله المرزباني

١ - المرزباني هو أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى بن سعيد . وأصله من نخراسان - كما ذكر ابن التديم^(١) - وهو من بيت رياسة ومجد : فقد كان أبوه نائب صاحب نخراسان بالباب ببغداد . وقد نسب الى بعض أجداده وكان اسمه المرزبان . وهو اسم لا يطلق عند العجم إلا على الرجل المقتدر : العظيم القدر . ومعناه بالعربية حافظ الحد^(٢) .

ولد في بغداد سنة ٢٩٧ وتوفي سنة ٣٨٤ وقيل سنة ٣٧٨

وليس لدينا من أخبار المرزباني إلا تُتف يسيرة، وأظهر أخباره أنه كان رجلا غنيا كريما يُفضل على أساتذته وتلاميذه، وكانت داره مأوى لأهل العلم والأدب يبيتون فيها على الرحب والسعة حين يشاءون . ولم يكن يؤخذ عليه من الحفوات إلا إدمان الشراب . وكان من عادته في ذلك أن يضع بين يديه زجاجة حبر وزجاجة نمر فلا يزال يشرب ويكتب وهو مقسم الفكر والاحساس بين الواقع والخيال . وقد شعر رحمه الله بخطور ذلك على عقله وصحته وظهر أثر تملله حين سألته عضد الدولة مرة عن حاله فقد أجاب « كيف حال من هو بين قارورتين؟! » يعني قارورة الحبر وقارورة الخمر .

٢ - وكان في حياته العقلية يؤثر مذهب المعتزلة : فقد صنف في أخبارهم كتابا كبيرا . وكان المعتزلة في تلك الأيام يقودون الحركة الفكرية والأدبية في الأقطار الإسلامية . وقد أخذ عليه سامحه الله شيء من التسامح في رواية الحديث .

وكان في جملة حاله معروفا بصدق اللهجة وسعة المعرفة وكثرة السماع . وكان معاصروه يرونه من محاسن الدنيا، ومنهم من يقدمه على الجاحظ . ولعل ذلك هو السبب في تحامل بعض المغرضين عليه كأبي حيان التوحيدى الذى كان يقارنه بابن شاذان وابن الخلال ، ممن كان

لهم جمع ورواية وليس لهم فيما جمعه نقط ولا إعجام ولا إسراج ولا إلحام^(١). ولوبقيت كتب المرزبانى كلها أوجلتها لاستطعننا أن نزن ما كان له من فكر وعقل وأسلوب، ولكن أكثرها ضاع ولم يبق منها إلا النزر القليل. غير أننا نجد ابن النديم مفتونا به أشد الفتون. وابن النديم حجة في تقدير المصنفين والكتّاب والأخباريين، وقد حدثنا أنه رأى كتاب المرزبانى عن الشعراء المشهورين والمكثرين من شعراء المحدثين. وقد أثبت في هذا الكتاب مختار أشعارهم وبيّن أنسابهم وأزمانهم. وأن له كتاباً آخر اسمه «المفيد» يشتمل الفصل الأول منه على أخبار المقلين من شعراء الجاهلية والاسلام وأخبار من غلبت عليه كنية منهم أو شهر بكنية ابنه أو عُرف بأمه أو نسب إلى جدّه أو عزى إلى مواليه وما جانس هذه الأحوال. ويشتمل الفصل الثانى على ما روى من نعوت الشعراء وعيوبهم فى أجسامهم وصورهم كالسودان، والعور، والعميان والعمش والبرصان، وسائر ما يؤثّر فى الجسد من شعر الرأس إلى القدمين عضو عضواً. ويشتمل الفصل الثالث على مذاهب الشعراء فى دياناتهم كالشيعة وأهل الكلام والخوارج والمتهمين واليهود والنصارى ومن جرى مجراهم. ويشتمل الفصل الأخير على من ترك قول الشعر فى الجاهلية تكبراً وفى الاسلام تديناً، ومن ترك المديح ترفعاً، والهجاء تكراً، والغزل تعففاً، ومن أنفذ شعره فى معنى واحد كالسيد بن محمد الحميرى والعباس ابن الأحنف ومن جرى مجراهما. وله كتاب آخر اسمه «الرياض» ذكر فيه أخبار المتيمنين من الشعراء الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين وفيه ذكر الحب وما يتشعب عنه وذكر ابتدائه وآتمائه وما ذكر أهل اللغة من أسمائه وأجناسه واشتقاق تلك الأسماء بشواهد من أشعار الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين والمحدثين.

٣ - وليس المهم أن نلخص وصف ابن النديم لمؤلفات المرزبانى فى مقدور القارئ أن يرجع إليه فى الفهرست^(٢)، ولكن يهمنى أن نشير إلى أن مجموعة مؤلفات المرزبانى تدور حول نقطة واحدة هى تنظيم الثقافة الأدبية.

فقد عني الرجل بأن يجمع أخبار الشعراء ويرتبها ترتيباً قد يعجز عنه أدباء اليوم فيضع لباحلين كتاباً، وللمحدثين كتاباً، وعني كذلك بأن يضع مؤلفات مستقلة في أكثر الشؤون الأدبية ككتابه عما وصف به العرب الصيف والشتاء والحر والبرد والغيوم والبروق والرياح والأمطار والرواء والاستسقاء وما دخل في جملتها من أوصاف الربيع والخريف، وكتبه عن الزهد والزهاد والنجابة والنجاب والعدل والسيرة وأخبار الأولاد والزوجات والأهل وما جاء فيهم من مدح وذم، وكتابه عن الأنوار والثمار الذي ساق فيه طرفاً مما قيل في الورد والزرجس وجميع الأنوار من الأشعار وما جاء فيها من الآثار والأخبار. وكتابه في نسخ العهود إلى القضاة وكتابه عن أشعار النساء، الخ.

ومن المدهش أنه ألف كتاباً في أخبار الشعراء سماه "المعجم" تحدث فيه عن نحو خمسة آلاف شاعر وأثبت فيه أبياتاً لكل من تحدث عنهم من الشعراء. فمن الذي يعرف اليوم هذا المقدار من أسماء الشعراء مع أننا اجتزنا من تاريخ الأدب نحو خمسة عشر قرناً وكان المرزبانى لم ييتم منه غير خمسة قرون؟

ومما يوضح ما أشرنا إليه من عناية ذلك الرجل بتنظيم الثقافة الأدبية أنه كان ألف كتاباً سماه "تلقيح العقول" في أكثر من مائة باب جمع فيه كل ما يهم المتأدين الاطلاع عليه مما قيل عن العلم والعقل والأدب وما جانس ذلك^(١).

٤ — ولم يطبع من مؤلفات المرزبانى — فيما علمنا — غير كتاب الموشح الذي نشرته جمعية نشر الكتب العربية بالقاهرة سنة ١٣٤٣ هـ وهو كتاب جيد حدثنا المؤلف في مقدمته أنه اهتم بذلك ما أنكر على الشعراء في أشعارهم من العيوب التي سبيل أهل عصره ومن بعدهم أن يجتنبوها ويعدلوا عنها. وأنه أودع كتابه ما سهل وجوده وقرب متناوله من ذكر عيوب الشعراء التي نبه عليها أهل العلم وأوضحوا الغلط فيها من اللحن والسناد والإيطاء والإقواء والإكفاء والتضمين والكسر والإحالة والتناقض واختلاف اللفظ وهلهلة النسخ وغير ذلك من سائر ما عيب على الشعراء قديهم ومحدثهم في أشعارهم خاصة، سوى عيوبهم في أنفسهم وأجسامهم

وأخلاقهم وطبائعهم وأنسابهم ودياناتهم، وغير هذه الخصال من معاييرهم التي استقصاها في كتابه الملقب "بالمفيد"، وسوى سرقات معاني الشعر التي أتى بكثير منها في كتابه الذي تحدث فيه عن فضائل الشعر ووصف محاسنه ومنافعه ومضاره وأوزانه وعيوبه ونعت أجناسه وضروبه وعروضه وأعيانه ومختاره وتأديب قائله ومنشديه والبيان عن منحوه ومسروقه، وما يتصل بذلك من مختلف الأغراض^(١).

٥ — وقد راجعنا كتاب الموشح عدة مرات فلم نظفر للؤلؤ بما يميزه عن غيره من مصنفى الروايات والأخبار. وإن كنا نعترف بأن الرجل أجاد الجمع والتصنيف وقدم للقارئ معارض مختلفة مما أخذ على الشعراء. وأكثر ما أثبتته لا نجد اليوم في غير كتابه. وإن كنا نعثر على أصوله مبعثرة هنا وهناك. فأت حين تطلع على كتاب الموشح ترى مواد معرفية لك مستأنسة إليك بطول ما صادقته في شتى المطالعات. ولكنك لو أردت أن تظفر بمجموعة ما قاله النقد القدماء عن الأخطل أو جرير مثلا لما استطعت أن تجد لها منظمة على نحو ما تجدها في هذا الكتاب. على أن المؤلف كثيرا ما تظهر شخصيته فيعرف رأيه ومذهبه في النقد كقوله مثلا في نقد قول الطائي :

وقد سدد مندوحة القاصعا ء منهم وأمسك بالناقعا

"ولم نعب من هذه الألفاظ شيئا غير أنها من الغريب المصدود عنه. وليس يحسن من المحدثين استعمالها : لأنها لا تتجاوز بأمثالها ولا تتبع أشكالها. فكانها تشكو الغربة في كلامهم^(٢)". ومعنى هذا أن الغريب الوحشي قد يحسن استعماله إذا أطرده في كلام متأدب غريب. أما في الكلام السلس فاستعماله غير مقبول. وهو يوافق بعض الموافقة ما يراه الجاحظ من أن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس كما يفهم السوق رطانة السوق. والتفاهم عند المرزباني والجاحظ هو الأساس في اختيار الألفاظ، إذ كان الناس لا يقبلون الألفاظ أو يرفضونها إلا موصولة بما يألون.

٦ — ولا يخلو المرزباني — على فضله — من تحامل : فقد رأيتَه يغض من قيمة مختارات أبي تمام إذ يقول :

”وللطائي سرقات كثيرة أحسن في بعضها وأخطأ في بعضها . ولما نظرت في الكتاب الذي ألفه في اختيار الأشعار وجدته قد طوى أكثر احسان الشعراء . وإنما سرق بعض ذلك فطوى ذكره وجعل بعضه عدّة يرجع إليها في وقت حاجته ورجاء أن يترك أهل المذاكرة أصول أشعارهم على وجوهها ويقنعوا باختياره لم فتعجب عليهم سرقاته . ولا يعذر الشاعر في سرقاته حتى يزيد في إضاعة المعنى ، أو يأتي بأجل من الكلام الأول ، أو يسمح له بذلك معنى يفضح به ما يتقدمه ولا يفتضح به ، وينظر إلى ما قصده نظر مستغن عنه لافقير إليه“^(١) .

ففي هذه الفقرة تجنّ شديد على أبي تمام وإزراء بإحسانه في تأليف مختاراته . وما أحسب الخاطر الذي مر ببال المرزباني مر ببال ناقد شريف القصد . فهو يرى أن أبا تمام قصر اختياره على الأشعار التي لم يسرق منها ، وأنه طوى الأشعار التي يرجو أن يغير عليها . وأنه أراد أن يصرف المتأدين بمختاراته عن الرجوع إلى الأصول التي سرق منها ما استُجيد من شعره ...

ولا أدري كيف يصح هذا من المرزباني إلا أن أرجّح أنه كان من خصوم أبي تمام . وقد كان أبو تمام ابتلى في حياته وبعد مماته بمعارضة شديدة كادت تقتلع مجده من جذوره وترى به في هاوية العفاء . وسبب ذلك أن أبا تمام ظفر بشهرة قوية أنحلت مئات الشعراء والشهرة القوية تخاق الخصوم خلقا وترى صاحبها بعداوات مسمومة لم يجترح في خلقها إثما ولا جناية ، حتى صم للرزباني على نزاهته أن يتهمة بسوء النية في تأليف المختارات مع أن في الحماسة بابين لم نجد لهما أمثيلا في مجموعة أدبية وهما باب المراثي و باب النسيب .

٧ — ويغلب على المرزباني أن يسوق المآخذ بدون أن يتعقبها بنقد أو تمحيص ، وأحيانا يضيف إليها كلمة صغيرة تعين رأيه . من ذلك أنه نقل الكلمة الآتية بسندها عن بعض معاصريه :

”دخلت على أبي تمام الطائي وقد عمل شعرا لم أسمع أحسن منه وفي الأبيات بيت واحد ليس كسائرهما . فعلم أني قد وقفت على البيت فقلت : لو أسقطت هذا البيت ! فضحك وقال : أترك أعلم بهذا مني ؟ إنما مثل هذا مثل رجل له بنون جماعة كلهم أديب جميل متقدم ومنهم واحد قبيح متخلف فهو يعرف أمره ويرى مكانه ولا يشتمى أن يموت . ولهذه العلة ما وقع مثل هذا في أشعار الناس“^(١) .

ونقل بعد ذلك هذه الكلمة . ”قال متقال الشاعر : قلت لأبي تمام تقول الشعر الجيد ثم تقول البيت الرديء ! فقال : مثل هذا مثل رجل له عشرة بنين منهم واحد أعمى فلا يجب أن يموت“ وفي التعقيب على هاتين الفقرتين يكتفى المرزباني بأن يقول . ”وهذه حجة ضعيفة جدا“^(١) .

وأحيانا قليلة يبسط القول بعض الشيء في النقد والمقابلة كما فعل في نقد قول امرئ القيس :

ألا أيها الليل الطويل ألا أنجل بصبح وما الإصباح منك بأمثل

فقد بين أن أفضل منه قول الطرماح بن حكيم :

بل إن للعنين في الصبح راحة لطرهما طرفيها كل مطرح

ثم قال ”فأحسن في قوله وأجمل وأتى بحق لا يدفع ، وبين عن الفرق بين ليله ونهاره ، وإنما أجمع الشعراء على ذلك — أي حضور الهم بالليل وذهابه بالنهار — من تضاعف بلائهم بالليل وشدة كلفهم لقلّة المساعد وفقد المحيبي وتقيد اللّحظ عن أقصى مرامي النظر الذي لا بد أن يؤدي إلى القلب بتأمله سببا يخفف عنه أو يغلب عليه فينسى ما سواه“^(٢) . وللرزباني ملاحظات صغيرة متفرقة قد لا يتنبه إليها القارئ المتصفح ويستجدها المتأمل كقوله في التعقيب على قول أبي العتاهية :

حلاوة عيشك ممزوجة فما تأكل الشهد إلا بسم

فالمعنى صحيح لأن الشاعر جعله مثلاً لبؤس الدنيا الممازج لنعيمها . ولكن يلاحظ المرزباني أن العبارة غير مرضية : لأننا لم نر أحداً أكل شهداً بسم . وأجود من هذا البيت لفظاً وأصح معنى قول ابن الرومي :

وهل خُلة معسولة الطعم تجتنى من البيض إلا حيث وإش يكيدها
مع الواصل الواشي وهل تجتنى يد جنى النحل إلا حيث نحل يزودها^(١)

وتلك ملاحظته دقيقة وهي تذكر بما نقله عن أحد معاصريه وقد سأل أبا تمام : أخبرني عن قولك :

كَانَ بَنِي نِهْانَ يَوْمَ وَفَاتِهِ نَجُومُ سَمَاءِ نَحْرٍ مِنْ بَيْنِهَا الْبَدْرُ

أردت أن تصف حسن حالهم بعده أو سوء حالهم ؟ فأجاب أبو تمام : لا والله إلا سوء حالهم لأن قمرهم قد ذهب . فقال المعارض : والله ما تكون الكواكب أحسن ما تكون إلا إذا لم يكن معها قمر^(٢) .

٨ — وقد أشار المرزباني في غير موضع إلى وحدة البيت فقد تحدث عما أخذ على امرئ القيس في قوله يصف الليل :

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل

ألا أيها الليل الطويل ألا انجل بصبح وما الإصباح منك بأمثل

فانه لم يشرح ما أراد بالبيت الأول إلا في البيت الثاني . وهذا عيب عند العرب لأن خير الشعر ما لم يحتاج البيت منه إلى بيت آخر . وخير الأبيات ما استغنى بعض أجزائه ببعض إلى وصول القافية كقول الشاعر :

الله أنجح ما طلبت به والبر خير حقيقة الرجل

فان قوله (الله أنجح ما طلبت به) كلام مستغن بنفسه وكذلك باقي البيت . على أن في هذا البيت واو عطف عطفت جملة على جملة وما ليس فيه واو عطف أبلغ . وأجود من هذا قول النابغة الذبياني في اعتذاره إلى النعمان :

ولست بمستيق أخا لا تلمه على شعث، أى الرجال المهذب

فكلامه فى أول البيت مستغن بنفسه وكذلك آخره حتى لو ابتدأ مبتدئ فقال (أى الرجال المهذب) لا اعتذار أو غيره لأتى بكلام مستوف لا يحتاج إلى سواء .

وقد أشار الجاحظ فى بعض كتبه إلى هذه المسئلة . ومن الخير أن ننبه القارئ إلى أن وحدة البيت لا تنافى وحدة القصيدة ، وإن ظن ناس غير ذلك ، فإن الوحدة فى البيت يراد بها اتساق النغم والألحان بحيث يصح الوقف فى نهاية كل بيت ، ولهذا قيمة فى الرنة الموسيقية التى يحرص عليها شعراء العرب أشد الحرص . أما وحدة القصيدة فيراد بها وحدة الغرض ، وذلك أن يقدر الشاعر لنفسه صورة شعرية يرسمها رويدا رويدا فى نظام وانسجام إلى أن يتمها بتمام القصيدة .

ولأجل أن نبين للقارئ أن وحدة البيت ضرورية جدا لحفظ الموسيقى الشعرية ننقل له قطعة لأبى العتاهية خلت من وحدة البيت على نحو ما يتخلو منها الشعر الفرنسى مثلا ، ولنتأمل كيف يقول :

يا ذا الذى فى الحب يلجى أما	والله لو كلفت منه كما
كلفت من حب رقيم لما	لمت على الحب فذرني وما
ألقى فأنى لست أدرى بما	بليت إلا أننى بينما
أنا بباب القصر فى بعض ما	أطوف فى قصرهم إذ رمى
قلبي غزال بسهام فما	أخطأها قلبي ، ولكنما
سهماه عينان له كلما	أراد قتلى بهما سلما

وهذا النوع من الشعر كان يسميه القدماء "المضمن" وهو عندهم من الشعر المعيب . لأن خير الشعر فى حكمهم ما قام بنفسه وكفى بعضه دون بعض . ولا نزال نحن نتبع أسلافنا فيما اطمأنوا إليه من خصائص القوافى والأوزان لأن للإلف أثرا شديدا فى تكوين الذوق . والشعر من الفنون التى تحكم فى قدرها الأذواق .

٩ - وفي الموشح عبارات نقسديه تكاد تبلغ الغاية في دقة الوصف وليتأمل القارئ ما نقله المؤلف في تحديد الشعر الجيد عن محمد بن يزيد النحوي :

” أحسن الشعر ما قارب فيه القائل اذا شبه . وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة ونبه فيه بقطنته على ما يخفى على غيره وساقه برصف قوى واختصار قريب وعدل فيه عن الإفراط^(١)“.

وهذا كلام دقيق وإن كنا لا نوافق ابن يزيد في استهجانه قول بعضهم في النحافة :

فلو أن ما أبقيت منى معلق . يعود ثمّام ما تأود عودها

وقال الآخر يصف سرمة ناقته :

* ويمنعها من أن تطير زمامها *

لأن في الإزراء بمثل هذه الأخيلة إزراء بمواهب الذكاء . فهناك أخيلة شعرية تجافى الحقائق في كثير من الأحيان . ولكنها تظل مع ذلك مقبولة يهش لها الذوق لدلالاتها على ماؤهب الشاعر من بارع الذكاء .

وقد استنكر النقاد قول المتنبي :

كفى بجسمي نحولا أننى رجل لسولا مخاطبتي إياك لم ترى

وعدوه غلوا غير مقبول مع أننا قد نستطيع قول بعض المولّدين :

عادنى ممرضى فلم ير منى فوق فرش السقام شيئا يراه

قال لى أين أنت قلت التمنى فبكى حين لم تجدنى يداه

ولسنا نستطيع هذا لصحة معناه وإنما نستطيعه للصورة التي قدّمها الشاعر في وصف

آثار النحول .

١٠ - والمرزباني يهتم بتقييد ما يؤثر عن أخلاق الشعراء وتظهر في ثنايا كلامه نزعة

الحقد على المشاهير وإن اجتهد في إخفاء ذلك وحاول أن يصبغ كلامه بصبغة البحث الصرف فقد حدّثنا أن أهاجى البحرى للخلفاء والملوك أشبه بهجاء سفلة الناس ورعاعهم وأنها تجمع بين

سخافة اللفظ وهلهة النسيج والبعد من الصواب ، وأنه قد هجانحوا من أربعين رئيساً من مدحهم منهم خليفتان : هما المنتصر والمستعين . وساق بعدهما الوزراء ورؤساء القواد ومن جرى مجراهم من أعظم الكتاب والكبراء بعد أن مدحهم وأخذ جوائزهم ، وأن حاله في ذلك تنبيء عن سوء العهد وخبث الطوية ، وأنه نقل نحواً من عشرين قصيدة من مدائحه لجماعة توفروا حظه منهم عليها إلى مدح غيرهم وأما أسماء من مدحهم أولاً مع سعة ذرعه بقول الشعر واقتداره على التوسع فيه .

ويقول المرزباني في التعقيب على هذه المثالب :

”ولم أذكر حاله في ذلك على طريق التحامل مع اعتقادي فضله وتقديمه ولكني أحببت أن أبين أمره لمن لعله استر عنه وحسبنا الله ونعم الوكيل“^(١) .

وظاهر هذه الكلمة نزيه . ولكنها تمثل شهوة خفية طالما التبس أمرها على الناقدين . على أن المرزباني مشكور على أي حال : فمن أمثال هذه الحفوات تنكشف جوانب من النفس الإنسانية . والناقد مسئول عن كشف ما يتعذر كشفه على الجمهور من أخلاق الشعراء والكتاب والباحثين .

ومن يدري ! فلفل الناس يعيشون في رذائلهم أضعاف ما يعيشون في فضائلهم ، ولست أريد بهذا كمية الحياة ، وإنما أريد روحها وسرها ، فإن النفس لا تجانب الجادة السوية إلا وهي نائرة . والنفس في لحظات الثورة تحيا حيوات طويلة قوية يصغر بجانبها ما تقضيه في هدوء ووقار من طوال السنين . ولو أن المرزباني قدر أنه قد ينجى من رجال الأخلاق من يعلل حفوات البحترى بمثل ما عللنا لرأى أنه ليس مما يشفى النفس أن يبين أمر البحترى لمن لعله استر عنه ! وما الذي كان يقع لو ظلت صغائر البحترى مستورة وظفر بلسان صدق في الآخرين ؟

١١ — هذا وقد كنا نحب أن نطيل القول في نقد ما اشتمل عليه كتاب الموضح ، وخاصة ما وقع بين شعراء العصر العباسي وبين رجال اللغة كالأصمعي وابن الأعرابي ، فإن ذلك

يمثل النزاع بين القديم والحديث ، وتلك إحدى المشاكل التي تتجدد على اختلاف العصور .

وفيما رواه المرزباني طائفة من الطرف والفكاهات كانت تحسن روايتها في هذا الكتاب ، ولما نرى الاكتفاء بما أسلفناه راجين أن يكون فيه كشف عن منهج المرزباني في إحياء الثقافة الأدبية ، ونشر ما تداوله الناقدون من حقوات الشعراء .
والموثق مطبوع يستطيع الرجوع اليه من يريد المزيد ^(١) .

(١) من أطرف ما نقل المرزباني من أخبار النزاع بين الباقين والشعراء ما جاء في ص ٢٩٦
«حدث العباس بن ميمون قال : سمعت الأصمعي يقول : «حضرنا مأدبة وأبو محرز خلف الأحمر وابن منذر معنا فقال له ابن منذر : يا أبا محرز ! إن يكن امرؤ القيس والتابعية وزهير ماتوا فهذه أشعارهم مخلدة ، فقص شعري الى أشعارهم : قال : فأخذ صحيفة مملوءة مرقا فرمى بها عليه !»

الباب الخامس

كتاب الأئمة والملاهيبة

١ - أبو حيان التوحيدي

١ - لست اعدو الحق إذا قلت : إن الأدب العالى لا يقع إلا متأثرا بعاطفتين اثنتين :
الحب أو الحقد . ولن نجد فى تاريخ الاداب العربية كاتباً مجيداً أو شاعراً بليغاً أو خطيباً
منطقياً خلت نفسه من رقة الحب ، أو قسوة البغض . فالسرفى عبقرية البحترى مثلاً يرجع
إلى قوة شغفه بمعالم الجمال ، كما أن السرفى عبقرية ابن الرومى يرجع إلى تطيره وحققه
على من عرف ومن لم يعرف من سعداء الناس . وكذلك يعود السرفى تفوق عبد الحميد
ابن يحيى إلى مروءته ونبلى نفسه وعطفه على فقراء الكتاب ، كما يعود الفضل فى فصاحة الحجاج
إلى ما كان يضطرم فى صدره من نيران الحقد والضغينة والبغض والموجدة على الثائرين من
أهل العراق .

وأبو حيان التوحيدي الذى نريد أن نفيض فى الحديث عنه رجل خلقته البأساء ، وأنشأه
الحقد على الموهوبين من أهل العلم والأدب والجاه . ولن تجسده فى صميم أدبه إلا رعداً يزجر
كلما مر به خاطر الغنى والفقر ، والنعيم والبؤس ، والنباهة والخمول .

٢ - لا تسأل متى ولد ، ولا أين ولد ، فذلك رجل نشأ فى بيئة خاملة لم تكن تطمح فى مجد
حتى تقيد تاريخ ميلاد ، ويكفى أن تعرف أنه فارسى الأصل ، وأنهم تردّدوا بين نسبته إلى
واسط أو نيسابور أو شيراز ، وأنه عاش فى القرن الرابع وشهد صدر القرن الخامس ، فقد نص
فى كتاب الصداقة والصدى على أنه كتبه فى سنة ٤٠٠ هـ للهجرة . وجاء فى تاريخ شيراز أنه توفى
سنة ٤١٤^(١) وفى هذا ما يرجح أنه من أهل شيراز . وليس بغريب أن يكون هذا حظ التوحيدي
فى تحديد مولده وتاريخ ميلاده فقد اختلف الناس فى مولد الشيخ محمد عبده فى مصر مع أنه

(١) حدثنا بذلك المسيو ماسينيون وهو يناقش الرسالة فى السوربون . ولم نستطع مع الأسف أن نجد نسخة فى مصر

نشأ في عصر مغمور بأسباب الدقة والنظام . ولهذا النموذج في حياة التوحيدى قيمة في فهم جَدّه العائر، وحظه المنكود، فلو كان رجلا مجدودا في دنياه لثلثت الناس اليه واهتموا بنسبه وعرفوا مسقط رأسه، لكنهم عرفوه شقيّا محروما فانصرفوا عنه ، وأغفلوا أمره ، حتى عجب ياقوت من أن لم ير أحداً عني به من كتاب السير والتراجم على كثرة من اهتموا بهم من العلماء والكتاب والشعراء .

٣ — قلت إن نبوغ أبي حيان التوحيدى يرجع إلى حقه وثورته على الحياة والأحياء، فلاذكر أن تلك الثورة ثبت في مفتتح حياته ومستهل صباه، حين سمع بأخبار ابن العميد والصاحب ابن عباد وما كان يحرق بين أيديهما من أسباب الرزق والرغد والطمانينة ، فقصد ابن العميد واستظل بفنائيه حيناً، ثم تحوّل الى ظلال ابن عباد، ولكنه لم يجد من فيض هذين الجدولين ما ينفع غلته، ويطفىء صده . هنالك انفجر بركان غضبه وتحوّل إلى أتون متسعٍ يرمى باللهب الماحق والشواط المبيد . وقد حدثنا في كتابه (مثالب الوزيرين)^(١) أنه لما قدم على الصاحب قدم اليه نجاح بن سلمة ناظر خزانة كتبه ثلاثين مجلدة من رسائله وقال : يقول لك مولانا أنسخ هذا فإنه قد طلب منه بخراسان . فارتاع التوحيدى وخاف على بصره من نسخ تلك الرسائل الطوال ، ثم تضجر وتبرم وأشار إلى أنه توجه من العراق إلى باب الصاحب ليتخلص من شؤم حرفة الوراقة التي لم تكن كاسدة ببغداد ، فوصل ذلك إلى الصاحب فحقد عليه ، وكان رجلا لا يقبل أن يعصى له أمر، أو يراجع في قول . ثم كانت أيام التوحيدى عنده أيام إهمال ونسيان، فرحل عنه وأصلاه نيران الفحش والسباب . ولننظر كيف يقول :

”ماذنبى، أكرمك الله، إذا سألت عنه مشايخ الوقت، وأعلام العصر، فوصفوه بما جمعت لك في هذا المكان ! على أنى قد سترت كثيرا من مخازيه، إما هربا من الاطالة، أو صيانة للقلم عن رسم الفواحش ، وبث الفضائح، وذكر ما يسمج مسموعه ، ويكره التحدث به ؛ سوى ما فاتنى من حديثه، فاني فارقته سنة ٣٧٠ هـ“ .

”وماذنبى إن ذكرت عنه ما جرعنيه من مرارة الخيبة بعد الأمل، وحملنى عليه من الاخفاق بعد الطمع، مع الخدمة الطويلة والوعد المتصل، والظن الحسن، حتى كأتى خُصصت بخساسته وحدى، أو وجب أن أعامل بها دون^(١) غيرى“.

٤ — وقد ختم التوحيدى بكتابه مثالب الوزيرين بكلمة تدل على أنه كان يفهم أن الأدب باب من أبواب الرزق وسبيل من سبل الغنى، إذ صرح بأنه يحسد الذى يقول :

أعدّ خمسين حولاً ما على يد لأجنى ولا فضل لذى رحم
الحمد لله شكراً قد قنعت فلا أشكولئياً ولا أطرى أخا كرم

ثم صرح بأنه كان يمتنى أن يكون ذلك الرجل، ولكن العجز فى رأيه غالب لأنه مبذور فى الطينة، ثم استحسن قول الآخر :

ضيق العذر فى الضراعة أنا لو قنعنا بقسمنا لكفانا
مالنا نعبء الأنام إذا كا ن الى الله فقرنا وغنانا
ثم دعا بما دعا به بعض النساك :

”اللهم صن وجوهنا باليسار، ولا تبدلها بالإقتار، فنسترزق أهل رزقك، ونسأل شر خلقك، ونبتلى بحمد من أعطى، وذم من منع، وأنت من دونهم ولى الإعطاء، وبيدك خزائن الأرض والسماء“^(٢).

وهذا نص فى أنه كان مشغولاً برزقه، وأنه كان لذلك معنيا بحمد الكرماء، وذم البخلاء، دفعا للفقر وطلباً للآل، فدرجت نفسه على الحرص والطمع، وألف الحقد على الأغنياء الباخلين، وكان مثله مثل المتنبي الذى تفجر شعره بالحقد على العالم والثورة على الوجود : لأنه لم يجد من يتناصره فى طلب الغنى والجاه والملك، ومن هنا قلت فى شعر المتنبي عواطف الحب والإخاء والوفاء : لأن مطامعه المادية حولته إلى رجل لا يدرك غير معانى الأثرة والشح والظن والجحود.

٥ — وما زال التوحيدى يقدّم إلى نفسه وقود الغيظ والحفيظة حتى غلبه طبعه الجاح في أنحيات عمره ، فقدم كتبه طعمة للنار ، حتى لا يكون بينه وبين العالم وشيجة من علم أو أدب أو دين ، ثم كتب في ذلك رسالة مطولة تفيض بالألم اللاذع والحزن الوجيع . وقد حدثنا في تلك الرسالة بما يؤيد مذهبنا إليه من أنه كان يتخذ العلم وسيلة إلى الغنى والجاه إذ قال في وصف الغرض من كتبه :

«على أنى جمعت أكثرها للناس ، ولطلب المثالة منهم ، ولعقد الرياسة بينهم ، ولمد الجاه عندهم ، فخرمت ذلك كله» .

وفي تلك الرسالة فقرات مُرّة موجعة تثير العطف على ذلك الرجل الذى سقى كل الشقاء بما رزق من رقة الحس ، ودقة الفهم ، وقوة الإدراك . ولقد صوّر بلواه بالناس أصدق تصوير حين قال :

« فإن قلت ولم تسهم بسوء الظن ، وتقرع جماعتهم بهذا العيب ؟

”بخوابى لك : أن عياني منهم في الحياة هو الذى حقق ظنى بهم بعد المئات . وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صح لى من أحدهم وداد ، ولاظهر لى من إنسان منهم حفاظ ، ولقد اضطرت بينهم بعد العشرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء ، وإلى التكفف الفاح عند الخاصة والعامة . وإلى بيع الدين والمروءة ، وإلى تعاظم الرياء بالسمعة والنفاق ، وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم ، ويطرح في قلب صاحبه الألم ، وأحوال الزمان بادية لعينك ، بارزة بين مسائك وصباحك ، وليس ما قلت بخاف عليك مع معرفتك وقطعتك ، وشدة ثبعتك وتفرغك ، وما كان يجب أن ترتاب في صواب ما فعلته وأتيت به بما قدمته ووصفته ، وبما أمسكت عنه وطويته ، إما هربا من التطويل ، وإما خوفا من القال والقيـل “ .

٦ — وهذه الكلمة تعطينا صورة واضحة من التزاع الدائم الموصول الذى كانت تشور محرجاته بلا انقطاع بين التوحيدى وبين معاصريه ، فذاك رجل يعرف ما هو الضمير ، وما هي

متانة الخلق ، وماعنى الكرامة ، وماملول الإباء ، ولكن أحداث دهره قهرته على المشى فوق تلك الأشواك : أشواك الملقى والمداهنة والرياء ، فمضى مجروح القلب ، مقتول النفس ، مطعون الوجدان . وكان اقترافه لمخزيات الضعة والهوان والصغار مما يضرهم فى نفسه ثورة الحقد على الرؤساء المسعودين الذين لا ينال فيض ما لديهم بغير أسباب الخسة والدناءة والإسفاف .

٧ - وفى تلك المعركة الدامية التى خرج منها التوحيدى وهو بين الكتاب أهجى وأخش من ابن الرومى بين الشعراء ، لا نجد بدا من الحكم عليه بأنه كان رجلا ظاهر الطمع والجشع والحرص ، قيل فى جمع المال عن طريق الأدب أن يبيع دينه ومروءته وأن يقترب مالا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم : فى حين أنه كان يستطيع أن يدوس بقدميه ما يملك أصحاب التيجان ويُقبل بنفس حازمة غنية على استدرار إحدى الصناعات ليعيش ، ثم يلقي العالم إن شاء بمثل قول أبى هلال :

جلوسى فى سوق أبيع وأشتري دليلى على أن الأنام قرود

ولا خير فى قوم يذل كرامهم ويعظم فيهم نذلهم ويسود

ولكنه أخذ يلوم الناس ويؤاخذهم بما لا يؤاخذ به نفسه ولا يتورع هو عن الوقوع فيه .

ودليل ذلك ما حكاه فى كتاب مثالب الوزراء إذ قال :

”جرى بينى وبين ابن مسكويه شئ : قال لى مرة أما ترى الى خطأ صاحبنا - يعنى

ابن العميد - فى إعطائه فلانا ألف دينار ضربة واحدة؟ لقد أضاع هذا المال الخطير فيمن

لا يستحق . فقلت بعد ما أطل الحديث وتقطع بالأسف : أيها الشيخ ! إني أسألك عن

شئ واحد فأصدق فانه لا مدب للكذب بينى وبينك ، لو غلط صاحبك فيك بهذا العطاء

وبأضعافه وأضعاف أضعافه ، أكنت تخيله فى نفسك مخطئا ومبذرا ومفسدا أو جاهلا بحق

المال ؟ أو كنت تقول : ما أحسن ما فعل ! وليته أربى عليه ! فان كان الذى تسمع على

حقيقته فأعلم أن الذى يرد ورد مقلالك إنما هو الحسد ، أو شئ آخر من جذسه ، وأنت تدعى

الحكمة وتكلف فى الأخلاق ، وتزيف الزائف وتختار منها المختار ، فأفطن لأمرك ، وأطاع على شرك^(١) وشرك^(٢) .

ولو أنه حاسب نفسه بمثل ما حاسب به ابن مسكويه لرأى ثورته على أهل زمانه تأخذ وقودها من قلب حاسد حقود ، وهو مع هذا يدعى الحكمة ويتكلف الأخلاق .

ويظهر مع الأسف أن الاندلس يبالغ فى درس الغرائز ونقد الطباع ، فاذا وصل الى نفسه خلا درسه من القرة وخلا نقده من العمق ، وأسبع على خصاله وشمائله أثواب الرضا والاعجاب .



٨ — هذا الذى قدمناه عن التوحيدى جعل لنا منه شخصيتين مختلفتين بعض الاختلاف : الشخصية الأولى شخصية الأديب الذى يتحدثنا عن نفسه وعن أشجانه وعن عتبه على الناس وتبرمه بالحياة . والشخصية الثانية شخصية الباحث الذى ينقل الصور المختلفة لما يفهم معاصروه من صروب العلوم والآداب والفنون . وهذه الشخصية الثانية شخصية الباحث تقدمه اليها رجال فهم النزعات الفلسفية والأخلاقية والأدبية ، ثم صورها لنا تصويرا يقرب من الإتقان فى كتاب المقابسات . وكتاب المقابسات هذا كتاب عظيم ، طبع أولا بالهند ، ثم طبع أخيرا فى مصر طبعاً متقناً معنياً به من بعض الوجوه . وكتاب المقابسات لا ينفع المبتدئين إلا قليلاً ، ولكنه نافع كل البقع لمن وقفوا على معضلات الفاسفة الإسلامية . ولعل أهم ما فيه أنه يعطينا صورة من الكتابة الفلسفية لعهد ، وإن كنا نرى فى ذلك بعض البعد عن الصواب ، لأنه يحاكي الجاحظ فى أسلوبه الفلسفى والأدبى فيترك السجع ويقبل على الازدواج ، غير أنه على كل حال لون من الكتابة الفلسفية التى تقبلها الناس فى ذلك الحين . وأدق ما يلاحظ على كتاب المقابسات أنه يطعننا على ناحية خطيرة من عقلية الباحثين فى ذلك العهد ، فهم يعرفون كيف تثار المشاكل وكيف تبذر بذور الخلاف ، فاذا حاولوا

الاجابة والتعليل ظهورا ضعفاء عاجزين . وهذه ظاهرة تجدها حيث تتصفح كتاب المقابسات ولعل السبب في ذلك أنهم كانوا يعانون أزمة عقلية خطيرة لم يتيح لهم التغلب عليها ، وكان من أثرها أن كثر الشك والارتباب والاحاد بين طبقات المفكرين .

ومن طريف ما أثاره أبو حيان التوحيدي في إحدى المقابسات ما أنطق به أبا إسحاق النصيبي إذ قال :

”ما أعجب أمر أهل الجنة ! قيل وكيف ؟ قال لأنهم يبقون أبدا هناك ، لا عمل لهم إلا الأكل والشرب والنكاح ؟ أما تضيق صدورهم . أما يملكون . أما يربأون بأنفسهم عن هذه الحال الخسيسة التي هي مشاكلة لحال البهيمة ؟ أما يأنفون ؟ أما يضجرون ؟^(١)

وفي الجواب على هذا السؤال الخطر أطال أبو حيان إطالة مملة لا تقنع ولا تفيد ، لأنه افترض أن نعيم الجنة بالعقل لا بالحس ، وأن العقل لا يعتريه الملل ، ولا تصيبه الكلفة ، ولا يمسه اللغوب . وعلى ذلك بقى الاعتراض حيث وقع : لأن القرآن أعطى للذات الحسية شأنا غير قليل ، وجعلها من الغايات التي يسمو اليها المؤمنون .

٩ — أما الشخصية الأولى شخصية الأديب فهي الجانب الأقوى من نفسية التوحيدي . وتمثل هذه الشخصية الرائعة في رسائله الوجدانية ، وفي استطراداته الممتعة التي جرى بها قلمه في كتاب الصداقة والصديق . والجانب الوجداني من التوحيدي تكون ونشأ في هجر الفاقة والبؤس ومعاناة الأيام . ولا تراه يجيد إلا حيث يتحدث عن نكد دنياه وسواد لياليه . وآنك لترثي له وتبكي لشكواه حين تراه يطالعك بأمثال الكلمة الآتية :

”وسمعت الخوارزمي أبا بكر محمد بن العباس الشاعر البليغ يقول : (اللهم نفق سوق الوفاء فقد كسدت ، وأصلح قلوب الناس فقد فسدت ، ولا تمنني حتى يبور الجهل ، كما بار العقل ، ويموت النقص كما مات العلم ” وأقول : ” اللهم اسمع واستجب ، فقد برح الخفاء ، وغلب الجفاء ، وطال الانتظار ، ووقع اليأس ، ومرض الأمل ، وأشفي الرجاء ” والخوارزمي^(٢)

هذا الذى يعجب به التوحيدى ويتحدث عنه ويتأسى به رجل عانى فى دهره مرارة الجور والحيف، ورأى الناس يقدمون عليه بديع الزمان وهو لادن العود غض الالهاف، فلا عجب أن يردّد "التوحيدى" شكاته وأنيته وهو الذى رأى كيف تقدم عليه الأقدار أمثال ابن عباد .

١٠ - ولقل هنا كلمة عن كتاب الصداقة والصديق قاله يرجع الفضل فى تصوير الجانب الوجدانى من التوحيدى رحمه الله . ابتدأ هذا الكتاب بفترة وانتهى بفترة . ابتدأ بالكلمة التى نقلناها آنفا عن الخوارزمى، وانتهى بقوله فى الاعتذار عن طول تلك الرسالة "فأقبل حاطك الله هذا القدر الذى قد بداؤه وأعدته، ونشرته وطويته، على أنك لو علمت فى أى وقت ارتفعت هذه الرسالة، وعلى أى حال تمت، لتعجبت، وما كان يقل فى عينك منها يكثر فى نفسك، وما يصغر منها بنقذك يكبر بعقلك . والله أسأل خاتمة مقرونة بغنيمة، وعاقبة مفضية الى كرامة، فقد بلغت تسمى رأس الحائط، والله أستعين على كل ما هم النفس، ووزع الفكر، وأدنى من الوسواس " .

وكتاب الصداقة والصديق كتب فى أدق وقت من حياة التوحيدى، كتب حين بلغت شمسه رأس الحائط كما قال، كتب بعد كتابه مثالب الوزيرين بمدة قد تكون طويلة، فهو أنضح ثمرة من أدب التوحيدى . وليس يهمننا فى هذا المقام ما أشتمل عليه من الفقرات الجميلة، والمقطوعات البديعة، والأخبار الطريفة، إنما يهمننا بنوع خاص ما صر فيه من الصور الفنية الرائعة التى جرى بها قلمه البليغ، فقد ترك لما ذلك الرجل الفحل طائفة من النماذج العالية فى صور الحواطر والأفكار والتأملات، ومشى بنا فى أودية من الخيال ضاحكة الأزهار خفاقة النسبات .

١١ - والصور التى يقدمها التوحيدى تمر غالبا على أنها أحاديث . فهو يصور خواطر الناس وآراءهم فى فهم الحياة تصويرا عجيبا يفصح عن قدرته أتم إفصاح، وهو يظهر فى ثنايا كلامه غنى اللغة قوى الخيال يحيط بالمعنى من جميع أقطاره إحاطة بالغة لا يند منها شئ، ولننظر كيف يقول فى تشعب أنفاس الناس فى الحب والبغض :

”وما من أحد إلا وله في هذا الفن حصّة : لأنه لا يخلو أحد من جار أو معامل أو حميم أو صاحب أو رفيق أو سكن أو حبيب أو صديق أو أليف أو قريب أو ولي أو خليف . كما لا يخلو أيضا من عدو أو كاشع أو مداح أو مكاشف أو حاسد، أو شامت، أو منافق أو مؤذ أو منابذ أو معاند أو منزل أو مضل أو مغل^(١)“ .

ومثل هذه الفقرة يدل على بصر ذلك الرجل باللغة وقدرته على تصوير ما يشاء من المعاني النفسية والوجدانية التي تعجز أكثر الكتاب . وقد أعطانا التوحيدى عدة صور في الصداقة والحب . من ذلك قوله في التفرقة بين الصداقة والعلاقة : ”الصداقة أذهب في مسالك العقل ، وأدخل في باب المروءة ، وأبعد من نوازي الشهوة ، وأزهر عن آثار الطبيعة ، وأشبه بذوى الشيب والكهولة ، وأرمى الى حدود الرشاد ، وأخذ بأهداب السداد ، وأبعد من عوارض الغرارة والحدائث . فاما العلاقة فهي من قبيل العشق والمحبة والكلف والشغف والتئيم والتهم والهوى والصبابة والتدائف والتشاجى . وهذه كلها أمراض أو كلالاً مراض ، بشركة النفس الضعيفة والطبيعة القوية ، وليس للعقل فيها ظل ولا شخص . ولهذا تسرع هذه الأعراض الى الشباب من الذكران والإناث وتنال منهم وتملكهم وتحول بينهم وبين أنوار العقول وآداب النفوس وفضائل الأخلاق ، ولهذا وأشباهه يحتاجون الى الزواجر والمواظ ليفيئوا الى ما فقدوه من اعتدال المزاج والطريق الوسط“^(٢) .

ونقل في موضع آخر أنه سمع ابن مانويه القمى يروى عن جعفر بن محمد أنه قال : مناغة الصديق أعبت بالروح وأندى على الفؤاد من مغازلة المعشوق ، لأنك تنزع بحديث المعشوق الى الصديق ولا تنزع بحديث الصديق الى المعشوق^(٣) .

١٢ — وقد علل التوحيدى ميل الرجل الى أهله وأحبابه فذكر أنه يحن الى والده للتعز به ، لأن الوالد عضد وركن يعاذ به ، ويؤوى اليه ، ويتزع الى الوالدة لسفقتها ودعائها الذى لا يعرج الى الله مثله ، ويشتاق الى أخته للصيانة لها والترقح اليها ، وإلى ابن عمه للانتصار به ،

ولابنة عمه لأنها كُحِمت على وضم؛ ويصبو إلى عشيقه لأن ذلك شيء يجده بالنطرة والارتياح الذي قلما يتخوم منه كريم له في الهوى عرق نابض، وفي انجون جواد راكض. ثم قال: أما الصديق فوجدني به فوق شوق إلى كل من نعتك لك، لأنني أبائته بما أجل أبي عنه، وأجبا من أمي فيه، وأطويه عن أختي نجلا منها، وأداجي ابن عمي عليه خوفا من حسد يققا ما بيني وبينه. فإما العشيقه فقصاراى معها أن أشوب لها صدقا بكذب وغلظة بلين لأفوز منها بحظ من نظره ونصيب من زيارته، وتحفة من حديثه. وكل هؤلاء مع شرف موقعهم مني وانتسابهم إلى دون الصديق الذي حريمي له مباح، وسارحي عنده مراح، أرى الدنيا بعينيها إذا رنوت، وأجد فائتي عنده إذا دنوت، إذا عززت له ذل لي، وإذا ذلت له عز بي، وإذا تلاحظنا تساقينا كأس المودة، وإذا تصامتنا تاجينا بلسان الثقة، لا يتوارى عنى إلا حافظا للغيب، ولا يترأى لي إلا ساترا للغيب^(١).

وقد عرض التوحيدي للصدافة والحب والعشق في آخر كتاب المقابسات بتفصيل واف فليرجع إليه من شاء.

١٣ — ولم أجد فيما قرأت من كتب الأدب صورة فنية تمثل اتحاد القلوب والنفوس كالصورة التي قدمها إلينا التوحيدي حين قال:

”قلت لأبي سليمان محمد بن طاهر السجستاني: إني أرى بينك وبين ابن سيار القاضي ممازجة نفسية، وصدافة عقلية، ومساعدة طبيعية، ومواناة خلقية، فمن أين هذا؟ وكيف هو؟ فقال: يا بني! اختلطت ثقتي به بثقته بي فاستفدنا طمأنينة وسكونا لا يرثان على الدهر، ولا يحولان بالقيصر. ومع ذلك فيننا بالطالع ومواقع الكواكب مشاكلة عجيبية ومظاهرة غريبة، حتى أنا نلتقي كثيرا في الإرادات، والاختيارات، والشهوات، والطلبات. وربما تراورنا فيحدثني بأشياء جرت له بعد افتراقنا من قبل فأجدها شبيهة بأمور حدثت لي في ذلك الأوان حتى كأنها قسائم بيني وبينه، أو كأنني هو فيها أو هو أنا. وربما حدثته برؤيا فيحدثني بأختها فتراها في ذلك الوقت أو قبله بقليل، أو بعده بقليل“.

وقال بعد كلام: فقلت هل تجد عليه في شيء، أو يجد عليك في شيء؟ فقال: وجدى به في الأول قد حجبني عن موجدتي عليه في الثاني، على أنه يكتفى مني فيما خالف هواي بالبلحة الضئيلة، واكتفى أنا أيضا منه في مثل ذلك بالاشارة القليلة. وربما تعاتبنا على حال تعرض على طريق الكفاية عن غيرنا كأنتا نتحدث عن قوم آخرين، ويكون لنا في ذلك مقنع، واليه مفرع، وقلما نجتمع إلا ويحدثني عنى بأسرار ما سافرت عن ضميري الى شفتي، ولا نذت عن صدرى الى لفظي، وذلك للصفاء الذى نتساهمه، والوفاء الذى نتقاسمه، والباطن الذى نتفق عليه، والظاهر الذى نرجع اليه، والأصل الذى رسوخنا فيه، والفرع الذى تشبثنا به. والله ما يسرنى بصداقة حُرِّ النعم. وإذا كنت أعشق الحياة لاني بها أحياء كذلك أعشق كل ما وصل الحياة بالحياة وجنى لى ثمرتها، وجلب لى روحها، وخلط بى طيبها وحلاوتها^(١).

والقارئ الذى ألف تذوق العبارات البليغة في غنى عن تحليل مثل هذا الحديث السائق الخلاب، وما عسانا نجد في الافصحاح عن جمال التعبير في مثل قوله ”وقلما نجتمع إلا ويحدثني عنى بأسرار ما سافرت عن ضميري الى شفتي، ولا نذت عن صدرى الى لفظي“. هيهات هيهات، فتلك لمحات من سحر البيان لا يوفق اليها إلا الملهمون.



١٤ — وينبغي أن نشير الى أن التوحيدى كان من أنصار إخوان الصفا، ولكنه كان يستتر اتقاءً لسخط الجمهور، وكانت طريقته في تأييدهم أن ينطق الأشخاص بعبارات مريية، كقوله: ”الشريعة طب المرضى، والفلسفة طب الأصحاء، والأنبياء يطبون للرضى حتى لا يترايد مرضهم، وحتى يزول المرض بالعافية فقط، وأما الفلاسفة فانهم يحفظون الصحة على أصحابها حتى لا يعتريهم مرض أصلا. وبين مدبر المريض ومدبر الصحيح فرق ظاهر وأثر مكشوف لأن غاية تدبير المريض أن ينتقل به الى الصحة — هذا اذا كان الدواء ناجعا والطبع قابلا والطبيب ناصحا — وغاية تدبير الصحيح أن يحفظ الصحة واذا حفظ الصحة فقد أفاده كسب

الفضائل وفرغه لها وعرضه لاقتنائها، وصاحب هذه الحال فائز بالسعادة العظمى، وقد صار مستحقاً للحياة الآلئية، والحياة الآلئية هى الخلود والديمومة^(١) .

١٥ — وبهذه المناسبة نذكر أن رسائل إخوان الصفا ظهرت فى القرن الرابع وهى من أهم المصادر للفلسفة الإسلامية، ولا تُعرف أسماء مؤلفيها بالضبط، ولكن يرجح أن التوحيدى كان بينهم . أما لغتها فليست من التراث الفنى الذى كلف به مشاهير الكتاب فى ذلك العصر، ولكنها لغة وسط بين لغة الكتابة ولغة التأليف، لأن كتابها أرادوا أن يفهموا الجماهير ما يرمون إليه من الأغراض السياسية والدينية، وذلك لا يتم فى مثل لغة الصابى وابن العميد . فلم يكن لهم بد من أن يتخيروا تلك اللغة الخالصة من شوائب البديع كالسجع والتورية والجناس، ولكن غلبت عليهم النزعة العامية فى بعض الأحيان^(٢) .

(١) ص ١٥ مقدمة المقابسات . (٢) كانت رسائل إخوان الصفا حليقة بأن تدرس درسا مفصلا فى هذا الكتاب . ولكن رأينا الباحثين أطالوا فيها القول قديما وحديثا ، رأينا من ناحية ثانية أن التراث الفنى فيها قليل . على أننا لم نقلها جملة ، بل كتبنا فصلا عن بعض اتجاهاتها الفلسفية فى باب (الأخبار والأقاصيص) — راجع « الإنسان والحيران أمام محكمة الجنح » فى الجزء الأول . وراجع كذلك الشواهد التى أثبتناها هناك فى فصل (السجع والازدراج) .

٢ - أبو علي بن مسكويه

١ - لما أصل الى التثبث من لقب الكاتب المفكر أحمد بن محمد بن يعقوب ، فهو تارة "مسكويه" وتارة "ابن مسكويه" وقد حدث ياقوت أنه "كان مجوسيا وأسلم" فظن صديقنا الأستاذ الزركلى صاحب "الأعلام" أن هذا صحيح ، فأثبت كذلك أنه كان مجوسيا وأسلم ، وهذا غير معقول ، فإن الرجل "اسمه أحمد بن محمد" والأرجح عندى أن عبارة ياقوت سقطت منها كلمة ، وأن الأصل "وكان جده مجوسيا وأسلم" وقد يكون هذا الترجيح هو الصواب .

٢ - اتصل ابن مسكويه فى شبابه بابن العميد واختص به ، ثم ساعده زمانه فاختص بأعلام بنى بويه وتولى مكتبة عضد الدولة فلقب بالخازن ، وكانت دار الكتب فى ذلك العهد تسمى "الخزانة" وظل متصلا بأولئك الملوك الى أخريات عمره . يدلنا على ذلك قوله يهنى عميد الملك باتفاق الأضحى والمهرجان فى يوم واحد :

قل للعميد عميد الملك والأدب	اسعد بعيدك عيد الفرس والعرب
هذا يشير بشرب ابن الغمام ضحى	وذا يشير علينا بابنة العنب
خلائق خيَّرت فى كل صالحة	فلودعاها لغير الخير لم تجب
أعدت شرخ شباب لست أذكره	بعدا ، ورُدَّ على العمر من كُثب
فطاب لى هرمى والموت يلحظنى	لحظ المريب ولولا أنت لم يطب
فإن تمرَّس بى خصم تعصب لى	وإن أساء إلى الدهر أحسن بى
وقد بلغت الى أقصى مدى عمرى	وكُلَّ غربى واستأنست بالنوب
إذا تملاَّت من غيظ على زمنى	وجدتني نائفا فى جذوة اللهب

٣ — شغل ابن مسكويه مدة طويلة بالكيمياء، ولكنه لم يكن فيها من الموفقين وكان اخفاقه مثارا لسخرية أبي حيان التوحيدي، فقد غمزه في كتاب الإمتاع ووصفه بأنه "فقير بين أغنياء، وغنى بين أنبياء" ^(١) واتهمه بالجهل وقلة المحصول، وأنطق بعض محادثة بهذه الجملة "يا عجبا لرجل صحب ابن العميد أبا الفضل، ورأى ما عنده وهذا حظه! ثم أجاب: قد كان هذا! ولكنه كان مشغولا بطلب الكيمياء مع أبي الطيب الكيمياء الرازي مملوك الهمة في طلبه، والحرص على إصابته، مفتونا بكتب أبي زكريا وجابر بن حيان، ومع هذا كان إليه خدمة صاحبه في خزانة كتبه. هذا مع تقطيع الوقت في الحاجات الضرورية والشهوية، والعمر قصير، والساعات طائرة؛ والحركات دائمة، والفرص بروق تأتلق، والأوطار في عرضها تجتمع وتفرق، والنفوس عن فوائتها تذوب وتحترق. ولقد قطن العامري الرى خمس سنين ودرس وأملى وصنف وروى فما أخذ عنه مسكويه كلمة واحدة، ولا وعى مسأله، حتى كأنه كان بينه وبينه سد. ولقد تجرع على هذا الصاب والعقم، ومضغ لقمة حنظل الندامة في نفسه، وسمع بأذنه قوارع الملامة من أصدقائه، حين لم ينفع ذلك كله. وبعد هذا فهو ذكي حسن الشعر نقي اللفظ.

وقد أولع التوحيدي بمهاجمة ابن مسكويه ورماه بمدح الجود باللسان وإيثار الشح بالفعل، وادعاء الحكمة والتكلف في الأخلاق. ولننظر كيف يقول في كتاب الوزيرين.

"جرى بيني وبين أبي علي مسكويه شيء: قال لي مرة: أما ترى إلى خطأ صاحبنا— وهو يعني ابن العميد — في إعطائه فلانا ألف دينار ضربة واحدة! لقد أضاع هذا المال الخطير فيسن لا يستحق. فقلت بعد ما أطال الحديث وتقطع بالأسف: أيها الشيخ! أسألك عن شيء واحد، فاصدق فإنه لا مدب للكذب بيني وبينك: لو غلط صاحبك فيك بهذا العطاء وبأضعافه وأضعاف أضعافه أكنت تخيله في نفسك محطئا ومبذرا ومفسدا أوجاهلا بحق المال؟ أو كنت تقول: ما أحسن ما فعل، وليته أربى عليه! فان كان

الذى تسمع على حقيقته فأعلم أن الذى يرد ورد مقالك إنما هو الحسد أو شىء آخر من جنسه ، وأنت تدعى الحكمة ، وتكلف فى الأخلاق ، وتزيف الزائف وتختار منها المختار ، فافطن لأمرك وأطلع على شرك^(١) وشرك^(١) .

٤ — ونحن نفهم سر هذا التحامل من جانب التوحيدى ، فقد كان شديد الحقد على المجذوبين من أهل زمانه ، وخاصة من اتصلوا بالملوك والرؤساء ، ولنا أن نضيف إلى ذلك نجاح ابن مسكويه فى حياته العملية فقد كان الرجل فيما يظهر متين الأخلاق ، ومثانة الخلق قوة مرعبة يُرعد لها الأدباء المساكين الذين أبتلوا بالطمع فى هدايا الملوك والوزراء ، وألفوا الترف والتودد الى أقطاب الجاه والمال . والأديب الذى يعتمد على نفسه وعلى خلقه وعلى كفايته الذاتية يعيش فى الأغلب غربيا بين معاصريه من الأدباء ، فليس عجيبا أن يتحامل أديب متشرد أفاق كالتوحيدى على أديب موقفى مطمئن العيش كابن مسكويه . ولو شئنا لأضفنا أيضا نزعة ابن مسكويه الفلسفية فهى كذلك من أسباب حقد التوحيدى عليه ، فقد كان التوحيدى واسع الثقافة إلى حد مذهش وكان يطمح فى التفرد بالسمعة العلمية والأدبية والفلسفية بين رجال ذلك الجيل ، ولهذا نراه حين يستتر تحامله على ابن مسكويه لا يجد غير هذا الشئ الهزيل إذ يقول :

”وبعد هذا فهو ذكى حسن الشعر نقى اللفظ“^(٢) .

٥ — ومن دلائل النعمة التى ظفر بها ابن مسكويه فى حياته أن نراه ممدحا يتملقه لثام الشعراء والكتاب ، فقد كتب إليه بديع الزمان الهمداني رسالة عتاب تكلف فيها الود والإخلاص ؛ وكان بديع الزمان وقاح الوجه سليط اللسان ، لا يعترف لأحد بفضل ، ولا تصدر عنه كلمة الإنصاف إلا مدفوعة برغبة أو رهبة ، ويود لو أمكته المقادير من طمس معالم النباهة والصيت فيما يمر به من مختلف البلاد : حتى لا يذكر بالعلم والنبل إنسان سواه . وتكاد رسائله وقصائده تُقصر على بث ما كان يعتلج فى صدره من حرازات وعداوات

وأضغان وأحتاد، وقد اتصل بابن مسكويه حيناً، ثم سعى بينهما الواشون فكدرُوا ما كان
ينتظره البديع من طيب الصلات، فكتب الى صاحبه الرسالة الآتية :

ويا عزّ ان واش وشى بى عندكم فلا تمهليه أن تقولى له مهلاً
كجا لو وشى واش بعزة عندنا لقلنا تزحج لا قريبا ولا أهلاً

بلغنى — أطل الله بقاء الشيخ — أن قبضة كلب وافته بأحاديث لم يعرها الحق نوره ،
ولا الصدق ظهوره، وأن الشيخ أذن لها على حجاب أذنه ، وفسح لها فناء ظنه، ومعاذ الله
أن أقولها، وأستجيز معقولها . بلى قد كان بينى وبينه عتاب لا يتزع كنفه ، ولا يجذب
أنفه، وحديث لا يتعدى النفس وضميرها، ولا تعرفه الشفة وسميرها ، وعريضة كعريضة أهل
الفضل لا تتجاوز الدلال والإدلال ، ووحشة يكشفها عتاب لحظة، كغناء بحظة، فسبحان
من ربي هذا الأمر حتى صار أمراً، وتأبط شراً، وأوحش حراً، وأوجب عذراً، بل سبحان
من جعلنى فى حيز العذر أستم بارفته ، وأستخيل صاعقته، أنا المساء إليه، والمجنّى عليه ،
والمستخف به ، لكن من بلى من الأعداء كجا بليت، ورمى من الحسدة بما رميت، ووقف
من الوجد والوحدة حيث وقفت، واجتمع عليه من المكاره ما وصفت ، إعتذر مظلوماً،
وأحسن ملوماً، وصحك مستوماً . ولو علم الشيخ عدد أبناء الحدد، وأولاد العدد، بهذا البلد،
ممن ليس له همة إلا فى شكاية أو حكاية أو سعاية أو نكاية، لضن بعشرة غريب إذا بدر،
وبعيد إذا حضر، ولصان مجلسه عن لا يصونه عما رقى إليه . فهبنى قلت ما حكى له ،
أليس الشاتم من أسمع ؟ أليس الجانى من أبلغ ؟ فقد بلغ من كيد هؤلاء القوم أنهم صادفوا
من الأستاذ نفساً لا تستفز، وجبلاً لا يهز، وشوا إليه بما أرثوا به نارهم . ورد على ما قالوه
فما لبثت أن قلت :

فان يك حرب بين قومى وقومها فانى لها فى كل نائبة سلم

فليعلم الشيخ الفاضل أن فى كبد الأعداء منى بحجرة ، وأن فى أولاد الزنا عندنا كثرة ،
وقصاراهم نار يشبونها، أو عقرب يدبونها ، أو مكيدة يطلبونها ، ولولا أن العذر إقرار بما

قيل، وأكره أن أستقيل، بسطت في الاعتذار شاذروانا، ودخلت في الاستقالة ميدانا، لكنه أمر لم أضع أوله فلا أندارك آخره .

وقد ختم بديع الزمان رسالته بهذه الآيات :

مولاي إن عدت ^٢ ولم ترض لي	أن أشرب البارد لم أشرب
إمتط خدى وأنتعل ناظري	وصد بكفى حمة العقرب
بالله ما أنطق عن كاذب	فيك ولا أبرق عن خلب
فالصفو بعد الكدر المفترى	كالصحو بعد المطر الصيب
أن أجتن الغلظة من سيدي	فالشوك عند الثمر الطيب ^(١)

ثم انتظر من ابن مسكويه أن يعتذر عن إعراضه عنه، فأجابه بما نصه بعد الديباجة :
 ” أما البلاغات التي أوما إليها فوالله ما أذنت لها ولا أذنت فيها ، وما أذهبنى عن
 هذه الطريقة وما أبعدنى عنها ! وقد نزه الله لسانى عن الفحشاء، وسمعى عن الإصغاء ،
 وما يتخذ العدو بينهما مجالا^(٢) “ .

ومثل هذا الجواب يشعر بأن موقف بديع الزمان من صاحبه كان موقف التابع من
 المتبوع . والمصادر لا تعيننا على تحديد ما كان بينهما من ألوان الصلات، وإن كانت عبارة
 ياقوت صريحة في أنه كان بينهما قبل هذا العتب وداد .

٦ - شغف ابن مسكويه شغفا بالغا بالفلسفة اليونانية وأطلع على أكثر ما عرف
 العرب من مؤلفات اليونان، ويرى القارئ في آثاره ظلالات كثيرة لآراء سقراط وجالينوس
 وأرسططاليس . ويظهر أن الفلسفة اليونانية وصلت الى أعماق نفسه في وضوح وجلاء
 فاقنتى مناهج اليونان في عرض الآراء وتقصد مظاهر الحياة العقلية والسياسية والاجتماعية .
 وكذلك لم يقف في دراسة الأخلاق عند الحدود الدينية التي كان يكتفى بها الصوفية

والناسكون والزاهدون، بل سائر العقل وصاحبه وأنس به واطمان إليه، ثم اتخذها أساسا للأخلاق، فصار العقل عنده نظيرا للوحى فى عرف المتبتلين، وما زال يدور حول المعقولات فى نظام السلوك حتى صار الخلق المعقول أحب إليه وأقرب إلى نفسه من الخلق المنقول : فهو لا يفعل الخير لأنه أمر به ولا يمتنع الشر لأنه نهى عنه ، وإنما يفعل ما يفعل ويترك ما يترك وفقا لاطمان إليه عقله وأمر به وجدانه فى حدود النفع والمنطق والذوق، وإلى القارئ وصيته — أو دستوره إن شاء — فى نظام السلوك :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا ما عاهد عليه أحمد بن محمد ربّه وهو يومئذ آمن فى سربه ، معافى فى جسمه ، عنده قوت يومه ، لا تدعو إلى هذه المعاهدة ضرورة نفس ولا بدن ؛ ولا يريد بها مراعاة مخلوق ولا استجلاب منفعة ، ولا دفع مضرة : عاهد على أن يجاهد نفسه ويتفقد أمره ، فيعف ويشجع ويحكم . وعلامة عفته أن يقتصد فى مأرب بدنه حتى لا يحمل الشرة على ما يضر جسمه أو يهتك مروءته ؛ وعلامة شجاعته أن يحارب دواعى نفسه الذميمة حتى لا تقهر شهوة قبيحة ولا غضب فى غير موضعه ، وعلامة حكمته أن يستبصر فى اعتقاداته حتى لا يفوته بقدر طاقته شىء من العلوم والمعارف الصالحة ، ليصلح أولا نفسه ويهذبها ويحصل له من هذه المجاهدة ثمرتها التى هى العدالة ، وعلى أن يتمسك بهذه التذكرة ويجتهد فى القيام بها والعمل بموجبها وهى خمسة عشر بابا :

إيثار الحق على الباطل فى الاعتقادات ، والصدق على الكذب فى الأقوال ، والخير على الشر فى الأفعال ، وكثرة الجهاد الدائم لأجل الحرب الدائم بين المرء وبين نفسه ، والتمسك بالشرعية ولزوم وظائفها ، وحفظ المواعيد حتى ينجزها ، وأول ذلك ما بينه وبين الله عز وجل ، وقلة الثقة بالناس بترك الاسترسال ، ومحبة الجميل لأنه جميل لا لغير ذلك ، والصمت فى أوقات حركات النفس للكلام حتى يستشار فيه العقل ، وحفظ الحال التى تحصل

في شيء شيء حتى تصير ملكة ولا تفسد بالاسترسال ، والاقدام على كل ما كان صوابا ،
والاشفاق على الزمان الذي هو العمر ليستعمل في المهم دون غيره ، وترك الخوف من
الموت والفقر لعمل ما ينبغي ، وترك التواني ، وترك الاكتراث لأقوال أهل الشر والحسد
لئلا يشتغل بمقابلتهم ، وترك الانفعال لهم ، وحسن احتمال الغنى والفقر والكرامة والهوان ،
وذكر المرض وقت الصحة ، والهم وقت السرور ، والرضا عند الغضب ليقبل الطغي والبغي ،
وقوة الأمل وحسن الرجاء ، والثقة بالله عز وجل وصرف البال إليه .

(١) معجم الأدباء ص ٩٥ و ٩٦ ج ٢

٣ - الفرق بين ابن مسكويه

١ - الخلق - كما عرفه ابن مسكويه - حال للنفس داعية لها الى أفعالها من غير فكر ولا روية . فهو بهذا غير التخلق : لأن التخلق يقتضى شعورا بالكلفة عند إرادة العمل الحسن وعند تجنب العمل القبيح . وقد عرض ابن مسكويه لآراء القدماء في أصل الخلق ، فبين أن منهم من ظنوا " أن الناس كلهم يخلقون أخيارا بالطبع ثم بعد ذلك يصيرون أشرارا يجالسة أهل الشر والميل الى الشهوات الرديئة التي لا تقمع إلا بالتأديب ^(١) " وأن منهم آخرون " ظنوا أن الناس خلقوا من الطينة السفلى وهي كدر العالم فهم لأجل ذلك أشرار بالطبع وإنما يصيرون أخيارا بالتأديب والتعليم ^(٢) " وهناك رأى ثالث اختاره ابن مسكويه وهو الرأى الذى يقول بأنه " ليس شئ من الأخلاق طبعيا للانسان " وإنما طبع الانسان على قبول الخلق فهو يتحول وفقا لما يؤثرفيه من أعمال الأخيار والأشرار . وليس لابن مسكويه فى أصل الخلق رأى خاص ، وإنما يتخير من بين الآراء ، وضرئته أنه يعتمد على المشاهدة والاختبار ، فيقول مثلا " وهذا الرأى هو الذى نختاره لأننا نشاهده عيانا " وحين يشرع فى بيان مراتب الناس فى قبول الآداب يذكر أنها كثيرة ثم يقول : وحى تشاهد وتعاين فيهم وخاصة فى الأطفال ، فان أخلاقهم تظهر فيهم منذ بدء نشأتهم ، ولا يسترونها بروية ولا فكر كما يفعله الرجل التام الذى انتهى فى نشوئه وكاله الى حيث يعرف من نفسه ما يستقيح منه فيخفيه بضروب من الحيل والأفعال المضادة لما فى طبعه ، وأنت تتأمل من أخلاق الصبيان واستعدادهم لقبول الأدب أو نفورهم عنه ، أو ما يظهر فى بعضهم من القحة وفى بعضهم من الحياء ، وكذلك ما ترى فيهم من الجود والبخل والرحمة والقسوة والحسد وضده ، ومن الأحوال المتفاوتة ما تعرف به مراتب الانسان فى قبول الأخلاق الفاضلة وتعلم معه أنهم

ليسوا على رتبة واحدة وأن فيهم المتوانى والمتنع ، والسهل السلس ، والفظ العسر ، والخير^(١) والشرير .

٢ - والواقع أنه ليس لابن مسكويه غير هذه المزية وهى محاولة الانتفاع من المشاهدات والاختبارات . ولكن هذه المزية نفسها تكررت عليه بسبب حيرته فى تعليل ما يعرض له من مختلف الآراء : فهو تارة مع جالينوس وتارة مع ارسططاليس ، وطورا مع العقل وطورا مع الشرع ، بحيث تصطدم فى كتبه معالم المعقول والمنقول ، ولذلك تراه يربأ أقوال الحكماء ترتيبا سيئا فى أكثر الأحوال ، لأنه لا يمشى الى غاية معينة يسوق فى سبيلها الحجج والبراهين . وقد يحتطب أحيانا فى ليل من الظنون والأوهام فيجمع بين الجيد والردى والطيب والخبيث . ولهذا الخبط قيمته عند من يريدون تبين ما فعلت الفلسفة اليونانية بالعقلية العربية ، فقد كانت فى أذهان كثير من الناس صورة للغبار الذى يشور عند هبوب الرياح ، وكانت الأذهان العربية هادئة مطمئنة بجفاءتها فلسفة اليونان بزواجر وأعاصير أطار ما كان آسقر فيها من أمن وسكون . وقد آن أن يعرف الناس أن الآراء التى تأتى من أقطار أجنبية لا تنفع من يتلقونها إلا بعد أن يهضموها ويسلموها من الافتتان بما فيها من طرافة وبريق ، ومثلهم فى ذلك مثل من يشرب الدواء لا تصفو نفسه ولا تذكو قريحته ولا يعتدل مزاجه إلا بعد أن يزول ما أحدث الدواء بأعصابه وحواسه من قلق واضطراب ، وكذلك وقع لمفكرى العرب حين غزتهم الفلسفة اليونانية . فكان منهم المفتون بكل ما (نقل) عن سقراط وأفلاطون وأرسططاليس ، وكان منهم من هضم تلك الفلسفة واستبقى لعقله وروحه ما فيها من ثقيل للعقل وتهذيب للحس وتقويم للوجدان . ونحن نشهد فى عصرنا شواهد لذلك ، ففى رجال اليوم من له فى كل صباح رأى جديد ، لأنه لا يأخذ عن نفسه وإنما يتلمذ لعدد من الفلاسفة والمفكرين قد يتوافقون وقد يتناقضون ، وهو لهم فى توافقهم وتناقضهم تابع أمين ، وقد يكون فى المساء صدى لكاتب قرأه فى الصباح ، وكذلك يفعل فلان وفلان !

ومن معاصرينا من خلع من قيود ما قرأ وعاد يفكر ويتذوق ويحس وهو حر العقل والذوق والاحساس .

٣ — رسم ابن مسكويه لنفسه خطة تجدر بمثله وهي القصد إلى تنقيف الخواص : فهو لا يكتب في الأخلاق للناس أجمعين ، وإنما يتوجه بأرائه وأبحاثه إلى من درسوا المنطق وعرفوا كيف يكون القياس والبرهان . وكان يشعر — فيما يظهر — بأن خواص زمانه كانوا على حافة الشك والارتياب ، لهذا نازد بهم أولا وقبل كل شيء بإثبات وجود النفس وجودا مستقلا عن الجسم أتم استقلال ، بحيث لا تضعف حين يضعف ولا تزول حين يزول . ولم يضطره إلى مواجهة هذا البحث الشائك إلا احتياجه كما قلنا بتقويم الخواص ، ولو كان يكتب للعوام لأراح نفسه من آصار هذه المخاطرة العقلية ، لأن العوام مطشئون أو كالمطمئنين إلى خلود الروح وعودتها يوم البعث إلى بقايا جسمها في التراب . وإقناع الخواص بوجود النفس واستقلالها وخلودها هو حجر الزاوية في جذبه . سم إلى جمال الأخلاق ، لأنه لا يخشى على الخواص إلا شر الريب وعدم الاكتراث . وهم لا يضلون — وما أكثر ما يضلون ! — إلا لياسهم من خلود النفس الانسانية . وقولهم مع سائر الدهريين ”إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين“ .

٤ — وابن مسكويه واثق بالمنطق ثقة مطلقة ، ومن أجل ذلك يعتمد عليه في جميع الأحوال ، مطمئنا إلى أنه متى صحت المقدمات حقت النتائج . فلنختبر ما صنع في بيان وجود النفس لنعرف مبلغ ما وصل إليه في إثبات ما يريد ، وهو يذكر ”أنا لما وجدنا في الانسان شيئا ما يضاد أفعال الأجسام بحته وخواصه وله أيضا أفعال تضاد أفعال الجسم وخواصه حتى لا يشركه في حال من الأحوال ، وكذلك نجد بين الأعراض وبيضاها كلها غاية المباينة ثم وجدنا هذه المباينة والمضادة منه للأجسام والأعراض إنما هي من حيث كانت الأجسام اجساما والأعراض أعراضا حكما بأن هذا الشيء ليس بجسم ولا جزء من جسم ولا عرضا ، وذلك أنه لا يستحيل ولا يتغير ، وأيضا فإنه يدرك جميع الأشياء بالسوية ولا يلحقه فتور ولا كلال ولا نقص“^(١) .

ومعنى هذا أن الانسان مركب من شيئين : أحدهما الجسم ، وثانيهما النفس . والجسم محسوس ملموس لا يختلف في تقديره اثنان ، فلم يبق موضعا للتزاع إلا النفس وحى عنده تضاد الأجسام في الحدود والخواص .

” وبيان ذلك — كما شرح فى كتاب تهذيب الأخلاق^(١) — أن كل جسم له صورة ما فانه ليس يقبل صورة أخرى من جنس صورته الأولى إلا بعد مفارقة الصورة الأولى مفارقة تامة . مثال ذلك أن الجسم اذا قبل صورة وشكلا من الأشكال كالتثليث مثلا فليس يقبل شكلا آخر من التربيع والتدوير وغيرهما إلا بعد أن يفارقه الشكل الأول ، وكذلك إذا قبل صورة نقش أو كتابة أو أى شىء كان من الصور فليس يقبل صورة أخرى من ذلك الجنس * إلا بعد زوال الأولى وبطلانها البتة . فان بقى فيه شىء من رسم الصورة الأولى لم يقبل الصورة الثانية على التمام بل تختلط الصورتان فلا يخلص له إحداها على التمام . مثال ذلك إذا قبل الشمع صورة نقش فى الخاتم لم يقبل غيره من النقوش إلا بعد أن يزول عنه رسم النقش الأول“ .

هذا هو الجسم ، أما النفس فتقبل صور الأشياء كلها على اختلافها من المحسوسات والمعقولات ”على التمام والكمال من غير مفارقة للأولى ولا معاقبة ولا زوال رسم ، بل يبقى الرسم الأول تاما كاملا وتقبل الرسم الثانى أيضا تاما كاملا ؛ ثم لا تزال تقبل صورة بعد صورة أبدا دائما من غير أن تضعف أو تقصر فى وقت من الأوقات عن قبول ما يرد ويطرأ عليها من الصور“ .

٥ — تلك إحدى محاولات ابن مسكويه فى استقلال النفس ، وكلامه فى هذا الباب كلام الواثق من صحة ما يقول ، وليته تذكر أننا حين نؤمن بوجود شىء لا ينهض إيماننا حجة على وجود ذلك الشىء على النحو الذى نتصوره ونراه ، فليس اطمئنان ابن مسكويه إلى أن النفس موجودة مستقلة خالدة بكاف فى محو ما يحيك فى الصدور من الريب فى استقلالها

عن الجسم وتفردها دونه بالخلود . وأخشى أن يقف قوم في وجه ابن مسكويه فينكروا عليه ما آدءاء من أن النفس "تدرك جميع الأشياء بالسوية ولا يلحقها فتور ولا كلال ولا نقص" فقد شاهد ناس أن النفس تتبع الجسم في الصحة والمرض والقوة والضعف والنشاط والخمول، وإن الإنسان يرى المعنويات والمحسوسات بأشكال مختلفة في وجوه متباينة تبعاً لاختلاف الذوق والحس والمزاج . ولاحظ ناس كذلك أننا عبيد لحواسنا وأعصابنا وأن جمهورنا مدين في تكوين ذوقه وحسه وعقله إلى ما يأكل وما يشرب وما يلبس وما يرى وما يذوق ، وأنه كذلك مدين إلى من يصادق ويخاصم في تكييف ما يعتلج بصدره من ألوان المودات والعداوات . وقد راعى ذلك فقهاء الشريعة الإسلامية حين وضعوا آداب القضاء ، واستحبوا للقاضي أن يمتنع عن الحكم إذا شعر ببعض عوارض المرض أو الظمأ أو الجوع ، فليس من السهل الاقتناع بأن النفس معصومة من التحول والتغير والفساد ، كما ظن ابن مسكويه وكما توهم متابعوه .

إن حلول النفس مشكلة قديمة تعبت في حلها العقول ، والقول الفصل هو كلمة القرآن "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً" ولو سكنت عنها ابن مسكويه لأراح واستراح . ولكنه ظن المنطق والفلسفة يغنيان في كشف ذلك السر الذي لم يحاول كشفه القرآن .

٦ — فإذا تركنا الجوانب النظرية في أساس الأخلاق ومضينا نتعقب جهود ابن مسكويه في شرح الجوانب العملية رأيناه في أكثر الأحوال من الموفقين ، من ذلك أنه عرض لشرح القاعدة التي تقول "الإنسان مدني بالطبع" فأخذ يفصلها بأن ذلك معناه "أنه لم يخلق الإنسان خلق من يعيش وحده ويتم له البقاء بنفسه كما خلق كثير من الوحش والبهائم والطيور وحيوان المساء ، لأن كل واحد من تلك خلق مكتفياً بنفسه غير محتاج في بقائه إلى غيره ، بل قد أزيحت علته في جميع ما تتم به حياته خلقة وإلهاماً . أما الخلقة فلا أنه مكتسب بما يوافقه من وبر ووصوف وشعور ريتس وما أشبه ذلك ، وذو آلة يتناول بها حاجته : إن كان لا قط حب

فتنقار، وإن كان آكل عشب فشفير وأسنان موافقة للقطع والقلع ، وإن كان سبعا أو آكل لحم فأنياب أو مخالب أو مناسر ... وأما الإلهام فلا نه يتناول من الأغذية ما يوافقه ويتجنب ما يضره ، وينتقل من مصيفه إلى مشاده ، ويعتد مصالحه كلها من القوت ولكن بغير تعليم ولا تدبير، بل بالإلهام المولود معه ، فكل واحد منها مكتف بذاته في حياته التي قدّرت له . فأما الإنسان فإنه خالق عاريا غير مهتد لشيء من مصالحه إلا بالمعانة والتعليم ، ولا يكفيه القليل من معاونين حتى يكونوا عدّة كثيرة وجماعة وافرة، وإذ كان هذا على هذا وكان سبيل الإنسان في حياته وحسن عيشته على خلاف الحيوان كله قيل إنه مدنى بالطبع : أى محتاج إلى ضروب المعاونات التي تتم بالمدينة واجتماع الناس . وهذا الاجتماع للتعاون وهو التمدن سواء كان ذلك في الناس وبراً ومدراً أو على رأس جبل^(١) .

٧ - ويخلص ابن مسكويه من ذلك إلى نتيجتين عظيمتين :

الأولى : أنه من العدل أن نعين الناس بأنفسنا كما أعانونا بأنفسهم ونبذل لهم عوض ما بذلوه لنا .

الثانية : أن الذهاب إلى التزهّد وتحريم المكاسب ظلم : لأن الزاهد مضطر لا محالة إلى استنجاد الناس في ضرورات بدنه وحاجاته إلى ما يقيم أوده ، فهو يطلب معاوتهم ثم لا يعاونهم ، وذلك ظلم وعدوان . فان ظن أحد من المتزهدين أن مقدار حاجته إلى معونات الناس قليل فليعلم أن ذلك القليل يحتاج فيه إلى استخدام عالم كثير من الناس لا يحصون^(٢) وإن كان لا يشعر بذلك^(٣) .

وهذه دقة في فهم الأخلاق ، لأننا قد نحسب أننا نحسن إلى الناس على حين لا نعمل غير قضاء ما علينا لهم من ديون . وكل إنسان في الواقع مدين إلى إخوانه في الإنسانية من قرب أو من بعد ، فالمصباح الذي نقرأ في ضوئه ، ونظام البيت الذي نأوى إليه ، والكتاب الذي نهتدى بهديه ، والشرائع التي نعيش في حماها ؛ كل أولئك جزء من جهود إنسانية عديدة

منها القريب ومنها البعيد، وتلك الجهود تظلم ونحن أجنّة في بطون أمهاتنا ، وترعانا حين نولد، ثم تظل تلاحقنا ببرها طول الحياة ، إلى أن تشمل أجسامنا بالكرامة والرعاية يوم نموت . فانه عرف بعض ما أسدته إلينا الإنسانية؛ ولندكر أن أفضلنا وأكرمنا هو من آمن حق الإيمان بأن الحياة تعاون وتساند وأن المرء بنفسه قليل .

٨ — ولعل أفضل ما كتب ابن مسكويه هو الفصل الذي عقده للكلام عن آداب الصداقة ورعاية الصديق، وهو في هذا مسبق بعدد عظيم من الكتاب والمفكرين، ولكنه بسط القول في الصداقة بسطا شافيا ينساب إلى النفس انسياب الماء إلى الأشجار الظماء ، وهو في ذلك الفصل خاصة يتكلم كلام المفكر المجرب الذي صادق وعادى وعرف كيف تكون مرارة العداوات وحلاوة الصداقات، وهو يشعرنا بأن الاحتفاظ بالصداقة ليس من الأمور الهينة كما يتوهم الأكثرون . وقد نقتنع بعد قراءة ما كتب بأن تألف العدو أيسر من الاحتفاظ بالصديق . وتلك مسألة في زاوية الدقة : فطالما ضيعنا أصدقاءنا حين ظننا بأن في الصداقة ما يغني عن التلطف والتودد ورعاية الحقوق .

٤ - ابنه نبأ الخطيب

١ - اشتهر ابن نبأ في الأدب العربي ثلاثة رجال : أولهم عبد الرحيم بن محمد بن نبأ الخطيب الذي ولد في ميفارقين بديار بكر سنة ٣٣٥ ودفن بها سنة ٣٧٤ ، والثاني محمد بن محمد بن نبأ المصري الشاعر وصاحب "سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون" وهو من ذرية ابن نبأ الخطيب كما أشار إليه في آخر إجازته للصالح الصفدي وهي مذكورة في خزنة الأدب (٦٨٦ - ٧٦٨)^(١) والثالث عبد العزيز بن نبأ السعدي أحد الشعراء المجيدين الذين مدحوا سيف الدولة ابن حمدان .

٢ - وابن نبأ الخطيب الذي نحن بصدده رجل موفق رزق ما لم يرزق أحد من الشهرة العريضة بين الخطباء الواعظين . وقد ذكر ابن خلكان أن الاجماع وقع على أن خطبه ما عمل مثلها وفيها دلالة على غزارة علمه وجودة قريحته . وقد اهتم النقاد بتعقب خطبه ومناقشتها ، فعرض له ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة وعرض له ابن الأثير صاحب المثل السائر في عدة مواطن في آباءه ، واهتم بشرح ديوانه جماعة من المشاهير منهم عبد الله العكبري (٥٣٨ - ٦١٦) وعبد اللطيف بن يوسف البغدادى (٥٥٧ - ٦٢٩) وعثمان بن يوسف القليوبى المتوفى سنة ٦٤٤

ويظهر مما كتب عنه أن الرجل كان قد فنى في الوعظ فناء تاما ، وكان مستغوبا بما يطمئنه على مصيره ومصير عمله ، فكان لذلك يفتنى لو يرى الرسول في المنام ، وقد صحت له هذه الأمنية . نقل ابن خلكان عن تاج الدين الكندى باسناده المتصل الى الخطيب بن نبأ أنه قال : لما عملت خطبة المنام وخطبت بها يوم الجمعة رأيت ليلة السبت في منامى كأنى بظاهر ميفارقين

(١) ص ١٨ مقدمة ديوان ابن نبأ لطاهر الجزائى ومقدمة ديوان ابن نبأ للبشتكى . (٢) ص ٥٠٧ ح ١

(٣) ص ١٤٢ ج ١ (٤) ص ١١٨ و ١٦٢ و ٤٦٠

عند الجبانة فقلت : ما هذا الجمع ؟ فقال لي قائل : هذا النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أصحابه فقصدت إليه لأسلم عليه فلما دنوت منه التفت فرآني فقال : مرحبا يا خطيب الخطباء ! كيف تقول — وأوما إلى القبور — قلت : لا يخبرون بما إليه آلوا ، ولو قدروا على المقال لقالوا ، قد شربوا من الموت كأسا مرة ، ولم يفقدوا من أعمالهم ذرة ، وآلى عليهم الدهر أليسة برة ، أن لا يجعل لهم الى دار الدنيا كرة ، كأنهم لم يكونوا للعيون قرة ، ولم يعدوا في الأحياء مرة ! أسكتهم والله الذي أنطقهم ، وأبادهم الذي خلقهم ، وسجددهم كما أخلقهم ، ويجمعهم كما فرقهم ، يوم يعيد الله العالمين خلقا جديدا ، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقودا ، يوم تكونون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا — وأومات عند قولي تكونون شهداء على الناس الى الصحابة ، وبقولي شهيدا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم — يقوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا . فقال لي : أحسنت ، ادن ، فدنوت منه صلى الله عليه وسلم فأخذ وجهي وقبله وتفل في فمي وقال : وفقتك الله !

٣٣ — ومثل هذه الرؤيا يدل على منجى ابن نباتة وفهمه لواحيات الخطيب ، ورؤيا الرسول لا تدل على شيء أكثر من شغل الرأي واتجاهاته الفكرية ، فالرسول حين تراءى له في نومه لم يحدثه إلا بما يجب هو أن يتحدث به ، وكان ابن نباتة مغربا بالكلام على الموت والمعاد ، وكذلك وجه الرسول اهتمامه في المنام إلى سؤاله عن مصير أهل القبور . وملحقات الرؤيا تعطينا صورة من عقلية الواعظين ، ولا تزال تلك الصورة موجودة الى اليوم ، فاجتذاب الرسول لوجه الخطيب وتقيله إياه ثم تفلته في فمه ، وبقاء الخطيب بعد هذا المنام ثلاثة أيام لا يطعم طعاما ولا يشتهي مع غلبة ريح المسك على فيه وبموته بعد ذلك المنام بقليل : كل هذا من الصور العقلية التي ترد كل يوم بين طبقات الواعظين من الخطباء .

ويظهر أن صيت ابن نباتة وسمعته دفعت من بعده الى تلمس أخباره عن طريق المنام ، فقد قال ابن خلكان : رأيت في بعض المجاميع ، قال الوزير أبو القاسم بن المغزني : رأيت

٥ — ولكن ما هي قيمة ابن نباتة الذي حدثنا صاحب المثل السائر أن خطبه كانت منشورة بين أيدي الناس يغرمون بها ويكون عليها ، وأنها كانت في أنفسهم تساوي مقامات الحريري ؟

من الوجهة الفنية يعد ابن نباتة من أعرف الناس بصياغة الكلام ، وهو يراعى فنون البديع مراعاة تامة ، وسجعه حسن مقبول . وربما كان السجع أقرب فنون البديع الى لغة الخطباء ؛ فهو أسرع تأثيرا في الجماهير التي لا تفتن إلا إلى الظواهر البراقة من حلية البلاغة والبيان . وربما كان في اختيار الواعظين للسجع اتصال للتقاليد القديمة التي عرفت عن الكهان ، والكهان هؤلاء كانوا رجالا يؤدون في البيئات الجاهلية مناسك عند قبض الواعظين في البيئات الإسلامية ، والجمهور واحد أمام الفريقين : فهو دائماً الله عليه وسلم الذي يوم تجد فيما تحتوي السجعات من الألحان والأنغام والأوزان مثيراً لما لا ينل ويثنه أبداً بعيداً .

الانسانية الكامنة التي يهيجها النغم والإيقاع .

٦ — وابن نباتة يجمع بين السجع والموازنة ، وذلك مما لواجبات الخطيب ، ورؤيا في الصناعة اللفظية ، ولنضرب المثل بقوله :

” حتى إذا استحكمت فيهم طاعة التخليد ، واستولت به فالرسول حين ترأى له في نومه وهو في هذه الكلمة قابل بين ” طاعية “ و ” رذائية “ وبين ما بالكلام على الموت والمعاد ، ولكن صال عليهم القضاء فاطرقوا ، وطال بهم العناء فأنخر القيور . وملحقات الرؤيا فقد قابل بين ” صال “ و ” طال “ وبين ” انقضاء “ و ” العفا اليوم “ ، فاجتذاب و ” أخلقوا “ .

وكذلك قوله : ” فيعلم عباد الله الى محاسبة النعم ” ومعاينة اليوم العبوس ، يوم غص الرء

والموازنة في هذه الفقرات ظاهرة لا تحتاج بعده الى تلمس أخباره عن طريق المنام ، الوزير أبو القاسم بن المغربي : رأيت

”خواضا لبحج الرضاء“ فيه أيضا خيال جميل ، وان كنت لا أستجيد إضافة البحج الى الرضاء ، لأن أيام الحج لا تكون دائما في القبط الشديد .

وقد يسمو به التخيل الى بعض الصور الطريقة كقوله في بعض خطب الجهاد .

”قد دخلت علينا الفتنة من كل باب ، وأطمعنا الدنيا إطماع السراب ، تنهارش حطامها تنهارش الكلاب ، ونلبس فيها جلود الضأن على قلوب الذئاب ، ننظر الى المعبروف نظر الخزر الغضاب ، ونسكن الى المنكر سكون الباني بالحدود الكعاب ، وقد أظنا من العبد سحاب ممتدة الأطناب ، ودبت في ديارنا منه عقارب الخراب“ (١)

وقوله في خطبة أخرى : ”ان للجنة بابا حدوده تطهير الله عليه وسلم الذي يوم تجد وساحته زحف الرجال إلى الرجال ، وطريقه عممة الأبطال“ (٢)

القتال ، ومدخله من مشرعة الصوارم والنبال“ .

٨ — أما من الوجهة العقلية فابن نباتة يقف دائما في وجهه وجهي وقبله وتفل ويعيد في ذكر الموت والمعاد ، ويتكلم على فضائل المواسم ولواجبات الخطيبين ، ورؤيا ويبين فصل يوم عاشوراء ، ثم يخطب في فضل رجب ، فالرسول حين تراءى له في يومه شعبان ليستقبل رمضان ، وهكذا دواليك من الشؤون . ولكنها أيضا خطب الجهاد ، والوجهة المعنوية خطب الجهاد ، ولكنها أيضا خطب الجهاد ، وهي دائما دون خطب على القصور . وملحقات الرؤيا الملتهب والرأي السديد . وهي دائما دون خطب على القصور . وملحقات الرؤيا ابن نباتة ويتأثرها في جميع مواقف الخطابية . ومن الضعيف . فاجتذاب تستحق الخلود ، أو تدل على عمق في الفكر أو سمو في القصور . وملحقات الرؤيا ”فقدّموا مجاهدة القلوب ، قبل مشاهدة الجاهل“ (٣)

وقوله : ”واستشعروا السكينة اذا كشفت اللطام ضرابها ، وأمر الحمام شرايها ، وبعده الى تلمس أخباره عن طريق المنام ، الوزير أبو القاسم بن المغزني : رأيت

٥ - أبو محمد بن حزم

١ - كان الناس يعرفون عن ابن حزم أشياء قليلة من حياته الخاصة، ولم يعرف الجمهور أكثر من أنه كان أكبر علماء الأندلس في عصره ومن أشهر أئمة الإسلام وأعرفهم بالمذاهل الفلسفية والدينية التي تأصلت جذورها عند علماء المسلمين، وكتابه "الفصل في الملل والأهواء والنحل" كان ولا يزال من أهم المراجع لعلوم الفلسفة ومذاهب التوحيد.

ويعد ابن حزم أفصح كاتب عرفته اللغة العربية في الفقه، مات عند قبة ركن ولكن تبين أخيراً أنه كان لذلك الامام قلب خفاق، الله عليه وسلم الذي تجمد واستهدف على عظمته للقليل والقال، وأول ما عرفنا من سنيته وبينه أبداً بعيداً.

طبع كتابه "طوق الحمامة" في لندن سنة ١٩١٤ بعناية المصطفى وجهي وقيله ونفل

أحدث ذلك الكتاب رجة عيفة جداً في أوروبا وشبهه في حياته لو واجبات الخطيئة، ورؤيا

لا في اللغات القديمة ولا في اللغات الحديثة، لأن رجب، ربة فالرسول حين تراءى له في نومه قليلة جداً في الشؤون الوجدانية، فكان من من الشئون

في ذلك العصر كاتب عربي يتناول حديث خطيبها بالكلام على الموت والمعاد، هو آية الآيات في فهم أسرار الأهواء والشهوات خطب على من الضعف

إماماً من أئمة الدين، ومثلاً يُحتذى في أليسة، ومن الضعف، ومن الضعف، فاجتذاب

إماماً من أئمة الدين، ومثلاً يُحتذى في أليسة، ومن الضعف، ومن الضعف، فاجتذاب

إماماً من أئمة الدين، ومثلاً يُحتذى في أليسة، ومن الضعف، ومن الضعف، فاجتذاب

واستطاع بحزمه وقوة نفسه أن ينظم الأمور و يضبط الأعمال "وبسط عدله وأقام هيئته في صدور الجند والرعية حتى كان يكفيه رفع الطرف الى أحدهم على طريق الإنكار فترعد الفرائض وتضطرب الأعضاء، وتسترنى المفاصل" كما عبر ابن مسكويه، وهو عندنا صادق فيما وصف به ابن العميد .

٦ - وكان ابن العميد من الوزراء المدحجين، فقصده الشعراء من كل صوب، وساقوا اليه جياذ المدائح، وللتبني فيه قصيدة رائية يحفظها أكثر الناس .

ونشرها إلى أن ابن نباتة السعدي ورد عليه وهو بالري وأتمدحه بقصيدته التي أ

برح أشتياق وادكار
ومدامع عبراتها
لله قلبي ما يحسن
لقد آتقضى سكر الشبا
وكبرت عن وصل الصفا
سقى لتغليسي إلى
أيام أخطر في الصبا
سجى إلى حجر الصرا
ومواطن اللذات أوطا
لم يسقى لي عيش يلد
أحيا بالخان قمر
وإذا استهل ابن العميد
خرق صفت أخلاقه
فكأنما زفت موا

ولبيب أنفاس
ترفض عرا
من ذا
ب وما
ر وما
باب
نث
الش
خط
في
مطب
س
ومن
ت
تضاء
صف
هـ
زير

الصبر، هذا وما استقدمتك بكتاب، ولا استدعيتك برسول، ولا سألتك مدحى ولا كلفتك
تقرىظى !

فقال ابن نباته : صدقت أيها الرئيس ! ما استقدمتني بكتاب ، ولا استدعيتني برسول ، ولا سألني مدحك ، ولا كلفتنى تقريرك ، ولكن جلسيت في صدر ديوانك بأهتك ، وقلت لا يخاطبني أحد الا بالرياسة ، ولا يتازعنى خلق فى أحكام السياسة ، فأنى كاتب ركن الدولة ، وزعيم الأولياء والحضرة ، والقيم بمصالح المملكة ، فكأنك دعوتنى بلسان الحال ، ولم تدعنى بلسان المقال !

فتار ابن العميد مغضبا وأسرع في صحن داره الى أن دخل حجرته، وتقوض الحجرة
وماج الناس، وسمع ابن نباتة وهو في صحن الدار ماراً يقول : والله وسكمت الذي يقوم تجد
على الجمر أهون من هذا ! فلعن الله الأدب اذا كان بائعه مهيباً مستنداً وبينه أمداً بعيداً .
فلما سكن غيظ ابن العميد وثاب إليه حلمه آلتسه من
ما كان منه : فكأنما غاص في سمع الأرض وبصرها ، فلا في حجة الواسع
الى أن مات .

الى أن مات .
وقد نقلنا هذا الخبر على طوله لأهمية خاصة ،
وهو ابن خلكان عاد فحدثنا انه وجد هذه الاشياء
ابن نباته ، وانه كشف ديوان ابن نباته فلم يرفيه ،
الوزيرين) للتوحيدى منسوبة لأبى محمد عبد الرزاق
شاعر من أهل الكرخ .

ونحن نأسف مر الأسف على أن لم نتمكن من الاطلاع بعد ذلك المتنام بقليل : كل ونخشى أن يكون ضاع أبد الآبدين ، مع أنه كان موثوقاً من الخطباء .

ولو أتيح لنا الاطلاع على هذا الكتاب لاستغنينا تخطي تلمس أخباره عن طريق المنام، بأن هذا المجلس الذي نقلناه آنفا من صنع التوحيدى،

الأستاذ الرئيس ولا يرضاه لسيرته ، وكان يعظه وينهاه عن هذه المسيرة ، ويعلمه أن ذلك لو كان مما يترخص فيه لكان هو بنفسه قد سبق إليه “ .

قال ابن مسكويه : « ولقد سمعته في كثير من خلواته يشرح له صورة الديلم في الحسد والجشع ، وأنه ما ملكهم أحد قط إلا بترك الزينة وبذل ما لا يبطرهم ولا يخرجهم الى التحاسد ، ولا يتكبر عليهم ، ولا يكون إلا في مرتبة أوسطهم حالا ، وإن من دعاهم واحتشد لهم وحمل على حالة فوق طاقته لم يمنعهم ذلك من حسده على نعمته والسعى على إزالتها وترقب أوقات الغرة في آمن ما يكون الانسان على نفسه منهم فيفتكون به في ذلك الوقت^(١) . »

ولكن تلك العظا ت لم تغن شيئا في تقويم ذلك الفتى ، فكان ابوه يأخذه معه في الزحف حتى لا تكون سيرته سببا في تغير ركن الدولة على وزيره . واتفق أخذ عليه وأس إليه تقويم مجد سفراته واستصحب معه ابنه أبا الفتح ، فلما كان في بعض الطريق وبينه أبدا بعيدا .

ولا يستقل على ظهور الدواب لإفراط علة التقرس وغيرها عليه
أحداء، وسأل عن الخبر فلم يجد حاجبا يخبره ولا من جرت

فسأله فأخبره أن الجند بأسرهم مالوا مع أبي الفتح إلى الصلح، فلو أجيأت الخطيب، ورؤيا من ذلك وساء أن يجري مثل هذا ولا يستأذن فيه.

حرب، ولم يأمن أن يستمر هذا التشتت من المعسكرين
بأن يحجب عنه ابنه أبا الفتح، وأن يوصى النقباء بمنع
الكل من الكلام على الجوت والمعاد،

هذا المبلغ من الانكار سيغض منه وينهى العسكر من اتى على يومئذ في اليوم ، فاجتذاب وعاد الفتى الى عادته واتبعه العسكر ومالوا معه الى اللعب - فقد هذا المنام ثلاثة ايام

لا يخليهم من الخلع والالطاف، فشق ذلك على الأستاذ الرئيس ذلك المنام بقليل : كل نفسه بإظهار ما في قلبه ، ولا أن يبالغ في الإنكار وهو في من الخطباء .

وَيُطْمَعُ فِيهِ عَدُوهُ، فَدَارِي أَمْرَهُ، وَتَجْرَعُ غِيْظَهُ، وَأَدَاهُ فِي

بهذان وهو يقول في مجلس خلواته : ما يهلك آل العميد ولا يمحوا آثارهم من الأرض إلا هذا الصبي (يعني ابنه) ويقول في مرضه : ما قتلى إلا جرع الغيظ التي تجرعتها منه^(١) .

وكانت وفاته رحمه الله بالرى سنة ٣٥٩ بعد أن عانى ما عانى من القولنج والنقرس يعاودانه صباح مساء . ويقال إنه رأى اكارا في بستان يأكل خبزا ببصل ولبن وقد أمعن فيه فقال : وددت لو كنت كهذا الاكار آكل ما أشتهى ! وكذلك كانت العافية أنفع وأجمل من الملك والجاه والمال . وهل تبسم الدنيا لانسان عليل ؟

(١) تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٧٣

٢ - نثر ابن العميد

١ - كان رجال القرن الرابع يقولون : "بدئت الكتابة بعبد الحميد، وختمت بابن العميد"^(١)، وهي مبالغه تذكر بما قيل في ذلك العهد : "بدى الشعر بملك، وختم بملك" يريدون أنه بدى بامرئ القيس وختم بأبي فراس . وهذه وتلك من المبالغات التي تجري على السنة المتتلفين من الحواشي والأتباع ، فقد كان لابن العميد أشياح يقولون بإمامته في النثر كما كان لأبي فراس أشياح يقولون بإمامته في الشعر . وكلتا الكلمتين على ما فيهما من مبالغة ظاهران ترجعان الى أصل من الحق أصيل : فقد كان ابن العميد وأبو فراس عليهما أقدار في يوم تجد منهما روح قوى قهار يعز على من رامه ويطول .

والقارئ يعرف أننا نتكر أن تكون الكتابة بدئت بعبد الحميد، وجهي وقبله وتفل كان إماما لأهل عصره ، وأنه أدخل في الكتابة أساليب الأولون ، وكذلك كان ابن العميد إماما لكاتب القرن الرابع لواجبات الخطيب ، ورؤيا الكتابة ما أدخله عبد الحميد ، ولكنه يمتاز بميزة عجيبة : رؤية فالرسول حين تراءى له في نومه الدرجات : فإننا حين نقرأ نحمد أنفسنا أمام عظم نغمنا بالكلام على الموت والمعاد، حين يكتب لا يطالعك بفنه، كما كان يفعل معاصروه، وإنما القصور . وملحقات الرؤيا بحيث تبدو كل كلمة من كلماته وكأنها قلب يخفق أو روح على بين يدي . فاجتذاب العميد زخرفا براقا يلهو به ولا ثروة لغوية يكثر بها الكتاب، ولكن هذا المنام ثلاثة أيام أو وجدانية يرمى بها كما يرمى البركان بأقباس الهلاك ، وقد يرق فتحيى المنام بقليل : كل في هدأة الليل، وهو في رفته وجزالته ، وغضبه وحنانه، عبقرى لا المعاد، وإنما يحيد بابداع الرأي الصائب والقول الرصين .

٢ — لم تصل إلينا مجموعة الرسائل التي حفظت عن ابن العميد ، ولكن بقيت منها شواهد تعطي عن ثمره فكرة قريبة من الصواب . وثمره باعتبار موضوعاته يرجع الى فنين : الأول رسائله الرسمية التي كتبها بصفته وزيرا لركن الدولة ، والثاني رسائله الشخصية التي عبر فيها عن ذات نفسه وهو يرسل أصدقاءه وأحبابه . ولكل من الفنين في ثمره لون خاص . ولنسارع فنقرر أن الرسائل التي كتبها على لسان ركن الدولة ليست كالرسائل التي كتبها الصابى مثلا على لسان بعض الخلفاء والوزراء . لا ، فان ابن العميد حين يتكلم عن مليكه يتكلم بقوة وحرية ، ويعبر عن إرادته الذاتية أكثر مما يعبر عن يكتب باسمه . ويرجع ذلك الى أن ابن العميد كان كل شيء في الملك الذي يسيطر عليه باسم ركن الدولة ، وكان الى جانب شخصيا إخلاصا قويا يحول مشا كل الحكم عند أمثاله من الوزراء الى معضلات شخصية وهو لا يقبل أن يحس بها صاحب التاج . ولننظر كيف يخاطب بعض الخوارج : ولا يقف إلا عن أيرى عن غضب أم يصدر عن عقل :

إليه فيقرظها في بخان ليطلع فيك ، ويأس منك ، وإقبال عليك ، وإعراض عنك ، فإنك الأصديق . ثم خدمه ، أيسرهما يوجب رعاية ، ويقتضى محافظة وعناية ، "وصل تكلمك الذي في أمانة ، وتبعهما بأنف خلاف ومعصية . وأدنى ذلك يهبط فأرتحت لكل ما أوليت ، ولا جرم أنى وقفت بين ميل إليك ، وميل عليك ، أقدم نظائره التي وكلت بها ذكرك ، وأبسط يدا لاصطلامك واجتياحك ، وأثنى ثانية وبهرى التبعين من قديس وجوب العقل ثم يؤوب ، ويعزب اللب ثم يشوب ، ويذهب وحل وحل أن كنت في كايصلح ، ويضاع الرأي ثم يستدرك ، ويسكر المرء ثم يصحو ، والعلم الآخر ."

دفة يرى القارئ كيف يتلطف ابن العميد فيستدرج ذلك العاصي ويقفه ولوبيت من يومه وأمسه ، وحاضره وماضيه ، ثم يعرض عليه وجوه حاله في الطاعة والعقوبة .

”وزعمت أنك في طرف من الطاعة بعد أن كنت متوسطها ، وإذا كنت كذلك فقد عرفت حالها ، وحلبت شطريها ، فشدتلك الله إلا ما صدقتني عما سألتك : كيف وجدت ما زلت عنه ، وكيف تجد ما صرت إليه ؟ ألم تكن من الأول في ظل ظليل ، ونسيم عليل ، وريح ليليل ، وغذاء غذى ، وماء روى ، ومهاد وطى ، وكفن كين ، ومكان مكين ، وحصن حصين ، عززت به بعد الذلة ، وكثرت به بعد القلة ، وارتفعت بعد الضعة ، وأيسرت بعد المعسرة ، وأثريت بعد المتربة ؟ فقيم أنت الآن من الأمر ؟ وما العوض عما عددت ، والخالف مما وصفت ، وما استفدت حين أخرجت من الطاعة نفسك ، ونقضت منها كفك ، وغمست في خلافها يدك ؟ وما الذي أظلك بعد انحسار ظلها عنك ؟ أظل ذو ثلاث شعب ، لا ظليل ولا يغني من اللهب ؟ قل نعم كذلك !“.

وابن العميد يعرف قوة نفسه ، وبأس قلمه ، ولذلك يقول وقد بلغ هذا الخطاب : ”ناقل حالك وقد بلغت هذا الفصل من كتابي فستكرها“ .
 هل يحس ؟ وأجسس عرقك هل ينبض ؟ وقش ما حنا عليك من وجهي وقبلة وتفل وحل حلى بصدرك أن تظفر بفوت سريح ، أو موت مريح ؟^(١)

٣ — وهذا النمط من الكتابة القوية يمثل قدر البلاغة في لواجهات الخطيب ، ورؤيا فهم يرون رسائل التهديد والوعيد طلائع من الأقلام تتقدم طام متابعة موفقة لذلك العرف الذي سنه كتاب الدولة الأموية .
 أسلوب في الدعاية كان يجرى عن طريق الرسائل كما تجرى على القصور . وملحقات الرؤيا السياسية . والدنيا هي الدنيا والناس هم الناس ، وإن تغيرت سران هذا المنام ثلاثة أيام وفقا لتغير وسائل النشر والتبليغ .

٤ — أما رسائله الشخصية فهي فن من الشعر الوجداني البليغ ، في موضوعات شعرية ما كان يصلح لها غير القصيد ، وأظهر ما كتب في طريق المنام : كل

الوجدانيات : هو العتاب . ولكن أى عتاب ! ان الرجل يتحدث اليوم عن مشاعرنا وعواطفنا وبيننا وبينه عشرة قرون . لقد كان هذا الرجل يفهم الصداقة فهما دقيقا جدا ، والظاهر أنها كانت تتحول فى قلبه الى عشق ، لأنه فى عتابه ينتفس عن قلب العاشق أضعاف ما ينتفس عن روح الصديق . وهو فى عتابه مختلف الأثجان والنوازع : فله أوقات يشور فيها ثورة جارية فيرمى بإخاء من يعاتب فى بحيم النسيان ، كقوله وقد مزج بين العتب والهباء :

”وقد ندمت ... ولكن أى ساعة مندم ! بعد إفناء الزمان فى ابتدائك ، وتصفحى حالات الدهر فى اختيارك ، وبعد تضييع ما غرسته ، ونقض ما أسسته ، فان الوداد غرس اذا امتدح ثرى ثريا ، وجوا غديا ، وماء رويا ، لم يرج زكاؤه ، ولم يحرم ماؤه ، ولم تتفتح أزهاره وهو ... وليت شعري كيف ملك الضلال قيادى حتى أشكل على ما يحتاج اليه المزوجان : ولا يقف ... وهى ممازجة طبع ، وموافقة شكل وخلق ، ومطابقة خيم وخلق ، اليه فيقرظها فى تخان ... ابتلاف ، وحمنا من اختلاف ، ونحن فى طرفى ضدين ، وبين الأصدقاء ... جعلت الأمر وجدت ما بيننا من البعاد ، أكثر مما بين الوهاد ... وصل ... الذى ... والسواد ، وأيسر ما بيننا من النفار ، وأقل ما بيننا من التضار ، فأرتحت لكل ما أوليت ، وأعلان والإسرار “ .

نظائره التى وكلت بها ذك ... طويلة يعاتب بها أبا عبد الله الطبرى ، ولا يتوهمن القارئ أن وهرنى الت ... وقدياب ... ابن العميد خلص قلبه من علاقات ذلك الصديق : وحل وحل ... كان أمثال هذه الثورات : فان المرء لا يغضب مثل هذا والعلى الأحين يهاجم من لا يستطيع الخلاص من أسر وداده ، ودليل ذلك أننا نراه ... معها معاتبة المغلوب فيقول :

”ولو بسيت من الصبر بقية لساوت ، ولو وجدت فى أثناء وجدى مخرجا يتخلله تجلج لأسكت ، فقدمما لبست الصديق على علاقته ، وصفحت له عن هنائه ، ولكنى مغلوب على العزاء

مأخوذ على عادتي في الاغضاء؛ فقد سلّ من جفائك ما ترك احتمال جفاء، وذهب في نفسي من ظلمك ما أنزف حلمي بفعله هباء، وتولى على قبح فعلك في هجر يستمر على نسق، وصد مطرد متسق، ما لو فض على الوري وأفيض على البشر لامتلائت صدورهم ... الخ^(١) .

وكان ابن العميد فيما يظهر موصول القلب بأبي عبد الله الطبري هذا، وقد غالب نفسه في وداده أعنف مغالبة، واستطاع أخيراً أن يتوهم أنه تعزى عنه فكتب إليه في جواب خطاب:

”وصل كتابك فصادقتى قريب العهد بانطلاق، من عنت الفراق، ووافقتى مستريح
الأعضاء والجوانح من جوى الاستيقاق : فإن الدهر جرى على حكمه المألوف فى تحويل
الأحوال، ومضى على رسمه المعروف فى تبديل الأشكال، وأعتقتى من مخالك عتقا لا تدرى
به ولاء، وأبرأتى من عهدتك براءة لا تستوجب دركا ولا استثناء، ونزع من عهدتك عهدا بعدا .

الذل في إخوانك ، بيدي جفائك ، ورش على ما كان يضطرم في ضميري
وشن على ما كان يلهب في صدرى من الوجد ماء اليأس ، ومسح
بجميل الصبر . وتسبب أفلاذ كبدي فلاحم صدوعيا بحسن العزاء
معوّض عن التزاع اليك نزوعا عنك ، ومن الذهاب فيك رجوا
ضبابات ما ألقاه الهوى على بصرى ، ورفع عنى غيابات ما
حدر النقاب عن صفحات شيمك ، وسفر عن وجوه خليفك الكلام على الموت والمعاد ،
إلا مستنكرا ، فوليت منها فرارا وملئت رعبا . فأذهبتني القبور . وملحقات الرؤيا
وردت إليك ذم عندك ! » .

أليست هذه قصيدة رثاء يسكب دمعها على جدث الود المفقود؟
العميد آفتبس أكثر معانيه في هذه الرسالة من روائح الشعر القديم، ولكن
اتصلت هذه المعاني بنفسه أشد اتصال، وكيف جرت على أسلّة قلمه وكأنيّض الفطرة
وجود الطبع، حتى ليخفى ما طرزت به حواشها من آثار الاقتباس.

٥ — ولكن ابن العميد لا يستطيع في كل مرة أن يلقى حبل من يود على غاربه ويرد إليه ذم عهده، فليس القلب في كل لحظة بمطواع حتى يزهد في كل نافر صدوف، وكذلك نجد ابن العميد على قوة نفسه وسعة ماله ورفعة جاهه يقف وقفة الخاشع الذليل فيعاتب بعض إخوانه بمثل هذا الكلام :

”ما هذا التعالى بنفسك، والتعالى على صديقك؟ ولم نبذتنى نبذ النواة، وطرحتنى طرح القذاة، ولم تلفظني من فيك، وتمجنني من حلقك، وأنا الحلال الحلو والبارد العذب، وكيف لا تخطرني ببالك خطرة، وتصيرني من أشغالك مرة : فترسل سلاما إن لم تتجشم مكاتبة، متنبئ كوني فيمن تذكر إن لم تكن مخاطبة . وأحسب كتابي سيرد عليك فتكره حتى تثبت ، وهو بين اسم كاتبه وتصور شخصه حتى تتذكر، فقد صرت عندك ممن يحا النسيان صورته ولا يقف اسمه من صحيفة حفظك . ولعلك أيضا تتعجب من طمعي فيك وقد توليت ، إليه فيقرظها في خانة ، ولا عجب فقد يتفجر الصخر بالماء الزلال ، ويلين من هو أفسى الأصدقاء . وأخر ما أقوله أن ودي وقف عليك، وحبس في سبيلك، ومتى ربا، بخبره في المعاودة فإنه في العود أحمد“ .^(١)

”وصل كتابك الذي ، فأرحت لكل ما أوتيت ، وأصدر أمثال هذه المكاتبات الرقيقة عن وزير؟ ونجيه بأننا نرجح نظائره التي وكنت بها ذكركم الغضة في صباه . على أننا لا نستكثر أن تصدر عنه وهو وزير، وبهرني التمسح من قلبك وجدانية تلقى على حياتهم ظلالا من الرفق والحنان، خصوصا وحل وحل أن كلمة ”وزير“ كان يلحظ فيها دائما معنى ”كاتب“ وكان الإبداع في الكتابة والى الأساسية في الوصول إلى مناصب الوزراء .

ومما يؤيد ما ذهبنا إليه أن ابن العميد كتب إلى عبد الله الطبري كتاب نصيح يدل على معرفة وبصر بالشؤون السياسية، كتبه حتما بعد أن اتصل بالملوك والرؤساء . والطبري

هذا هو صديقه الذى حدثاك آنفا عن معاتبته إياه فى نفحات وجدانية تم عن ود رقيق ،
وفى هذا ما يشعر بأنه ما كان يتورّع وهو فى أوج مجده عن بث نوازع القلب والوجدان .

وانه ليشرح لصديقه ما يجب أن يتحلى به فى الحياة الرسمية فيقول بعد تمهيد :

”وأركب فى الخدمة طريقة تبعدك من الملل ، وتوسطك فى الحضور بين الإكثار
والإقلال ، ولا تسترسل إلى حسن القبول كل الاسترسال ، فلأن تدعى من بعيد خير من أن
تُقضى من قريب . ولكن كلامك جوابا تتحزّز فيه من الخطل والإسهاب ، ... ولا يستفرك
طرب الكلام على ما يفسد تمييزك . والشقاعة لا تعرض لها فانها مخلقة للجاء ، فان اضطرت
إليها فلا تهجم عليها حتى تعرف موقعها ، وتحصل وزنها ، وتطالع موضعها ، فان وجدت
النفس بالإجابة سمحة ، وإلى الاسعاف هشة ، فأظهر ما فى نفسك غير محقق ، ولا تؤمّر
عليك فى الرد ما يوحشك ، ولا فى المنع ما يغيظك ، ولكن انطلق وجهك إيجابا بعيدا .

حاجتك أكثر منه عند نجاحها على يدك ، ليخف كلامك ولا يثقل على وجهي وقبلي ونقل
وهذا الصديق الذى يوصيه ابن العميد بالرفق فى مصاحبة الأُمّة

الذى وصفه بالبعد عن الأواصر الغريزية التى توجب المودة : من جبات الخطين ، ورؤيا
الشكل ، ومطابقة الخلق . وتلك كما قلنا علالة يوهم بها ابن العميد رسول حين تراءى له فى يومه
الصديق ، وإلا فقد رأيناه فى كلمة ثانية يذكر أنه صنو نفسه فيقول كلام على الهوى والمعاد ،
” لكن ما بقى أن يصفولى عيش مع بعدى عنك ، ويخلو ذرعاً قبور . وبملحقات الرؤيا
لى مطعم أو مشرب مع انفرادى دونك ، وكيف أطمع فى ذلك وأنت جزء من نفسك جتذاب
لشمل أنسى ، وقد عدمت رؤيتك ، وحرمت مشاهدتك . وهل تسكن نفس ثم ثلاثة أيام
انقسام ، وينفع أنس ميت بلا نظام ؟ “ .
(٢) قليل : كل

٧ — وما أمتاز به ابن العميد إجادة الرسائل الاخوانية ، وهو فن برع فيه كتاب القرن
الرابع وصبروه سنة يحرى عليها الأصفياء والألاف . وقد تأملت فرأيت معانى ابن العميد صارت

وردا سائفا لمعاصريه كالميكالى والبيغا وبديع الزمان . وليس غريبا أن يصير قدوة في هذا الباب : فقد كان له دين ضلوعه قلب وفي أمين ، وكان يتحدث في الصداقات والمودات عن ود صادق ووفاء صريح . وقد كنا نعجب لخيال ابن زيدون إذ يقول :

بُدى منارك حين شط به النوى وهم أكاد به أقبل فاك
حتى رأيناه ممثلا أوضح تمثيل في قول ابن العميد :

”قد قرب — أيدك الله — محلك على تراخيه ، وتصاقب مستقرتك على تنائيه ، لأن الشوق يمثلك ، والذكر يخيِّلُك ، فنحن في الظاهر على اقتراق ، وفي الباطن على تلاق ، وفي التسمية متباينون ، وفي المعنى متواصلون . ولئن تفارقت الأشباح ، لقد تعانقت الأرواح“ .
وهو معنى جيد آتته البيغا في إحدى رسائله الاخوانية^(٢) .

ولا يقف ابن العميد في ملاطفة إخوانه عند هذا الحد ، بل يتأنق في وصف كتبهم إليه فيقرظها في مخان هو أشبه بالنسيب ، كقوله في وصف خطاب وصل إليه من أحد الأصديقاء :

”وصل كتابك الذي وصلت جناحه بفنون صلاتك وتفقدك ، وضروب برك وتعهدك ، فارتحت ليكل ما أنزلت ، وأبتهجت بجميع ما أهديت ، وأضفت إحسانك في كل فصل إلى نظائره التي وكلت بها ذكري ، ووقفت عليها شكرى . وتأملت النظم فلكنى العجب به ، وبهرنى التعجب منه . وقد رمت أن أجرى على العادة : في تشبيهه بمستحسن من زهر جنى ، وحل وحلى ، وشذور الفرائد ، في نحر الخرائد :

والعذارى غدون في الحلل البيض وقد رحن في الخطوط السود

فلم أره لشيء عدلا ، ولا أرضى ما عدته له مثلا ، والله يزيدك من فضله ، ولا يخليك من إحسانه ، ويلهمك من بر إخوانك ما تتم به صنعك لديهم ، ويرب معه إحسانك إليهم“^(٣)

(١) زهر الآداب ج ٣ ص ١٨٧ (٢) أنظر صبح الأعشى ج ٩ ص ١٤٤ (٣) ص ١١٢ ج ١

وقد يُغلب على أمره فيختم خطابه بكلمة تعرف منها صراحه أن إعجابه بالمكتوب صورة
لإعزازده تلكاتب، كقوله في خاتمة خطاب :

”وقد قرأت كتابك — جعلني الله فداك — فامتألت سرورا بملاحظة خطك، وتأمل
تصرفك في لفظك، وما أقرضتهم فكل خصالك مقرظ عندي، وما أمدحهما فكل أمرك
ممدوح في ضميري وعندي : وأرجو أن تكون حقيقة أمرك موافقة لتقديرى فيك، فإن كان
كذلك وإلا فقد غطى هواك وما ألقى على بصري“^(١).

هذا ولأبن العميد رسائل في الحب تضارع في روعتها قصائد التشبيب وتتصل برسائله
الإخوانية أوثق اتصال، وله في التهاني رسائل تغلب عليها الصنعة، ولكنها كأكثر نثره قوية
محكمة تدل على صاحبها وتذكر بأدبه البارِع وإطلاعه على ما أنشأ الأقدمون من أفانين البيان،
وما نحسب معاصريه أسرفوا في مجاملته حين لقبوه بالأستاذ الرئيس .

(١) رمر الآداب ص ١٨٠ ج ٤

٣ - أبو حفص بـ برد

١ - أبو حفص أحمد بن برد الأكبر كاتب أندلسي من أقطاب النثر الفنى فى القرن الرابع، توفى بسرقسطة سنة ٤١٨ هـ كما فى الذخيرة^(١) وإرشاد الأريب^(٢)، لاسنة ٤٢٨ هـ كما وقع خطأ فى كتاب الدكتور أحمد ضيف عن بلاغة العرب فى الأندلس . وقد عاش ابن برد نحو ثمانين سنة، ولكن أخباره ضاعت فلم يعرف منها إلا القليل ، مع أنه كان من أشهر الوزراء فى الأيام العاصرية .

٢ - ولم نجد على كثرة البحث ما يعين مذاهب ابن برد الأدبية . وقد اكتفى أكثر من عرضوا لترجمته بالعبارات الفضفاضة التى لا تحدد شيئاً : فذكر ياقوت أنه كان "كاتباً بليغاً"^(٣) وذكر ابن بسام أنه كان فى زمانه "واسطة السلك، وقطب وحى الملك" وأنه "برز على نظرائه وأشكاله" وأنه "كتب عن عدّة من الأمراء فأسمع الصم بيانا ، واستنزل العُصم إبداعاً وإحساناً"^(٤) وذكر صاحب المطمح أنه "غذى بالأدب، وعلا الى أسمى الرتب" وأنه "بديع الإحسان، بليغ القلم واللسان" وأنه "مايح الكتابة، فصيح الخطابة"^(٥) ونخر حفيده ابن برد الأصغر بالانتساب اليه فقال :

من شاء خُبرى فأنا ابن برد	حدّ حسامى قطعة من حدى
وأرفع الناس بناءً جدى	من نظم الألفاظ نظم العقد
ونقد الكلام حق النقد	وكف بالأقلام أيدى الأسد ^(٦)

وهذه كلها صفات تدل على عظمة ابن برد فى أنفـس من قرأوا له ، وكتبوا عنه ، ولكنها لا تعين منحاها فى مذاهب البيان .

(١) ج ١ ص ٤٩ (٢) ج ٢ ص ١٠٦ (٣) ج ٢ ص ١٠٦ (٤) ج ١ ص ٤٩

(٥) أنظر فتح الطيب ج ٢ ص ٣٦٧ (٦) الذخيرة ج ١ ص ٢٥٧

٣ - وعذر من ترجوا لابن برد أن معظم رسائله كان ضاع ، حتى أن مواطنه بن
 بسام على قرب عهده به صرح بأنه لم يجد من رسائله إلا ما لا يكاد يعرب عن فضائله ،
 وربما كان ذلك هو السبب فيما وقع لبعض كتاب التراجم من الخلط بين آثار ابن برد الأكبر
 وابن برد الأصغر . فإنا نجد صاحب المطمح ينسب رسالة السيف والقلم الى ابن برد الأكبر^(٢)
 وينسبها ياقوت الى ابن برد الأصغر^(٣) - والأبيات الآتية :

لما بدا في لازور دى الحرير وقد بهر
 كبرت من فرط الجمل ل وقلت ما هذا بشر
 فأجبنى لا تتكرن ثوب السماء على القمر

نسبها صاحب المطمح الى ابن برد الأكبر^(٤) . ونسبها ياقوت الى ابن برد الأصغر^(٥) .

٤ - تولى ابن برد رياسة ديوان الإنشاء لمحمد بن عبد الرحمن المستكنى ، وكتب
 كذلك لعدد من الأمراء ، فكان لتولي رياسة ديوان الإنشاء أثر قوى في حرصه على أدوات
 الكتابة ، وكانت تلك الأدوات مما شغل كتاب القرن الثالث والرابع : فكتب فريق منهم
 كتباً خاصة فيما يجب أن يراعيه الكاتب ، كما فعل ابن المدبر حين ألف "الرسالة العذراء" وإنا
 لنجد أن رد يكتب عن المظفر بن أى عامر رفعة وجهها الى القواد والكتاب فيقول :

"وس أعجب العجب ما يحترى عليه بنض خدمتنا من نبذ عهدونا . ولا أحسب الذى
 عرهم بما إلا ما وهب الله تعالى لنا مع القدرة من الحلم والكظم ، وقد كانت سجية غالبية ،
 وحليقة لازمة ، فرب شيع تحت نخيل السماء . وكم غصص فى شتى الغذاء ، ومن شرق فى نير
 الماء ... ونصب أعينكم عهد المنصور صدره التوبيع باستكتاب الجهلة ممن قلت معرفته ،
 وأنضعت همته ، ولم يبلغ أن يحكم الخط فيقوم حروفه ، ويراعى المداد فيجيد صنعته ، ويميز
 الرق فيحسن اختياره ، وعززه العزم النافذ ، والحكم الصادع ، بأن تكون صدور كتب

(١) الأخيرة ح ١ ص ٤٩ (٢) راجع فتح الطيب ص ٣٠٧ ج ٢ (٣) ص ١٠٦ ج ٢

(٤) فتح الطيب ص ٣٦٨ ج ٢ (٥) ص ١٠٦ ج ٢

الاعتراضات وعنوانها وتواريخها والأعداد في رؤوس غصونها بخطوط أيدي القواد والعمال ، من كان منهم كاتباً فليكتب بيده ، ومن لم يكتب فيخط كاتب معروف بالخط عنه ، وأن تكون تسمية طبقات الأجناد فيها قائمة الخطوط ، بينة الحروف ... على أنه إن ورد لأحد منهم بعد وصول العهد إليه كتاب اعتراض عمل في رق ردىء ، أو خط فيه لحن ، أو كتاب على بشرى في عدد ، أو رسم مالم يخف أو يقع في بشر الكتاب ... فيعاجل بعقوبة العزل^(١) .

ولم يكتف بذلك ، بل مضى يقول :

”وإن قوماً منهم عادوا لما نهوا عنه : فكتبوا الخط الرقيق في ذنى الرقوق ، رقة من همهم ونداءة في اختيارهم ، وجهلاً بأن الخط جاء الكتاب ، وسلك الكلام : به ينتظم مشوره وتفصل شذوره ، ونبله من نبل صاحبه ، وهجته لاحقة بكتبه ، إلى ما أقترفوه من العصيان ، وأقدموا عليه من خلاف السلطان ، وأنا أعطى الله عهداً لئن ارتفع إلى بعد بلوغ عهدي هذا أقصى حدود المملكة وانتهائه أبعد أقطار الطاعة كتاب على الصفات المذمومة : من رق أو ممداد أو خط لأئين لصاحبه بما قدم إليه من الوعيد“^(٢) .

وهذه الفقرات تمثل رأى الكاتب قبل أن تمثل رأى من كتبت باسمه ، وهى مظهر من عناية ابن برد بأدوات الكتابة وأدب الكتاب .

هـ — وقد حفظت عن ابن برد رسائل تصور ما كان من النزاع بين العرب والبربر في الأندلس . ودراسة ما كان بين هذين العنصرين من الفتن والمنازعات باب من أهم أبواب التاريخ الأندلسي ، ولها كذلك نفع في تحديد الاتجاهات الأدبية في تلك البلاد . والبربر يسمون «العبيد» أحياناً في لغة ابن برد ، ولانستطيع أن نفترض غير ذلك : لأننا لا نعرف عصبة ناوأت العرب في الأندلس غير عصبة البربر ، وقد كتب ابن برد على لسان سليمان بن الحكم عدة رسائل الى من سماهم ابن بسام «جماعة العبيد» جاء في إحداها :

” ولم تزل الأئمة مقبلة على موالها مختصة لبيدها تقدمهم في الثقة، وتقربهم بالمودة، وتعدّهم لحوادث الأمور، وتقذف بهم في معضلات الخطوب، فيتولون من اجتهدهم لهم ما أوجب لهم منهم المحبة، حتى شرف القوم ونبلوا، وسما ذكركم، ونسبوا إلى مشهور أنسابهم، ومذكور بيوتاتهم .. وقد أفضى الأمر إليكم معشر الموالى، وهذا اسمكم وقد رفع الله عنكم العبودية به، وأخرجكم عن رق الملك، وصيركم منا، وخلطكم بنا، وأفضى بأنسابكم إلينا، والولاء لجمّة، ومولى القوم منهم، ملعون من أنتى لغير أبيه، أو ادعى غير مواليه، هذا حكم الاسلام، على لسانه عليه السلام. وأما حكم الدنيا وسيرة أهل السداد والصلاح فيها فلا يجزئ أيضا، إلا أن يكون ضلعكم معنا، وميلكم إلينا وتعصبكم لنا، فنحن أحق الناس بكم، وأجدر أن نعمل عمل آبائنا في أمثالكم من مواليسهم، فان نقسم حالا وزقت الشمل، أو لقيتم أمرا صدع الجمع، فتلك الفتنة التي يعق فيها الابن أباه، ويقتل لها المسلم أخاه... ولعلنا فيما ساءكم من تلك الهنات، ونالكم من الفجعات، أوجع قلوبا، وأشد غموما، فسبحان من لو شاء لأطلعكم على غيبنا وعرفكم إشفاقنا عليكم. وكيف لا يكون ذلك كذلك، وما زلتم الشعار والدثار: لا تؤثر عليكم، ولا تنق إلا بكم، فان يكن الشيطان قد نزع بما نزع به بين أبى آدم ومن بعدهما من ذريته فقد آن أن تثوب الخلوم: فتعود السيوف في أغمارها، والنبال في كائناتها. ونحن نعاهد الله أن لا نؤاخذ أحدا بذنب، ولا نناله بعقوبة، ولا نطوى على إحنة، بل نغفو ونصفح“^(١).

ونجد في رسالة أخرى حديثا عن كتاب وجهه زعماء البربر إلى سليمان يصرحون فيه بأن خلافة الأمويين مادامت إلا بطبقته، ولا عزت إلا بدعوتهم، ونجد ابن برد يمتن عليهم باسم سليمان فيذكر أن طبقته لم تظفر إلا حديثا، وأن عددهم لم يكثر إلا قريبا، وأنه أدخلهم في الدين وأستندهم من الضلالة، وأخرجهم من الكفر، ثم اصطنعهم ونوّه بهم بالتصرف في الخدمة، إلى أن يقول:^(٢)

”وأقسمت على أن من حبسه من رؤسائكم كان أولى بالسياسة، فأني لكم ذلك؟ وإنما أنتم مدبرون مسوسون، وأتباع مريبون، وبناء التدبير نازح عنكم، والسياسة القويمة محجوبة دونكم، ومتى بلغكم عن عبد ثرب على مولاه فأفلح، أو سمعتم بجند شغب على مدبريه فأنجح، والله تعالى ودينه وخلائفه في غنى عن عند عليه وحاده، وأنجر في الاسلام وشاقه، ونخرج عن الجماعة، وشق عصا الإمامة، وأستخف بحقوق الأئمة، ونازع الأمر أهله. ولولا أن أمير المؤمنين يعلم أن ملائكم لم يجتمع على هذا الكتاب، وأن أهل السداد منكم لم يرضوا هذا الخطاب، لكان له في ذلك نظريقيم الأود، ويعدل الميل... وأعلموا أن السداد والحلم والكظم من أخلاقه، والرفق والأناة من شيمه، فأقبلوا أدبه، وانتفعوا بموعظته، فلو كشف لكم الغطاء، واجتلى عليكم الغيب، لعلمت أن أمير المؤمنين لا ينأ عن مصالحكم ولا ينفي في منافعكم، ولا يسعى إلا فيما يرد ألفتكم، ويجمع كلمتكم“.

وهذا كله كلام طيب، ولكن أين دلالاته على قوة ابن برد النفسية؟ إنه كلام كسائر مأسطر كتاب الدواوين، فليس فيه اتجاهات فلسفية ولا اجتماعية أكثر مما كان يكتب عادة على ألسنة الأمراء والسلاطين، وقد اتفق لابن برد أن يجهد نفسه في الكلام عن معنى الرعية فلم يزد على أن قال:

”إن الرعية من السلطان بمكان الأشباح من الأرواح، وسلاحها وفسادها متصلان، ونماؤها وتقصانها منتظان: إذ كانت الرعية عنصر المال، ومادة الجباية، وفيهما قوام الملك وعن السلطان، ورزق الأجناد التي بها يقاتل العدو، وينصر الدين، وتحمي الحرم“.

وهذا أيضا كلام طيب ولكنه أقل مما سبق إليه في مثل هذه السطور.

٦ — وقد اقترن اسم ابن برد في تاريخ الأندلس بكتابة العهد. عهد الخليفة المؤيد بالله هشام بن الحكم الأموي، وكان لهذا العهد صدى في كتب المتأخرين. تحدث عنه ابن بسام والمقرئ والقلقشندى وابن خلدون. وليس لهذا العهد قيمة إلا من الوجهة التاريخية لمن

فيه من الدلالة على صولة العامرين وضعف الخلفاء ، ولكنه من الوجهة الأدبية والنفسية دليل على أن ابن برد كان من أتباع الغالب على أى حال . ألم يذكر على لسان هشام أنه " بعد أطراح الهوى ، والتحرى للحق ... وبعد أن قطع الأواصر ، وأسخط الأقارب ، لم يجد أحدا أجدر أن يوليه عهده ، ويفوض إليه الخلافة بعده ، لفضل نفسه ، وكرم خيمه ، وشرف مرتبته ، وعلو منصبه ، مع تقاد وعفافه ومعرفته وحزمه وتقافته : من المأمون الغيب ، الناصح الجيب ، أبي المطرف عبد الرحمن بن المنصور " .

ولم يقف ابن برد عند هذا ، بل استرسل فزعم أن ذلك القحطاني المتسلط هو الذى أشار إليه الحديث النبوى الذى يقول " لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قُطان يسوق الناس بعصاه " فكان ابن برد على هذا من أنصار " التهرج " فى الوضع والتأويل !

٧ - ومن أسوأ ما وقع لابن برد كتابه عن المظفر حين قتل وزيره عيسى بن سعيد (١) وهو كتاب فاجر جاءت فيه هذه الكلمات :

"أيها الناس ! ان من علم منكم حالة الخائن عيسى بن سعيد بالمشاهدة ، ورأى النعمة عليه بالمحاضرة ، فقد اكتفى بما شاهد ، وأجترأ بما حاضر ، ومن غاب عنه ذلك من عوامكم : لا تراحم منزلا ، أو لاتصال شغل ، فليعلم أننا أخذناه من الحضيض الأوحد ، وانتقلناه من شظف العيش الأنكد ، فرفعنا خسيسته ، وتمننا نقيصته ، وخولناه صنوف الأموال ، وصيرنا حاله فوق الأحوال ، فلم يقم لله بحق ، ولا قابل إحسانه بصدق ، ولا عامل رعيننا برفق ، ولا تناول خدمتنا بحق ، بل أعلن بالمعاصى ، واستذل الأعززة وذوى المروءة ، ونافرهم ، وأنس بأضدادهم ، ونبذ عهودنا ، وخالف سبلنا ، وكدر على الناس صفونا ، حتى اذا ملكه الأشر ، وتمادى به البطر ، وعلت به الأمور ، وغره بالله التورور ، حاول شق عصا الأمة ، وهد ركن الخلافة والأمانة ، بما أحتيج من حرام المال ، واستمال من طعام الرجال ، فحجته نعمنا عنده ، وخصمته عوارفنا لديه ، وكشف لنا سر نيته حتى صرعه بغيه ، وأسلمه غدره ، وأخذ الله بما اجترم ، وأوبقه بما اكتسب ، فاعجلناه عن تدبيره ، وصار الى نار الله وسعيه " .

وإنما وصفنا هذا الكتاب بالفجور لأن ذلك الوزير أخذ للقتل من مجلس شرا به وكان فيه أبو حفص بن برد، ولو صدقنا ابن بسام لكان ذلك الوزير من صرعى النائم والوشايات.

٨ — وخلاصة ما سلف أن ابن برد كان قوة أدبية ، وكان من كبار الكتاب في دولة العامريين ولكن أدبه ضاع في الدفاع عن الحق حيناً ، والتزلف الى الباطل أحياناً . وكان لا يعرف ما يأتى وما يدع : لأن ظروف السياسة لعهد لم تكن تمكن كاتباً ولا شاعراً من أن يكون أدبه صدى لخالص النية وطاهر الوجدان . وكان ابن برد كاتباً ووزيراً ، والكتابة والوزارة وسيلتان من وسائل الظلم والبغى عند من تغويهم منافع العيش ، وتضلهم أباطيل هذه الدنيا الغرور .

٩ — وهذا الجانب النفعي هو الذى عرفناه أو عرفنا رسومه من ابن برد، لأن من ترجموا له لم يجدوا فيما يظهر غير بقايا من رسائله الرسمية، أما اللون الجميل من أدب الكتاب الذى يتحدث عن الاخوانيات وعن أنفس الكاتبين فى صدق وإخلاص فلم تبق منه بقية شافية، لأن الأدب السياسى كان طغى على ما سواه من ألوان الأدب فى تلك الأيام ، ولأن الشعر كان استبد أو كاد بالحديث عن سرائر النفوس ، ودقائق الأحاسيس ، وما كان الناس ينتظرون أن يحدثهم الشعر إلا عما يصدر عن الخلفاء والأمراء والوزراء من رقاع الإغراء والوعيد . وكذلك استذل الكتاب حيناً لأهواء المسيطرين : فلم يكن أدبهم صورة لنفوسهم وقلوبهم وأذواقهم ، وإنما كان فى الأغلب صدى لجلجلة الاستبداد والطغيان . وآفة الأدب أن يكون صدى لغير ما يجيش فى صدور الكرام من نوازع الصدق واليقين .

٤ - أبو المغيرة بن حزم

١ - في الأصل الفرنسي فصل عن أبي عامر بن شهيد. وكان لذلك الفصل أثر طيب في تقويم الكاتب ؛ لأن ابن شهيد من الأعلام التي لم يتنبه اليها المستشرقون الفرنسيون . أما الرجل الذي أتحدث عنه في هذا الفصل فهو شخصية قوية جذابة لم يتنبه اليها أحد من الباحثين ؛ ولم يُعرف عنها كثير ولا قليل ، وهو ابن حزم ! وهنا يلتفت القارئ باسمنا بسمة السخرية : لأن ابن حزم معروف ، طَبَّقَ صيته الشرق والغرب ؛ فلنسارع إذن بتقرير ما هذان اليه البحث من أن "ابن حزم" يطلق على شخصين أحدهما معروف وهو أبو محمد علي بن أبي عمر أحمد بن سعيد الفقيه الأديب ، وثانيهما مجهول وهو أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم الشاعر الكاتب ؛ وهما من بيت واحد وابنا عم ، ويمكن الحكم بـ أن أولهما أفتقه وأعلم ، وثانيهما أكتب وأشعر .

٢ - لم أجد من المصادر ما يغني في تحديد الزمن الذي عتسه أبو المغيرة بن حزم ، ولكن من المؤكد أنه شهد سرار القرن الرابع وبغى القرن الخامس ، ومن أخباره أنه تولى الوزارة للمستظهر بالله عبد الرحمن بن هشام ، وربما كان السبب في نحوله أنه اعتبط شاباً "ولو طال به مداه" لم يذكر معه سواد" كما قال ابن بسام ، يضاف أن ذلك أن شخصية ابن عمه أبي محمد بن حزم طغت عليه فُغِرْقَتْ في لجج من النسيان . ومن عجيب المصادفات أن أبا محمد كان يتوقع له هذا النحول ، ذلك بأنه جرت بينهما مقارعات فكتب اليه أبو محمد يقول :

كفاني بذكري الناس لي وما ثرى ومالك فيهم يا ابن عمي ذاكر

(١) أبو المغيرة بن حزم هو عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن (منح الضيب ج ٢ ص ٨٠ - ١٠ ص ١٠٨ ص ١٠٨) ص ١٠٨ (ص ١٠٨) وجاء في النسخ (ص ١٨٥ ج ١) أن أبا محمد بن حزم دارس الأصل وليس من « بني حزم » وهي أسرة عربية أندلسية .
 (٢) قال المقرئ في الحديث عن المستظهر : " وكان قد رفع جماعة من أتباع ذهب بهم العجب كل مذهب كأي عامر ابن شهيد المهلك في بطلانه ، وأبي محمد بن حزم المشهور بالرد على الغلباء في مقاله ، وابن عمه عبد الوهاب بن حزم الغزل المتوفى في حاله " فتح الضيب ج ١ ص ٣١٩ (٣) استنبط بالبناء مجهول : مات .

عدوى وأشياعى كثير كذاك من غدا وهو نفاع المساعى وضائر
ومالك فيهم من عدو فيتنى ولا لك فيهم من صديق يكائر
وقولى مسموع له ومصداق وقولك منبت مع الريح طائر
وانى وان آذيتنى وعققتنى لمحتمل ما جاءنى منك صابر
وقد أجابه أبو المغيرة بقصيدة لازعة نكتفى منها بهذه الأبيات :

وغاصب حق أوبقتَه المقادر يذكرنى حاميم والريح شاجر
غدا يستعير الفخر من خيم خصمه ويجهل أن الحق أبلغ ظاهر
ألم تتعلم يا أخا الظلم أننى برعمك ناه منذ عشر وأمر
تذلل لى الأملاك حر نفوسها وأركب ظهر النسر والنسر طائر
وأبعث فى أهل الزمان شواردا تؤلفهم وهى الصعاب النوافر
فان أثو فى أرض فإننى سائر وإن أنا عن قوم فأنى حاضر

والذى يوازن بين هاتين القطعتين يتبين أن شعر أبى محمد يشبه شعر الفقهاء، وهو من رجال الفقه والأصول، وأن شعر أبى المغيرة يسمو به الى طبقات الفحول من الشعراء .
٣ - والواقع أن أبا المغيرة كان مفتونا بالدراسات الأدبية، ومصروفا عن الدراسات الفقهية، حتى لنجده يسخر من علوم ابن عمه فيقول :

” نسيت أبا محمد حاشيتك وشيعتك التى صرت رئيس مدارسهم ، وكبير أحراسهم ،
تحدثهم عما كان فيهم من العبر ، وتجبرهم بما تعاقب عليهم من الصفاء والكدر ، فتارة عن
السامرى والعجل ، وتارة عن القمل والنمل ، وطورا تبكيهم بحديث التيه ، وطورا تضحكهم
بقوم جالوت وذويه ، حتى كأن التوراة مصحفك ، وبيت الحزان معتكفك “ .

وهذا التعريض يذكرنا بما أخذ ابن شهيد على الجاحظ من الاهتمام بغرائب الزواحف والدواب^(١) .

٤ — وليس هذا كل ما يميز ابني حزم أحدهما عن الآخر في اتجاه الأدواق، بل يحدثنا ابن بسام بأن أبا المغيرة "كان أنبه من أبي محمد في حضور شاهده، وذكاء خاطره، وحسن هيئته، وبراعة ظرفه، وجودة أدبه".

وتلك صفات كان يتميز بها الأديب على الفقيه في أكثر الأحيان.

٥ — تدل أخبار أبي المغيرة ورسائله وقصائده على أنه كان دقيق الحس في اختيار أطيب الحياة، وفي كلامه فقرات في الدعوة إلى مجالس الأنس تذكر بأدباء الشرق كالميكالي وابن العميد، ولننظر كيف يقول:

"والأرض قد نشرت ملاءها، وسحبت رداءها، وليست جلبابها، وتقلدت سبحها، وبرز الورد من كمامه، واهتر الروض لتغريد حمامه، والأشجار قد نشرت شعورها، وهزرت رؤوسها، والدنيا قد أبدت شمسها، وأماطت عبوسها، وكأني بها قد أطلعت من كل ثمر ضروبا، وأبدت من جناها منظرا عجيبا، وإن كنا لا نشارك في تلك إلا باللسان لا بالبيان، وبالطرف لا بالكف، وللدهر قسم من أقسام اللذة، وصنف من أصناف الشهوة:

شهدنا إذ رأيناهم بأنا على اللذات في الدنيا شهود^(١)"

٦ — على أنه كان — كسائر من تفويهم شهوات الحواس — سيئ الظن بالناس، لأن الخلق لا تتكشف طبائعهم إلا لمن يأنس اليهم في مجالس السلاف وملاعب الجمال، ومن أجل ذلك نراه ينظر إلى العالم نظرة مُشرّبة بالتحفظ والكتان، ويقرر أن في الاحتواء حسم الداء، وأن لا عدو للإنسان إلا نفسه، ولا حية ولا عقرب إلا جنسه، ثم يقول:

"وليس في الحيوان أخبث من الإنسان، فالاحتباس كل الاحتباس، والمعاشرة الجميلة للناس، لا تُلدَغَنَّ من حجر مرتين، واذكر المثل السائر في الملاعب بين وتدين، والعاقل من حملة كل بلد، وثق عند كل أحد، وأعقل منه من عرف الناس، ولم يعرفوه، فاستراح من أجنبي متكلف، إلى قريب غير منصف، ولم ينتقر إلا إلى ربه، ولم يأنس إلا بنور لبه^(١)".

وهذه الفقرة تمثله كأحكم الحكماء لو كانت الى السلامة من شر الناس سبيلا . ولكني ما أحسبه دعا تلك الدعوة الا بعد أن رأى وذاق كيف يكون الغدر والخيانة والعقوق ، لأن الحكماء لا يعطون إلا بعد أن تكوى أيديهم وتشعل رؤوسهم وهم يقاسون ما تطوى عليه صدور الأصحاب والآلاف والأصدقاء من مظلمات النيات ومنكرات الأغراض ، والطبيعة الانسانية لثيمة تبيح كل شر ، وتسمح بكل بغيض من جنى اللؤم ممقوت ، ويكاد الرجل لا يلقى الشر إلا من أصفياهه ولا ينجى الشوك إلا حيث يفرس الأزهار والرياحين .

٧ — على أن له — مع سوء ظنه بالناس — كلمات تكشف عن تعلقه بأصدقائه ، وحنينه اليهم ، وعطفه عليهم ، فنراه يقول في بعض رسائله :

”وما أعلم نائبة كفراقك أهذا لمن ، ولا نازلة كئنايك أجلب لحزن ، وما كنت أريم ربك لو كان لي الخيار ، أو أبرح منزلك لو ساحتني الأقدار“ .

ويقول من رسالة ثانية :

”وان رأيت تأنيسي بكتاب أجتلى منه وجوه البدور ، وجواهر النجور ، ودرر الثغور ، وأجنتي ثمر السرور ، وأرتع منه في رياض العلوم ، ما بين منثور ومنظوم ، نفست خناق مشتاق ، وأنست من وحشة الفراق ، منفردا غربيا بحيث لا أخ كريم ، ولا صديق حميم ، فقد صرت ولا أحيل على الأثر بعد العين ، كما قال أحمد بن الحسين :

ما مقامى بدار نخلة إلا ك مقام المسيح بين اليهود“

وللقارئ أن يلاحظ أن ما اختراه من الرسالة الثانية يصرح بضجر أبى المغيرة وتبرمه بالوجود ، اذ يعيش منفردا غربيا بحيث لا أخ كريم ، ولا صديق حميم . وتلك غاية في البؤس والشقاء لأديب لا غنى لروحه عن حلاوة المودة وعذوبة الوفاء .

٨ — وقد حملته ضجره على الاكثار من شكوى الزمان ، فتارة يشكو غربته قومه

في الأندلس وانصراف أهل الشرق عن علومهم وفنونهم وآدابهم فيقول :

”لقد نادينا لو أسمعنا، وطربا لو وقعنا، وما أشبهنا بالغريبة التي خيرها يدفن، وشرها يعلن،
يتعب أحدا نفسه، ويذهب حسه، ويعارض السيف بفهمه، والبحر بعلمه، والنار
بذكائه، والزمان بمضائه، ونتائج فكره محجوبة. وبنات صدره غير مخطوبة، إن يسمعو
ربة طاروا بها فرحا، وإن رأوا فضيلة وجوا لها ترحا“^(١).

وتارة يتحدث عن بلائه بالناس فيقول :

«بانعكاس الزمان، انعكست أمثال البيان، كما روى عن الفتى المدعى للكتابة عند عمرو
ابن مسعدة أنه عاياه بكتاب من صاحب البريد بنخبر بقرة ولدت غلاما فأنشأ خطبة مفتحتها
”الحمد لله خالق الأنام، في بطون الأنعام“ بغذب الرقعة من يده وبالغ في إجزال صفده.
وإذا تأملت انقلاب الزمان، وما وقع لى مع فلان انقلبت الخطبة فصارت ”الحمد لله خالق
الأنعام، في بطون الأنام“ وكما قد كشفت عن عوراته، وما زالت مكشوفة، وعرفت بسوآته،
وما زالت معروفة، إخبارا عنه، وتحذيرا منه، وإعلاما بما يستره ذيله، ويشتمل عليه ليله،
من قبائح يجلبها العار، ويكتبها الليل والنهار».

وأصرح من هذا قوله في وصف غدرات الأيام :

”خفين شمع بالظفر أنقى، واحتر لنيل الأمل عطفي، والدهر يضحك سرا، ويتأبط سرا،
وقد أذهلنى الجذل عن سوء ظنى به، وأوهمنى نزوعه عن ذميم مذهبه، أت ألوانه، وفسا
ظربانه، ونادى ليقيم من قعد، ويتنبه من رقد، انما فترت تلك الفترة، ليكون ما رأيت عليك
حسرة، وسمحت لك مرة، لتذوق عليها كأسا مرة، فرأيت وقد غطى على بصرى، وعقلت
وكنت في عمية من ظفرى، وقلت هو الذى أعهد من لؤمه، وأعرفه من شؤمه : ما
وجب الا سلب، ولا أعطى الا ساعة كابهام القطا، فياله من قادر ما ألأم قدرته، وذابح
ما أخذ شفرتة“.

٩ — وقد قاده هذا المزاج الى الإقذاع في الهجاء. وله في الظم فقرات مكشوفة يتقزز منها القارئ، وقد ختم إحدى أحاجيه بهذه العبارة "قبح الله زمانا يقرب الى اللئيم حصانا، وإلى الكريم أمانا" وربما كان أقبح أحاجيه ما قارع به ابن عمه أبا محمد بن حزم، كقوله يصف كتابا وصل اليه منه "معنى كصدا الأسنان، ولفظ كنفحات الأكفان، وأعراض لا مدب فيها لسهم مقرطس، وأعلام لا وضع فيها لصبح متنفس، ورطانة تمجها الأسماع، وتخبوها الطباع، فوقفت متبلا، وعدت على نفسى وقريحتى مترددا، فقلنا أيها الانسان، لست بالنبي سليمان، متى وعدناك أن نفهمك كلام النحل، وسرار النمل؟ ألم نسلك بك شعاب الكلام فتغلغل؟ ألم تسر في صحرائه فأوغلت؟ ألم تجل في ميدانه فسبق؟ ألم تسرف في ظلماته فأشرفت؟ هل أحسست بنكول جنان، أو قصور لسان، فيما نظمت كالعقود، على ترائب الفتاة الرود، وثرت كالنجوم، في صفحة الليل البهيم، فقلت: بلى! قلنا: فأعرض عن رطانة الزرط، وصفير البط، ولا تعج على طلل بائد، ودار قد أتى الله بنيانها من القواعد! فقلت: لقد أسرفتما طاعتين، إن كاتب الصحيفة لمدرة الزمان، ولعالم نوع الإحسان. إلا أنه ربما كذب العنوان. فأعدت النظر فاذا بك — أبا محمد — صاحبه! كتاب بنى على الظلم العبقري، والبهتان الجلى، ومكابرة العيان، ومدافعة البرهان، قد طمس الله أنواره، وأظهر عواره، بخاء كالغلاة القوراء: لا ماء ولا شجر، والليله الظلمات: لا نجم ولا قمر^(١).

وهذا التهاجى بين أبناء العم لا غرابة فيه، فإن الأدب العربى ينخر بهذا النوع من تظالم الأقرباء: لأن نائرة الحقد أشد ما تكون تابجا واضطراما بين الأقربين وهى عند العرب من أقوى بواعث الطموح الى المجد، ومن أشد الحوافر لإيقاد ما نمسد من جذوات النفوس والعقول. ومن هنا نرى أهاجى أبى المغيرة لابن عمه أمر وأقسى من أهاجيه لغيره، فانه يهجو ابن عمه بحفيظة وحقد على حين لا يخرج هجاءه لغيره عن المزاح الثقيل، كقوله فى التهمك

(١) اللخيرة ج ١ ص ٧٨ وفى قح الغلب ج ١ ص ٥١٣ فقرات من تهاجى هذين الكاتبين، فليرجع اليهما

ببعض المتطبين : ” وأشرح لي خبر فلان ، وأين بلغ من تكسبه ، وحيث أنتهى من تطيبه ، وكيف ظروفه ونخائنه ، ولعوقاته ومعاجته ؟ وهل ينفذ طبه ، وينفق حبه ؟ وصف لي ما يقوله على المساء ، ويبيديه من الأدوية ، وأهد إلى ما ينقّه من المقال ، على الكبد والطحال ، ويرقشه من الكلام ، في الفالج والزكام ، فالحمد لمن قرن له ذلك إلى القيام ، بشريعة الاسلام ، والتمهر في الأحكام ، ومعرفة الحلال والحرام ، والفلج عند الخصاص ^(١) “ .

١٠ — ومع أن أبا المغيرة من الشعراء الفحول فانا نراه يتخذ النثر أداة للتعبير عن الأبواب الخاصة بالشعر كالغزل والمديح وهو في ذلك يحاكي بديع الزمان الذى يحرص أشد الحرص على أن يؤدى بالنثر كل ما يؤدى بالقصيد . وإنما خصصنا بديع الزمان بالذات لأننا نرى في نثر أبى المغيرة نفحة همدانية . ويكاد الرجلان يتشابهان ، لولا جزالة ابن حزم ورقة بديع الزمان . والظاهر أن رسائل الهمداني كانت وصلت بسرعة إلى الأندلس ، وأطلع عليها المتأدبون هناك ، وإلى القارئ رسالة لأبى المغيرة تمثل روح الهمداني أصدق تمثيل :

” فكم ليث كان في غابة سمعت صريف أنيابه ، وقفر أنست في ييايه ، إلى عواء ذئابه ، لأمر إلا بالنص المستلب ، ولا ألقى غير الخارب المتهب ، والشعار عند النائبة ألهاها فأتخطاها ، والنازلة أراها فأتعداها ، قول أبى الطيب :

فان أسلم فما أبقي ، ولكن سلمت من الحمام إلى الحمام

وأنا أرقب من الزمان صنيعه ، وأتوقع من الحمام وقوعه ، وهو يذهب بي إلى قبلة الآمال وأنا لا أصدق ، ويسوقني إلى محط الرجال وأنا لا أحقق ، ويؤم بي البحر الذى لا تحصى فرائده ، والغيث الذى لا يجذب رائده ، حتى أدانى إلى الحضرة العليا ، والمحلة الشفاء ، فكبرت إكبارا لما صرت إليه ، وهالت إعظاما لما سقطت عليه ، وعلمت أنى في الحرم الذى لا يضار جناحه ، ولا يطار غرابه ، ولا يخضد شجره ، ولا يمنع ثمره ، ولم ألبث أن نزلت باليفاع الخصب ، وتمكنت من الرشاء والقلب ^(١) “ .

ولم يقف تأثره ببديع الزمان عند محاكاة في المذهب والأسلوب ، بل تعداه الى معارضة ما اشتهر من رسائله ، فقد وضع الحمداني رسالة شائعة في إنسان جمع بين اللازم والجمال ، ثم دالت دولة شبابه فعاد من الصاعرين ، وهي رسالة مشهورة اهتم بمعارضتها كثير من الكتاب أخرجهم المرحوم الشيخ عبد العزيز شاويش ، والظاهر أنها بهرت أهل الأندلس فعارضها أبو المغيرة بن حزم برسالة طويلة تقتطف منها الفقرات الآتية :

”ورد كتابك ينشد ضالة ودنا ، ويرقع خلق عهدنا ، ويطلب ما أفانته جريرتك الينا ، وذهبت به جنائتيك علينا ، أيام غصنك ناضر ، وبدرك زاهر ، لا نجد رسولا اليك إلا نظرة تحرق حجاب الدموع ، ونفرة تقيم مناد الضلوع ، فان رمنا شكوى ينفث بها مصدرونا ، ويستريح اليها مهيجورنا ، لقينا دونك أمنع سد ، وأقبح صد ، وأقبح زند ، وأبرج رد ، حتى إذا طفت تلك النيران ، وأنتصف لنا منك الزمان ، بشعرات أعشت هلاك كسوفنا ، وقلبت ديباجتك صوفنا ، وأعادت نهارك ليلا ، وناحت عليك تلها وويلا ، وأطار حمامك غرابك ، وحجب ضياك ضبابك ، فصار عرسك مائما ، وعاد وصلك محزما :

وبت مداما تسر الزيفا فأصبحت تجرع خلا ثقيفا
وصرت حجازا جديب المحل وقد كنت للطالب الخصب ريفا

أقبلت تسلل الينا لو اذا ، وتطلب منا عواذا . قد أنساك ذل العزل عز الولاية ، وأولاك طمعا نسيانك تلك الجماية ، أيام ترشقنا بسهام لحاظك رشقا ، وتقتلنا بسيوف ألفاظك عشقا ، وتميس غصنا ، فتثير حزنا ، وتطلع شمسا ، وتغيب نفسا ، والآن نللك بدمع قد جف ، ووجد قد كف . وعزاء قد أبد ، وصبر قد غار وأنجد ، ونظر منك الى روض قد صوح ، وسار قد أصبح ، وأعجم قد أفصح ، ومبهم قد صرح ... الخ“^(١) .

١١ - نثر أبي المغيرة في جملة متين رصين ، لولا ما يتطرق اليه أحيانا من قبح العمل ، ودماة التكلف ، وهو في الأغلب مسجوع . وفي الذخيرة شواهد على تكلفه ، وهو تكلف ممض ، نكتفي بالإشارة إليه ، ولا نعرض له بتحليل ولا تلخيص . ومن المرجح أن تلك الرسائل المتكلفة كانت مما كتبه قبل أن ينضج ويسلس له البيان .

٥ - أبو الفرج البغيا

١ - البغيا هو عبد الواحد بن نصر المخزومي . وإنما لقب بالبغيا للثغة ظريفة كانت تزين لسائه ، نشأ في نصيبين وارتحل بسيف الدولة في شبابه ، فلما مات صاحبه تقلت به الأحوال بين الموصل وبغداد ، فتادم الملوك والرؤساء ، وقضى حياته مقسم الحظ بين النجاح والإخفاق : ينعم تارة ويشقى أخرى ، حتى وافاه حمامه لثلاث بقين من شعبان سنة ٣٩٨ . قال الثعالبي : ” وأحر ما بلغني من خبره ما سمعت الأمير أبا الفضل عبد الله بن أحمد الميكني يورده من ذكر التقائه معه عند صدره من الحج وحصوله ببغداد في سنة تسعين وثلثمائة ورؤيته بها شيخا على السن ، متناول الأمد ، نظيف اللبسة ، بهي الركبة ، مليح اللثغة ، ظريف البخلة . قد أخذت الأيام من جسمه وقوته . ولم تأخذ من ظروبه وأدبه ... ثم عرض على القاضي أبو بشر الفضل بن محمد يجرجان سنة إحدى وتسعين كتاب أبي الفرج الوارد عليه من بغداد مشتملا من النظم والنثر على ما أثر فيه حال من بلغ ساحل الحياة ، ووقف على ثنية الوداع “ .

٢ - كان البغيا من أركان الحياة الأدبية في زمانه ، ولكن المؤلفين لم يتحدثوا عنه إلا قليلا ، فكان من نتائج ذلك أن قمت المصادر التي تكنى لتعيين اتجاهاته الأدبية ، وإقلال المؤلفين من الحديث عنه يعين بعض صفاته . لأن المؤلفين يهتسون في الأغلب بتقيد ما يصل إليهم من أخبار المتأخرين من الكتاب والشعراء ، فأكثر من عرفت حلهم من رجال الأدب كانوا في حياتهم رجال دسائس ومكائد وسفاهات : وأكثر ما يكونون من طبقات الوزراء أو أمناء الملوك والوزراء .

فإن ظفرت بكتاب حامل الذكر أو شاعر مجهول القدر فلا تنس أن تلاحظ أن هذا لم يكن إلا لأن ذلك المغبون كان في حياته هادئ النفس قليل المطامع محدود الآمال . ومجموعة

ما وصل اليها من شعر البيغا ورسائله وقصصه تدلنا على أنه لم يتصل بملوك زمانه على نحو ما كان يتصل بالصاحب بن عباد أو أبو الفضل بن العميد .

وانما كانت صلاته بالملوك والرؤساء عند الحدود الضيقة حدود السمر والأنس حول بساط السلاف .

٣ - وإنا نراه يدور حول تهواته وأغراضه النفسية في أكثر ما أترعته من المقطوعات والرسائل والأقاصيص ، بحيث نستطيع أن نقدر أنه كان لا يرجو من صلات الملوك والوزراء والرؤساء أكثر من أن ينضو عن نفسه ثوب الفافه والإملاق ، وأن يكون في يده من الذهب ما يقتنص به شوارد اللذات ، وأوابد الأهواء :

وفي هذا الذي نقضى به تعليل لصفاء شعره الوجداني ، فقد كان شعر البيغا يُغنى به وكان

من متع السامعين في الشام والعراق ، ولنتظر كيف يقول في محبوب رمدت عيناه :

بنفسى ما يشكوه من راح طرفه وزرجسه مما دحى حسنه ورد

أراقت دمي ظالما محاسن وجهه فأضحى وفي عينيّه آثاره تبدو

غدت عينه كأنه حتى كأنما سقى عينه من ماء توريده انخد

لئن أصبحت رمداء مقلة مالكي لقد طال ما استستفت بها مقل رمد ^(١)

ولنتظر كذلك كيف يقول في محبوب فصده مبضع الطيب :

بأبى الغائب الذى لم يغب عني فأشكوا إليه هم المعيب

باشرتة كف الطيب فلونا ت الأمانى قبلت كف الطيب

فعلت في ذراعه ظبلة المبع ضاع أفعال لحظه بالقلوب

فأسالت دما كأن جفوني عصمرته بدمعها المسكوب

طاب جدا فلو به سمح الدهر سر لأمسى عطرى وأصبح طيبى ^(١)

وهذه معان دقيقة لا يحسنها إلا من يفرغ لأمثالها من شعراء الوجدان .

وإننا لتأمل في شعره فتجده يرتقب فرص زمانه فيقول مثلاً في الورد والربيع والشراب :

زمن السورد أظرف الأزمان	وأوان الربيع خير أوان
أدرك النرجس الجنى وفزنا	منهما بالحدود والأجفان
أشرف الزهر زار في أشرف الدهر	فصل فيه أشرف الإخوان
وآجل شمس العقار في يد بدر الـ	حسن يخدمك منهما النيران
وأدرها عذراء وآتتهز الـ	كان من قبل عائق الإمكان
في كئوس كأنها زهر الخشـ	خاش ضمت شقائق النعمان
وآخذعها عند البزال بالقـ	ظ المشاني ومطربات الأغاني
فهى أولى من العرائس إن زو	ت بعزف النايات والعيدان ^(١)

وللقارئ أن يتأمل احتفاء الشاعر بالصبياء ودعوته الى آخذاعها كما تحتدع العروس بالنائى والعود .

٤ — وما يؤكد أن أطماع البغيا من الاتصال بالملوك كانت طفيفة لا تعدو مطالب الرزق أن نراه يقول :

ما الذل إلا تحمل المنـ	فكن عزيزاً إن شئت أو فهن
إذا اقتصرنا على اليسير ما العـ	ة في عتبنا على الزمن ^(٢)
وفى هذا المعنى يقول من كلمة ثانية :	
صحبت الدهر في سهل وحزن	وجربت الأمور وجربتني
فلم أرمذ عرفت محل نفسي	بلوغ منى يساوى حمل من
ولم تتضمن الدنيا لحظي	منال مسرة إلا بحزن
وليس على غير الجديا	سعت له لأستغنى وأغنى
فان أحرم فلم أحرم لعجز	وان أبلغ فنفسى بلغنى ^(٢)

وأدل من هذا على اهتمامه بالوجدانيات أن التنوخي يتحدثنا أنه روى عنه قول سيف الدولة :

وقالوا يعود الماء في النهر بعدما عفت منه آيات وسدت مشارع
فقلت الى أن يرجع الماء جاريا وتعشب جنباه تموت الضفادع^(١)

وحرص البيضا على رواية مثل هذين البيتين يمثل حسرته على أيامه السوالف ولياليه الخوالى .

٥ — وخلص البيضا من مشا كل دنياه مكنه من أن ينظر الى أهل الأدب نظر العطف والإخاء . ومن شواهد ذلك شوقه الى رؤية أبي اسحاق الصابى ، وقد اتفق له أن زار بغداد والصابى معتقل منذ مدة طويلة فلم يصبر عنه فزاره فى محبسه ، ولكنه شغل عن معاودته فكتب اليه الصابى :

أبا الفرج أسلم وأبق وأنعم ولا تزل
مضى زمن تستام وصلى غالبا
وأنستنى فى محبسى بزيارة
ولكنها كانت كحسوة طائر
وأحسبك أستوحشت من ضيق محبسى
كذا الكرز^(٢) اللاح ينجو بنفسه
فحوشيت يا قس الطيور فصاحة
وقد أجابه البيضا بأبيات جاء فيها قوله :

فان كنت بالبيضاء قدما ملقبا
وبعد فما أخشى تقص جارح
فكم لقب بالجور لا العدل مختص
وقلبك لى وكر ورأيك لى قفص^(٤)

٦ — وما أحب أن تشغلنى الرغبة فى الايحاز عن إثارة بعض ما دار بين الصابى والبيضا من المراسلات ، ولأكتف بما كان بينهما من وصف "البيضاء" فإن صاحبنا أبا الفرج لما لقب

(١) ص ١٣٤ نشوار المحاضرة . (٢) الكرز، بضم الكاف ، الصقر .

(٣) ص ١٨٧ ج ١ يتيمة . (٤) ص ١٨٨ ج ١ يتيمة .

بالبغيا للثغته استطاع الصابي أن يحاوره محاوره طريفة في وصف البغيا فهو مثلاً يعتذر عن
إحماله الرجوع إليه لزيارته في السجن بقوله :

وأحسبك أستوحشت من ضيق محبسى وأوجست خوفاً من تذكر القفص
وللنظر كيف يقول في وصف البغيا :

أنعتها صبيحةً مليحة	ناطقةً باللغة الفصيحة
عدت من الأطيّار واللسان	يوهمني بأنها إنسان
تُنهى إلى صاحبها الأخبارا	وتكشف الأسرار والأستارا
سكّاء إلا أنها سمّعة	تعيد ما تسمعه طبيعة
وربما لُقت العضيّة	فتغدى بديهةً سفية
زارتك من بلادها البعيدة	وآستوطنت عندك كالقعيدة
ضيف قراه الجوز والأرز	والضيف في أبياتنا يعز
نراه في منقارها الخلوقي	كلؤلؤ يلقط بالعقيق
تنظر من عينين كالفضين	في النور والظلمة بصّاصين
تميس في حلتها الخصرء	مثل الفتاة الغادة العذراء
خريدة خدورها الاقفاص	ليس لها من حبسها خلاص
تحبسها وما لها من ذنب	وإنما تحبسها للحب
تلك التي قلبي بها مشغوف	كنت عنها وأسمها معروف
نشارك فيها شاعر الزمان	والكاتب المعروف بالبيان
وذاك عبد الواحد بن نصر	تقيه نفسى عاديّات الدهر ^(١)

وقد أجاب البغيا على هذه الأرجوزة البديعة بأرجوزة أطول ولكنها تافهة لم يعجبنا منها

إلا قوله في البغيا :

ترهى بدواج من الزمرد^(١) ومقالة كسبج في عسجد
وحسن منقار أشم قان كأنما صيغ من المرجان
صيرها انفرادها في الحبس بنطقها من فصحاء الانس
تميزت في الطير بالبيان عن كل مخلوق سوى الانسان
تحكى الذى تسمعه بلا كذب من غير تغيير لحد أو لعب
غذاؤها أزكى طعام رغدا لا تشرب الماء ولا تحشى الصدى
ذات شعى تحسبه ياقوتا لا ترتضى غير الأرض قوتا
كأنما الحبة في منقارها حباية تطفو على عقارها
إقدامها ببأسها الشديد أسكنها في قفص الحديد^(٢)

٧ - وهذا الوصف وصف البغاء الذى أجاد فيه الشعراء أن أتاحته لنا اثنتان أبي الفرج
التي أبدع في وصفها الصابى حين قال :

وما هجنت منك المحاسن لثغة وليس سوى الانسان تلقاه ألثغا
أتعرفها فيما تقدم خاليا لعير اذا ما صاح أو جمل رغا
فيالك حرفا زدت فضلا بنقصه فأصبحت منه بالكمال مسوفا^(٣)

واللثغة تكون أحيانا أملح من النطق الصحيح : فيكون القص بها فضلا كما أشار الصابى
وان كما لا ترتضى بقية التمثيل .

٨ - ولا يفوتنا أن نقيدها أن شعر أبي الفرج تغلب عليه النزعة الوصفية وذلك
يتصل بمذهبه في النثر أشد اتصال ، وهو وإن لم يستطع مصاولة فحول القرن الرابع كالرضى
والمتينى وأبى فراس يبدع أحيانا ويروع حتى لنعمده في طليعة الشعراء . ولنتنظر كيف تتدفق
الحياة في قوله يصف قتلى الحرب :

فتركتهم صرعى كأنك بالظبا عاطيتهم في الروع كأس مُدام

(١) الدراج على وزن رمان وغراب الخفاف الذى يلبس (قاموس) . (٢) الشعى كهدى خصل الشعر
البشمان ، والشعبانة الجملة منه (قاموس) . (٣) ص ١٩٠ ج ١ يتيمة . (٤) ١٩١ ج ١ يتيمة .

متهاجرين على الدتور كأنما أنفت رؤوسهمو عن الأجسام^(١)
 وقوله يخاطب سيف الدولة ويذكر وقعة كانت له مع بني كلاب وعفوه عنهم :
 اذا آستلك الجانون أعمدك الحلم وان كفك الإبقاء أنهضك العزم
 ومن مختار هذه التصيدة :

ومن لم يؤدبه لفرط عتوه — إذا ما جنى — الإنصاف أدبه الظلم
 إذا العرب لم تجز أصطناع ملوكها بشكر تعاوت في سياستها العجم
 اعددا الى عادات عفوك محسنا كما عودتها قبل أبائك الثم
 فان ضاق عنها العذر عندك في الذي جتته فما ضاق التفضل والحلم^(٢)

وله أوصاف حية جدا تكاد تنطق بمعاني الموصوف، من ذلك قوله في وصف معصرة :

ومعصرة أنخت بها وقرن الشمس لم يغيب
 نخلت قزازها بالرا ح بعض معادن الذهب
 وقد ذرفت لفقد الكر م فيها أعين العنب
 وجاش عباب واديهها بمنهل ومنسكب
 وياقوت العصير بها يلاعب لؤلؤ الحب
 فيا عجباً لعاصرها وما يفنى به عجبى
 وكيف يعيش وهو ينحو ض في بحير من اللهب^(٣)

وقوله في وصف الخيل على صهواتها الفرسان :

وكل بعيد قرب الحين نحوه سلاهبك الجرد الخفاف قريب
 تباشر أقطار البلاد كأنها رياح لها في الخافقين هبوب
 تماشي بفتيان كأن جسومهم خلقتها فوق السروج قلوب^(٤)

(١) ص ١٦١ نشوار المحاضرة . (٢) ص ٥٦ نشوار . (٣) ص ١٩٥ ج ١ بنية .

(٤) ص ٢٠٢ ج ١ بنية .

٦ - نثر أبي الفرج البغيا

١ - يمتاز نثر البغيا بعدة ميزات : أظهرها أنه يمثل عصره من الوجهة الفنية، ويمثل الكاتب في ميوله الذوقية والوجدانية . فهو من جهة الصورة نثر مسجوع تغلب عليه الفطرة حيناً ويسوده التكلف أحياناً . وهو من جهة الموضوع يتصل في أكثر نواحيه بما يمس الكاتب من حيث هو رجل مودات ومجاملات، وقل أن يمثل صاحبه رجل فكرة اجتماعية أو فلسفية، على نحو ما نجد عند بعض كتاب القرن الرابع . ولذلك نقرأ نثر البغيا في طمأنينة وسكون تترأى أمام خيالنا أشباح المشاكل الطريفة التي تشغل بال الرجل المهذب الذي يحرص على مجاملة الأوداء والأصدقاء والرؤساء، بدون أن يعنى كثيراً بما تصطرع حوله الأفئدة وتتصاول في حماء العقول .

٢ - وأول ما يطالعنا من نثر البغيا هو رسائله الإخرانية، كما كان يعبر القدماء، وهي الرسائل التي بث فيها شوقه إلى أصحابه والآله وإخداؤه، بطريقة وجدانية تقرب في روحها من قصائد النسيب، كأن يقول :

”شوق المملوك إليه شوق الظمان إلى القطر، والسارى إلى غرة الفجر“^(١) .

أو يقول :

”شوق^(١) إليه شوق من فقد بالكره سكنه ، وفارق بالضرورة وطنه“ .

وقد يحاول تعليل صبره على بعد مودوده فيقول :

”ولولا أن المملوك ينجذ نار الاشتياق، ويبرد أوار الفراق، بالتثليل المثل لمن نأت محلته، والتفكير المصور لمن بعدت شقته، لألبيت أنفاسه، وأسمرت حواسه، وهمت دموعه ، وأنقضت ضلوعه . والله المحمود على ماوفق له من تمازج الأرواح، عند تباين الأشباح“^(١) .

وله في هذا المعنى الطريف كلمة مستجادة تهش لها النفس ، وتسكن إليها الروح ، وأنظر كيف يقول في رفق أشبه بتناجى المحبين :

”إن ترايت الأشباح ، فقد تواصلت الأرواح : وإن نزحت الأشخاص وبعدت ، فقد دنت الأنفس وتقاربت ؛ فلا تُمَضُّ الفرقة وتؤلم ، وتنقص النوى وتكلم . وقد ينال بتناجى الضائر ، وتحاور السرائر ، مالا تصل إليه الإشارة ، ولا تدل عليه العبارة ، إذ الأنفس البسيطة أرق مسرى : وأبعد من الألسنة مرمى“ .

ونحن منهم هذا : فقد نعيش على صلة الأرواح مع أصدقاء أقصتهم الليالى عيشا لانجده في وجوه من نساكنهم وولاقهم صباح مساء . والود ود القلوب .

٣ — وفي رسائل البيغا تفسير لبعض الجوانب الاجتماعية ، وتأكيدها عرف عن العرب من بعض الخلال ، من ذلك رسالته في التهته بمولودة : فهي تأكيدها درج عليه العرب واضنود من بغض البنات . ولهذا نراه في هذه الرسالة يقف موقف الواعظ لا موقف المهني ، فيقول :

”لو كان الانسان متصرفا في أمره بارادته ، قادرا على إدراك مشيئته ، لبطلت دلائل القدرة ، وأستحالت حقائق الصنعة ، ودرست معالم الآمال ، وتساوى الناس ببلوغ الأحوال ، غير أن الأمر لما كان بغير مشيئته مصنوعا ، وعلى ما عنه ظهر في الابتداء مطبوعا ، كان المخرج له الى الوجود من العدم ، فيا أرتضاه له غير متهم . ومولانا — أيده الله ! — مع كمال فضله ، وتناهى عقله ، وحده فطنته ، وثاقب معرفته ، أجل من أن يحهل مواقع النعم الواردة من الله تعالى عليه ، أو يتسخط مواهبه الصادرة اليه ، فيمقيا بنواظر الكفر ، ويسلك بها غير مذاهب الشكر . وقد اتصل بي خبر المولودة ، كرم الله غرتها وأطال مدتها ، وعرف مولانا البركة بها ، وبلغه أمله فيها ، وما كانت من تغيره عند آتضاح الخبر ، وإنكار ما اختاره له سابق القدر ، فعجب المملوك من ذلك وأستنكره ، من مولانا وأنكره : لضيق العذر في مثله عليه . وقد علم

مولانا أنهن أقرب الى القلوب ، وأن الله تعالى بدأ بهن بالترتيب فقال جل من قائل (ويهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور) وما سماه الله هبة فهو بالشكر أولى ، وبحسن التقبل أخرى ، ولكم نسب أفدن ، وشرف أستحدثن ؛ من طرق الأضهار ، والاتصال بالأخيار ، والمتمس من الذكر نجابته ، لا صورته وولادته ، ولكم ذكر الأئمة أكرم منه طبعاً ، وأظهر منه نفعا ، فمولانا يصور الحال بصورتها ، ويمجد الشكر على ما وهب منها ، ويستأنف الاعتراف له تعالى بما هو الأشبه ببصيرته ، والأولى بمثله ، ان شاء الله تعالى^(١) .

ويظهر أن هذا النوع من التهاني كان من الموضوعات الملحوظة في القرن الرابع ، فقد عقد له الحصري فصلا في زهر الآداب . ومن طريف ما جاء فيه تفضيلا للأئمة على الذكر قول بعض الكتاب :

” الدنيا مؤنثة والرجال يخدمونها ؛ والنار مؤنثة والذكور يعبدونها ؛ والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية ، وفيها كثرت الذرية ؛ والسماء مؤنثة وقد حليت بالكواكب ، وزينت بالنجوم الثواقب ؛ والنفس مؤنثة وهي قوام الأبدان ، وملاك الحيوان ؛ والحياة مؤنثة ولولاها لم تنصرف الأجسام ، ولا عرف الأنام ؛ واللجنة مؤنثة وبها وعد المتقون ، وفيها^(٢) ينعم المرسلون “ .

ويتصل بهذا المعنى ما أقترحه سيف الدولة على البيهقي من الكتابة الى من تزوجت أمه وكان العرب يكرهون أن تتزوج أمهاتهم كرها شديدا . وقد آتفق لعمر بن مسعدة أن سألته سائل : كيف تكتب لمن تزوجت أمه ! وهذا دليل على أن كتاب القرن الثاني كانوا يعدون ذلك من فنون الانشاء . أما في القرن الرابع فكان ذلك الفن ظاهرا أشد الظهور ، وفصل الكلام عنه مؤلف زهر الآداب : فذكر أن من الحق ما يستحسن تركه ، ويستهمجن عمله ، وأشار الى أنه رأى من لا يحضر تزويج كريمته ويولى أمرها غير نفسه ، وأنه عرف من تزوجت أمه

(٢) زهر الآداب ج ٢ ص ٦٥ الطبعة الثانية .

(١) صبح الأعشى ص ٦١ و ٦٢ ج ٩

(٣) صبح الأعشى ص ١٤٥ ج ١

فعظم لذلك حمده ، وأفرد عن أودائه ، وتواري عن أصفياه ^(١) . حياءً من لقائهم ، وكرهاً لتهنئتهم
أو عزائهم . ثم بين نماذج ما يكتب في مثل هذه الحال . وإلى القاريء نص رسالة البغيا التي
اقترحها سيف الدولة بن حمدان :

”من سلك إليك — أعزك الله! — سبيل الانبساط ، لم يستوعر مسلماً من المخاطبة فيما
يحسن الانقباض عن ذكر مثله . وأتصل بى ما كان من خبر الواجبة الحق عليك ، المنسوبة
بعد نسبك إليها إليك — وفر الله صياتها — فى اختيارها ما لولا أن الأنفس تتناكره ، وشرع
المروءة يحظره ، لكنت فى مثله بالرضا أولى ، وبالأعتداد بما جدد الله فى صياتها أخرى ، فلا
يسخطك من ذلك مريضه وجوب الشرع ، وحسنه أدب الديانة ، ومباح الله أحق أن يتبع
وإياك أن تكون ممن لما عدم اختياره تسخط اختيار القدر له ، والسلام“ ^(٢) .

ولا يفوتنا أن نذكر أن البغيا تثرى رسالته هذه خطوات ابن العميد فى نفس الغرض ، ولكن
رسالة ابن العميد أكثر وحشيةً وأدل على كره العرب لتزوج الأمهات . وأى وحشية أخشن
وأغلظ من أن يخاطب من تزوجت أمه بمثل هذه اللهجة فيقول :

”وهناك الله الذى ترح للتعوى صدرك ، ووسع فى البلوى صبرك ، ما ألهمك من التسليم
بمشيئته ، والرضا بقضيته .. وجعل الله تعالى حده ما تجرعه من أنف ، وكظمته من أسف
معدوداً يعظم الله عليه أبعرك ، ويجزل به ذررك ، وقرن بالحاضر من امتعاضك لفعالها ،
المتنظر من آرتماضك لدفعها ^(٣) ، وعوضك من أسرة فرشها ، أعواد نعشها ، وجعل ما ينعم عليك
بعدها من نعمة ، معزى من شمة . وما يوليك بعد قبضها من منحة ، مبرأ من محنة“ ^(٤) .

ونحن حين نصف ذاك بالوحشية متأثرون بروح العصر الذى نعيش فيه ، ولو خلونا الى
نظرتنا لرأينا ابن العميد يعبر عن نوازع إنسانية ، ولا نقول سخرية ، لأن الغيرة على الأمهات غيرة
فطرية لا يسلم منها إنسان ولا حيوان ، فلتقف عند تدوين ما يدل عليه الأدب من مظاهر

(١) زهر الآداب ص ٦٢ و ٦٣ ج ٢ الطبعة الثانية . (٢) صبح الأعشى ج ٩ ص ٧٩

(٣) الارتماض : الحزد . (٤) زهر الآداب ج ٢ ص ٦٣

الاجتماع والأخلاق وقفة النزاهة والحياد . وما خصصنا العرب والهنود بكرة البنات إلا لظهور ذلك في أدبهم ظهوراً قوياً^(١) ، وإلا فقد استجوبنا الناس من جميع الأجناس فرأيانهم يؤثرون البنين على البنات . وما نحن على الفطرة الانسانية بمسيطرين .

٤ — ومن النواحي الطريفة في نثر البغا رسائله في آسهداء الشراب . وكان هذا الفن من الكتابة مما يؤثره كتاب القرن الرابع ، ولهم فيه فقرات حسان تدل على فتوة القلوب ، وشباب الأرواح . وفي طي ذلك الآسهداء معنى لطيف : فقد كان المستهدى يشير غالباً إلى أن لديه "زائرين أعزاء" يسره أن يجمع شملهم حول بساط السلاف ، وقد يوحى إلى أن لديه (محبوباً) أسعده بزيارته وأنه يحب أن لا يكون المجلس محروماً من نقحة الصهباء . وأنظر ماذا يقول أبو الفرج سامحه الله :

"من كان للفضل نسبا ، ولفلك الفتوة قطبا ، لم تفرغ القلوب من الهم إلا إليه ، ولم تعول الأنفس في استراحة المسار إلا عليه . وقد طرقتني من إخواني من كان الدهر يماطلي بزيارته ، وينفس^(٢) على بقربه ومشاهدته ، فصادفتني من المشروب معسراً ، ووجدت الانبساط في التماسه من غيرك على متعذراً ، وإلى تفضلك تفرغ مروءتي في الاسعاف منه بما يلم شعث الألفة ، ويجمع شمل المسرة . ويجعلنا لك في رق الاعتداد بالمنة ، ويقضى عني بتفضلك حقوق المودة"^(٣) . وفي المعنى نفسه يقول من كلمة ثانية :

"ألف المنن موضعاً ، وأجلها من الأنفس موقعا ، ماعمر أوطان المسرة ، وطرد عوارض الهم والفكرة ، وجمع شمل المودة والألفة ، وأدى إلى آجتناء ثمرة اللذة . وبذخائك من المشروب مع هذه الأوصاف ما يسترق حُر الشكر ، ويحرز قصب السبق إلى الثناء وجميل الذكر ، فإن رأيت أن تتجدد بالممكن منه مروءتي ، على قضاء حق من أوجب على المنة بزيارتي ، فعلت"^(٤) .

(١) بنض العرب للبنات معروف وقد سجله القرآن ، أما بنض الهنود للبنات فيكنى في بيانه قول مؤلف كلية ودمنة "وكان يقال : إن العاقل يعد أبويه أصدقاء ، والأخوة رفقاء ، والأزواج ألقاء ، والبنين ذكراً ، والبنات خصماً ، والأقارب غرباء ، ويد نفسه فريداً" . (٢) بنفس : يحسد . (٣) صبح الأعشى ج ٩ ص ١٢٣

(٤) صبح الأعشى ج ٩ ص ١٢٣

وعلام يدل هذا النوع من الاستهداء ؟ يدل أولاً على أن الشراب كان إذ ذاك مما تفرضه المروعة — كما يعبر أبو الفرج — في السهرات الاخوانية ، ويدل ثانياً على أن الشراب لم يكن من الكثرة بحيث يجده الراغب حيث شاء ، كما يقع ذلك اليوم في أكثر الحواضر الشرقية ، وإنما كان مما يدخره المترفون ، حتى أستطعنا أن نرى أكثر الأدباء يستهدونه وينفقون في طلبه الرسائل الملاح . والاستهداء والاستجداء كلمتان متقاربتان في الرسم والنطق المدلول^(١) .

هـ — وهناك استهداء أظرف وأشرف : وهو استهداء الدواة والمداد ، ونحن نعلم قيمة ذلك في أنفس الكتاب . وقد استهدى البيضا دواة فقال :

”أنفس الذخائر وأشرف الآمال ما كان للفضل نسباً ، وللصناعة والحظوة سبباً ، وبالهدوى تجتنى ثمرة الصناعة ، ويحتلب درر الكتابة ، وقد أوحش المملوك الدهر مما كنت أقتنيه من نفائسها ، وضايقه في وجود الرضى على الحقيقة منها ، فإن رأى مولانا أن يميطة ببعض ما يستخدمه من حالها أو عاطلها سمة عطلة المملوك ، ويسمح بإهدائها إلى أهل تصرفه ، ويقابل بالنجيج والتقبل رغبته ، فعل ، إن شاء الله تعالى“^(٢) .

واستهدى مداداً فقال :

”التنافس — أيدك الله ! — في أدوات الكتابة وآلات الصناعة بحسب التفاخر في ظهور العمة ، والتخير لبيان الإمكان والقدرة . وإلا فسائر الهدوى سواء فيما تصدره الأقلام عنها ، وتستمدّه بطون الكتب منها . وأولى آلاتها بأن تتوفر العناية عليه ، وينصرف التخير بالضرورة إليه ، المداد الذي هو ينبوع الآداب ، وعتاد الكتاب ، ومادة الافهام ، وشرب الأقلام ... ولا معدل بي عن استمache خزائنك — عمرها الله ! — الممكن من جيده ، فإن رأيت أن تستنقذ دواتي من نحول العطللة ، وتنزه قلبي عن ضلأ الغلة ، وتكشف عنها سمة التقصان والحلة ، فعلت إن شاء الله تعالى“^(٢) .

(١) في هذه اللفظة شيء من الحق ، وكل ما يبرر الكلمتين من الفرق أن الاستجداء يكون فيما يحتاج إليه المعوزون كالطعام وأن الاستهداء يكون فيما يحتاج إليه المترفون في أذواقهم وإن كانوا فقراء . (٢) صبح الأعشى ج ٩ ص ١٢١

ولنلاحظ أن البيغا لا يستهدى دواة^(١) مئة ثانية فيقول كيف وقعت، ولا مدادا كيف كان، وإنما يستهدى دواة (نفيسة) ولو كانت عاطلة، المصيبة: فأول يستهدى مدادا (جيذا) يتره قلمه عن ظمأ الغلة، وهذا تعبير يتنفس عن شعرا^(٢) . وأختيار الدواة والمداد كان ولا يزال من أوضح الدلائل على أذواق الكتاب . وللدواة النفيسة والمداد الجيد تأثير قوى جدا في بعث نشاط الكاتب . وكذلك تفعل الأقلام الجيدة . وهذا كلام فصلناه في المقدمة الفرنسية التي صدرنا بها (الرسالة العذراء) فليرجع إليه القارئ هناك^(٣) .

٦ — وقد لاحظنا أن البيغا يكتب في الموضوع الواحد غير مرة، وفقا للظروف . من ذلك رسائله في التهئة بالزواج^(٢) والتهئة بولاية عمل^(٣) والتهئة بالقدوم من سفر والتهئة بالمواسم والاعياد^(٤) .

وهذا كله طبعى ومقبول، ولكن الطريف أن يتكرر كلامه في التهئة بالصرف عن الولاية، فقد نفهم أن يهنا المرء بولاية عمل، ولكن لا نفهم كيف يهنا بالعزل، وما ننكر أن يقع ذلك، ولكنه في رأينا من التكلف الممجوج، وإن كان يدل على لباقة وذكاء . ولننظر كيف يحتمل البيغا في مثل هذه الحال :

”من حل محله — أيده الله تعالى! — من رتب الرياسة والنبيل، كان معظما في حالتي الولاية والعزل . لا يقدر في قدره تغير الأحوال، ولا ينقله عن موضعه من الفضل تنقل الأعمال، إذ كان استيحاءها للفائت من بركات نظره، بحسب أنسها — كان — بما أفادته من محمود أثره“^(٥) .

”لو كان لمستحدث الأعمال ومستجد الولايات زيادة على ما آخضك به من كمال الفضل، ومأثور النبيل، لحاذرنا انتقال ذلك بانتقال ما كنت تتولاه بمحمود كفايتك، وتحوطه

(١) وللقارئ أن يراجع كذلك ما أثبتته صاحب زهر الآداب من (أوصاف آلات الكتابة والدوى والأقلام)

ص ٢٢٩ و ٢٣٠ الطبعة الثانية . (٢) أثبت له صاحب الصبح أربع رسائل ص ٥٤ و ٥٥ ج ٩

(٣) أثبت له مؤلف الصبح ثلاث رسائل ص ٢٢ و ٢٣ ج ٩ (٤) أثبت له أربع رسائل ٣٤ و ٣٥ ج ٩

(٥) الصبح ج ٩ ص ٧٧

بنواظر نراحتك وصيانتك ... فالأسف فيما تنظر بقولا على أن الشرائع والولاية محمودا مشكورا^(١)،
لا لك : ولذلك كنت بالصرف مهنا مسرورا، كما كنت في بدل ثانيا على

٧ - وهذا الاستطراف لا يفارق البغيا : فقد كتب عدة ركب الحواضر إلى التهئة بالشفاء
من المرض، يدور أكثرها حول معنى واحد : هو أنه يشارك صديقه في العلة والشكوى .
ويعجبنا من ذلك قوله :

”ما كنت أعلم أن عافيتي مقرونة بعافيتك، ولا سلامتي مضافة لسلامتك، إلى أن
تحققت ذلك من مشاركتي إياك في حالتى الألم والصحة، والمرض والمحنة، فالحمد لله الذى
شرف طبيعى بمناسبتك، وجعل خلقى بملاءمتك، فيما ساء وسر، وإياه تعالى أشكر على ماخصنى
به من كمال عافيتك، وسبوغ سلامتك، وسرعة إقبالك^(٢)“ .

ولكننا نبسم حين نراه يهين صديقا بالمرض فيقول :

”فى ذكر الله سيدى بهذا العارض — أماطه الله وصرفه، وجعل صحة الأبد خلفه —
ما دل على ملاحظته إياه بالعناية، إيقاظا له من سنة النفلة، إذ كان تعالى لا يذكر بطروق
الآلام، وتبنيه العظات، غير الصفوة من عباده، الخيرة من أوليائه، فهناك الله الفوز بأجر
ما يعاينه، وحمل عنه بالطافه ثقل ما هو فيه^(٣)“ .

ولكن لا عجب فالمرض والعزل من الطوارئ التى تحتاج إلى التلطف فى المواساة،
وإخراجها مخرج التهئة فيه طرافة تغرى بالعزاء .

٨ - وقد يتفق للبغيا أن يكرر العبارات والألفاظ حين يعاود الكتابة فى موضوع

واحد كقوله فى التعزية :

”اتصل بى خبر المصيبة : بفقد الحسرة، وسكب العبرة، وأضرم الحرقه، وضاعف

اللوعة^(٤)“

فتراه يعيد هذه التعابير في كلمة ثانية فيقول :

”اتصل بي خبر المصيبة : فأضرم الحمرة ، وسكب العبرة ، وقدح اللوعة ، وامترى الدفعة“^(١) .

وله في هذا عذره : فان اللغة محدودة ، وبعض المعاني يعسر الاقتران في تلوينها أحيانا . على أنه استطاع أن يخفي فقره قليلا حين قال (أضرم الحمرة) مقابل (جدد الحسرة) وقال (قدح اللوعة) مقابل (أضرم الحرقه) وان كان كرر (سكب العبرة) بلفظها في الرسالتين .

وكذلك كرر المعنى والعبارة في قوله تعزيةً لصديق :

”أحسن الله في العزاء هدايته ، وحرس من فتن المصائب بصيرته“^(٢) .

وقوله :

”وحرس يقينك من اعتراض الشبهة ، وأحسن الى جميل الصبر هدايتك ، وتولى من فتن المحن رعايتك“^(٣) .

ويلاحظ مثل ذلك فيما كتب من رسائل الاعتذار والتهنئة بالمنزل الجديد^(٥) ، وان كان في هذا يكرر المعاني أكثر مما يكرر الألفاظ .

٩ — لقد ضاعت رسائل البيغا ولم يبق منها إلا القليل ، وما حفظه منها القلقشندى غير موشع بالشعر ، ولكن ما حفظه الثعالبي رضع بالمستجاد من أبياته الحسان ، حتى نجده يترجم لرسائله فيقول :

”فصل في بيان غرر من رسائله الموصولة بحجاسن شعره“

لهذا نرجح أن يكون القلقشندى اختصر ما اختار من رسائله فأسقط ما وصلت به من الشعر البليغ ، ونرجح أن يكون الغالب على ثره أن يرصع بالشعر على عادة بعض الكتاب من الشعراء . وإلى القارئ نموذجاً من رسالة له في مدح سيف الدولة^(٦) .

(١) ٩٧ (٢) ٩٦ (٣) ص ٩٧ (٤) ١٧٠ ، ١٧١ (٥) ٧٢ ، ٧٣

صبح الأعشى ج ٩ (٦) راجع ما اختار صاحب الزينة من رسائله ص ١٨٢ — ١٩٢ ج ١

«الشجاعة أقل أدواته ، والبلاغة أصغر صفاته ، يُطرق الدهرُ إذا نطق ، وينطق
المجد إذا افتخر ، فالآمال موقوفة عليه ، والثناء أجمع مصروف إليه ، نهض بما قعدت الملوك
عن ثقله ، وضعف الدهر عن معاناة مثله ، بهمم سيفيه ، وعزائم علوية ، فرد شمل الدين
جديدا ، وذم الأيام حميدا ، بحق أوضحه ، وخل أصلحه ، وهدى أعاده ، وضلال أباده .

فلا أنتزع الله الهدى عن بأسه ولا أنتزع الله الوغى عن نصره
وأحسن عن حفظ النبي وآله ورغى سوام الدين توفير شكره
فما تدرك المداح أدنى حقوقه باغراق منظوم الكلام ونثره

لأن أدنى نعمة تستغرق جميع الشكر ، وأيسر منة تفوت المبالغة في جميل الذكر ... الخ .

١٠ — هذا ولا ننس أن نذكر القارئ بأن فضل البغا في رسائله لا يقاس الى

فضله وبراعته في نثره المرسل الذي ديج به قصصه الغرامية ، وقد حُفِظَ له منها شاهد يعزّ
على من رامه من أندى الكتاب قلما وأسماءهم بيانا^(١) .

(١) نجد هذا الشاهد في باب «الأخبار والآفايص» بالجزء الأول من هذا الكتاب .

٧ - الصاحب بن عباد

١ - في ذى القعدة سنة ٣٢٦^(١) للهجرة ولد إسماعيل بن عباد في الطالقان - وهي ولاية بين قزوين وأبهر - في بيت معروف بالعلم والفضل ، فهو ابن عباد بن العباس أحد المتفوقين في عصره في علوم اللغة والدين . وكانت الطالقان فيما يظهر من كلام ياقوت في معجم البلدان من البقاع التي غلب على أهلها العلم وعرفت بالسبق في فنون الآداب . ولسنا نعرف من بداية ابن عباد شيئا كثيرا^(٢) ، ولكن يظهر من المصير الذي انتهى إليه أنه كان شابا ذكيا أعد نفسه لمنازل العظمة والجبروت . حدث عن نفسه قال : حضرت مجلس ابن العميد عشية من عشايا شهر رمضان وقد حضره الفقهاء والمتكلمون للناظرة ، وأنا إذ ذاك في ريعان شبابي ، فلمّا تقوّض المجلس وانصرف القوم وقد حلّ الإفطار بكرت ذلك فيما بيني وبين نفسي وأستبجحت إغفاله الأمر بتفطير الحاضرين مع وفور رياسته واتساع حاله ، واعتقدت أن لا أخلّ به إذا تمّت يوما مقامه . وقد تمّ له ذلك فكان لا يدخل عليه في شهر رمضان بعد العصر أحد كلّنا من كان فيخرج من داره إلا بعد الإفطار عنده ، وكانت داره لا تخلو في كل ليلة من ليالي شهر رمضان من ألف نفس مفطرة بها ، وكانت صلاته وصدقاته وقرباته في هذا الشهر تبلغ مبلغ ما يطلق منها في جميع تهوّر السنة^(٣) .

٢ - وأول ما نعرف من نباهة شأنه هو اتصاله بأبي الفصّل بن العميد ، فقد كان يخدمه خاصة ، ثم ترقّت به الحال إلى أن كتب لمؤيد الدولة بن ركن الدولة بن بويه ، ومؤيد الدولة

(١) هكذا ذكر ياقوت في معجم الأدباء ، وفي بنية الوعاة سنة ٣٢٤ (ص ١٥٦) . (٢) في بنية الوعاة انه كان في الصفر إذا أراد المضي إلى المسجد ليقرأ تعطيله والدته ديارا في كل يوم ودرهما وتقول له تصدّق بهذا على أول فقير تلقاه فكان هذا دأبه في شبابه إلى أن كبر وصار يقول للفراس كل ليلة : اطرح تحت المِطْرَح ديناراً ودرهما لثلاث نساء . (٣) ص ٣٦ ج ٣ يتيمة الدهر .

يومئذ أمير ، فلما مات ركن الدولة وولى مؤيد الدولة بلاد بالرى وأصبهان أستوزر ابن عباد وحكّمه فى أمواله ، وكان لقبه الصاحب فى حياة أبيه أنسابه . فلما مات مؤيد الدولة أحضر الصاحب نحر الدولة أخا مؤيد الدولة — وقد كان حرب من أخيه عضد الدولة والتجأ الى الساسانية بخراسان — وملكه البلاد ، فأقر الصاحب بن عباد على أمره ، فبقى الصاحب نافذ الحكم تقدّم كلمته على كلمة نحر الدولة الى أن مات فى ٢٤ صفر سنة ٣٨٥

قال السيوطى فى بنية الوعاة^(١) : ولى الصاحب الوزارة ثماني عشرة سنة وشهرا لمؤيد الدولة بن ركن الدولة ابن بويه وأخيه نحر الدولة ، وهو أول من سمي الصاحب من الوزراء لأنه صحب مؤيد الدولة من الصبا وسماه الصاحب فلقب عليه هذا اللقب ، ولم يعظم وزيراً مخدومه ما عظمه نحر الدولة .

ويظهر من كلام السيوطى أن نحر الدولة كان يعظم ابن عباد لفضله ، ونحن نرجح أنه كان يوقره أتمقاء لشده !

٣ — كان تكوين الصاحب من الوجهة العلمية تكويناً جيداً ، فقد أخذ الأدب عن ابن فارس وابن العميد وسمع من أبيه ، وحدث وقعد للإملاء ، وازدحم الناس على درسه ، بحيث كان له ستة من المستملين^(٢) . أرسل إليه فى السر نوح بن منصور ملك خراسان يدعوه ليلقى إليه مقاليد مملكته ويعتمده لوزارته ويحكمه فى ثمرات بلاده ، فكان فيما اعتذر به الصاحب أن نقل كتبه خاصة يحتاج الى أربعائة جمل^(٣) . وأسعاره ورسائله تدل على أنه كان أعجوبة من أعاجيب زمانه وأنه كان من أووى الناس حظاً فى دقة الفهم وبراعة القول وسعة الأطلاع .

٤ — أما أخلاق الصاحب فكانت مذبذبة بين الحسن والقبح : كان كريماً ولكن كرمه كان نفاً ينصب لشرائطين الشرء والكتاب . قال التوحيدى : قلت لأبى السلم نجبة بن على

القوطاني الشاعر : أين ابن العميد من ابن عباد ؟ فقال : زرتهما جميعا وكان ابن العميد أعقل وكان يدعى الكرم ، وابن عباد أكرم ويدعى العقل ، وهما في دعواهما كاذبان^(١) .

وكان الصاحب مفتونا بنفسه لا يرضيه أن يعترف لغيره بفضل أو يوفق سواه الى حق . قال يوما لجلسائه : ما صدر قول الشاعر :

* والمورد العذب كثير الزحام *

فسكتت الجماعة ، فقال ابن الداري :

* يزدحم الناس على بابه *

فأقبل عليه بغيظ وقال : ما عرفتك إلا متعجرفا جاهلا ، أما كان لك بالجماعة أسوة^(٢) ! .

وورد إلى الصاحب رجل من أهل الشام فكان فيما استخبره عنه : رسائل من تُقرأ عندهم ؟ فقال : رسائل ابن عبد كان . قال : ومن ؟ قال : رسائل الصابي . وغمزه أحد جلسائه ليقول رسائل الصاحب فلم يفتن ، وراه الصاحب فقال : تغمز حمارا لا يحس^(٣) ! .

وكان الصاحب يحب الفخر وأتت حال الفضائل التي ربما قصر عنها ، كذلك يقول ياقوت ، ويذكر في تأييد ذلك أن الصاحب حدث أنه عند دخوله الى بغداد قصد القاضي أبا السائب عتبة بن عبيد لقضاء حقه فتناقل في القيام له ، وتحفز تحفزا أراه به ضعف حركته وقصور نهضته ، فأخذ الصاحب بضبعه وأقامه وقال : نعين القاضي على قضاء حقوق إخوانه ! فجل أبو السائب وأعتذر إليه . والقصة وقعت أخير الصاحب ولكنه انتحلها لنفسه وحكاها في مجلس أنسه فشاعت عنه^(٤) .

وسمع الصاحب يقول : ما بقي من أوطاري وأغراض إلا أن أملك العراق وأتصدر ببغداد وأستكتب أبا إسحاق الصابي ويكتب عني وأغير عليه . وهي شهوة قاهرة أن يسيطر على الصابي أحد أعلام ذلك الزمان . والشواهد على ضعف عقل الصاحب وخلقه كثيرة جدا

(١) ٣٠١ ج ٢ ياقوت . (٢) ٣٠٠ ج ٢ ياقوت . (٣) ٣١٥ ج ٢ ياقوت .

(٤) ٣٣٨ و ٣٣٩ ج ٢ ياقوت . (٥) ٣٣٧ ج ٢ ياقوت .

يراجح القارئ مبسوطة في معجم الأدباء ، ولكن أكثر ما أخذ عليه مكتوب بقلم أبي حيان التوحيدى ، والتوحيدى غير عدل في هذا الباب لأن كلامه على الصاحب كلام مورتور يحمله حقه على الكذب والافتراء ، ومع هذا فقد قال التوحيدى عند ما قارب الفراغ من كتابه أخلاق الوزيرين الذى وضعه للخط من قدر ابن العميد وابن عباد : « ولولا أن هذين الرجلين كانا كبيرى زمانهما ، وإليهما انتهت الأمور ، وعليهما طلعت شمس الفضل ، وبهما ازدانت الدنيا ، وكانا بحيث ينشر الحسن منهما نشرًا ، والقبیح يؤثر عنهما أثرًا ، لكنت لا أتسكع في حديثهما هذا التسكع ، ولا أنحى عليهما بهذا الحدّ ، ولكن النقص من يدعى التمام أشنع . والحرماني من السيد المأمول فاقرة ، والجهل من العالم منكر ، والكبرة من يدعى العصمة جائحة ، والبخل ممن يتبرأ منه بدعواه عجيب . ولو أردت مع هذا كله أن تجد لهما ثالثًا في جميع من كتب للبل والديلم الى وقتك هذا المؤرخ في الكتاب لم تجد »^(١) .

٥ — وما اختلقه التوحيدى على ابن عباد يدل على أمرين : الأول أن ابن عباد كان شخصية بارزة جدًا ، شطرت الناس شطرين فشطر عدو وشطر صديق ، فاستطاع ابن عباد لذلك أن يذكر وهو مفتون انه مدح بمائة ألف قصيدة عربية وفارسية .^(٢)

واستطاع التوحيدى وأضرابه من الطامعين الحاسدين أن يفتنوا في ذمه وثلبه وأن يجدوا آذانًا تستطيب ما يقال فيه من الاتم والبهتان . الأمر الثانى تفوق أهل ذلك الزمان في الهجاء . ففى ما كتبه التوحيدى شواهد كثيرة تدل على أنهم كانوا يعرفون كيف تكون السخرية وكيف يكون التعريض اللذاع . فمن ذلك ما عرضه التوحيدى في التدليل على غرام الصاحب بالمدح وتهافت أصحابه في إرضاء شهوته الى الثناء . قال : ولقد بلغ من ركاكته أنه كان عنده أبو طالب العلوى فكان اذا سمع منه كلاما يسجع فيه وخبرًا ينمقه يباقي عينيه وينشر منتخريه ويرى أنه قد لحقه غشى حتى يرش على وجهه ماء الورد ، فاذا أفاق قيل : ما أصابك ؟ ما عراك ؟ ما الذى نالك وتغشاك ؟ فيقول : ما زال كلام مولاي يروقني ويؤتقني حتى

فارقني لبي، وزايلني عقلی، وانشرحت مفاصلی، وتخاذلت عرى قلبي، وزحل ذهني، وحيل بني وبين رشدی . فيتהל وجه ابن عباد عند ذلك ويتنفس ويضحك غجبا وجهلا . ثم يأمر له بالحباء والتكرمة ويقدمه على جميع بني أبيه وعمه^(١) .

والتوحيدى بعد أن يقص هذا يقول : ” ومن يخذع هكذا فهو بالنساء الرعن أشبه . والصبيان الضعاف أمثل “ ونحن لانستبعد أن يقع ابن عباد في مثل هذا الضعف الخلقى ، فان الرؤساء كثيرا ما يؤخذ عليهم انحلال الخلق من هذه الناحية ، وهم يغارون غيرة شديدة على نفوذهم ومكانتهم الاجتماعية ، ويعملون خبثا أو جهلا على التحدث بمواهبهم والإتادة بما يزعمون أنهم أنفردوا به من قوة البأس وفصاحة المنطق وذكاء الجنان . ولكن العجيب حقا هو هذه الصورة التي وضعها التوحيدى للتملق السخيف المرذول الذى يقع فيه المفلسون من الأتباع السخفاء .

٦ — ومن الصور التي وضعها التوحيدى لغرور ابن عباد القصة الآتية :

” ناظر ابن عباد بالرى اليهودى رأس الجالوت في إعجاز القرآن ، فراجعه اليهودى فيه طويلا حتى أحتد وكاد يتقد ، فأحتال اليهودى في مخالته وقال :

أيها صاحب ! لم نتقد وتستشيط وتلهب وتختلط “ كيف يكون القرآن عندى آية ودلالة ومعجزة من جهة نظمه وتأليفه . فان كان الطم والتأليف بديعين وكان البلاء فيما تدعى عنه عاجزين وله مذعنين فهأنا أصدق عن نفسى وأقول ما عندى : إن رسائلك وكلامك وفكرك وما تؤلفه وتباد به نظما ونثرا هو فوق ذلك ، أو مثل ذلك وقريب منه ، وعلى كل حال فليس يظهر لى أنه دونه ، وأن ذلك يستعلى عليه بوجه من وجوه الكلام أو بمرتبة من مراتب البلاغة .

فلما سمع ابن عباد هذا فتر وحمد وسكن عن حركته وقال : ولا هكذا يا شيخ ! كلامنا حسن وبلغ وقد أخذ من الجزالة حظا وافرا ، ومن البيان نصيبا ظاهرا ، ولكن القرآن له

المزية التي لا تجهل ، والشرف الذي لا يخجل ، وأين ما خلقه الله على أتم حسن وبهاء مما يخلقه العبد يطلب وتكلف .

وهذا كله يقوله وقد خبا حمية وتراجع مزاجه وصارت ناره رمادا مع إعجاب شديد قد شاع في أعطافه ، وفرح غالب قد دب في أسارير وجهه لأنه رأى كلامه يبدو لليهود وأهل الملل شيئا بالقرآن^(١) .

فهذه أيضا صورة جميلة من صور التوحيدى ، وليس يضيرها أن تكون مختلفة . فقد تكون صور الواقع أظلم من صور الاختلاق ، والمهم أن التوحيدى أعطانا على حساب ابن عباد صورة متقنة من صور الضعف واللؤم التي نراها غالبا في الرؤساء المفتونين ، وربما كان الصاحب أقرب من غيره الى طهارة القلب لأنه يخدع ، وقد يخدع الكريم ، على حين نرى من الرؤساء من يطرب ويرقص لثناء أتباعه عليه ، وفنائهم فيه ، ولكنه لا يزال يتشبث بأذيال التعقل فيدرك أنهم يثنون عليه راغبين أو راهبين ، ويبتئ لهم من الحقد والضعينة والكيد ما قد ينكشف عن قاصمة الظهر أو مُندية الجبين . وأمثال هؤلاء صغار في أنفسهم ، إذ يحدث أحيانا أن يمدحهم الناس صادقين ، فيظنون لهوانهم على سرائرهم أن ما يوجه اليهم من المديح ليس إلا ضربا من ضروب الختل والخداع .

٧ - وللتوحيدى مفتريات كثيرة على ابن عباد تدل على حذق بالغ وخيال عجيب ، وقد أراد التوحيدى أن يدارى تحامله فأضاف الى ابن عباد بعض الأجوبة المفحمة ، في شؤون كثيرة ، بعضها مما لا تصلح روايته ، ومنها الفكاهة الآتية :

” قال قوم من أصحابنا لابن عباد : لو كان القرآن مخلوقا لحاز أن يموت ، ولو مات القرآن في آخر شعبان بماذا كنا نصلى التراويح في رمضان ؟ فقال ، لو مات القرآن كان رمضان يموت أيضا ، ويقول : لا حياة لي بعدك ، ولا نصلى التراويح ونستريح ! “^(٢)

وهذه الفكاكة تمثل روح الارتباب الذي كان يدب في صدور أهل ذلك العصر .
 والتوحيدى هنا متسامح مع صاحب لأنه يريد أن يصل عن طريقه الى نشر هذه النكتة
 برفق ولطف ، ولا ينس القارىء دقة الخيال فى كلمة : لومات القرآن فى آخر شعبان بماذا
 كما نصلى التراويح فى رمضان ! مع أن التراويح ليست كل شىء فى الاسلام ، وانما أراد
 الكاتب أن يصل الى أن رمضان كان يموت ! ورمضان عند كتاب القرن الرابع شىء ثقيل ،
 هجاء من بينهم بديع الزمان وأبو الفصل بن العميد .

٨ - ومن دلائل عظمة صاحب أن المؤرخين أطالوا الخلاف فى تقرير فضله ، فبينما
 التوحيدى يلح فى ثلبه وتنقصه والزراية به ، والإنحاء عليه ، يقوم الثعالبي من جانب آخر
 فيقول فيه :

” ليست تحضرني عبارة أرضاها للافصاح عن علو محله فى العلم والأدب ، وجلال شأنه
 فى الجود والكرم ، وتفرد به غايات المحاسن ، وجمعه أشدات المفانر ، لأن همة قولى لنخفض
 عن بلوع أدنى فضائله ومعاليه ، وجهد وصنئ يقصر عن أسير فواضله ومسايعه ، ولكنى
 أقول هو صدر المشرق ، وتاريخ المجد وغرة الزمان ، وينبوع العدل والاحسان ، ومن لا حرج
 فى مدحه بكل ما يمدح به مخاوق ، ولولاه ما قامت للفضل فى دهرنا سوق ، وكانت أيامه
 للعلوية والعلماء ، والأدباء والشعراء ، وحضرته محط رحالهم ، وبوسم فضلائهم ، ومترع آمالهم ،
 وأمواله مصروفة اليهم ، وصنائعه مقصورة عليهم ، وهمته فى مجد يشيده ، وإنعام يجده ، وفاضل
 يصطنعه ، وكلام حسن يصنعه أو يسمعه . ولما كان نادرة عطارى فى البلاغة ، واسطة
 عقد الدهر فى السماحة ، جلب إليه من الآفاق وأقاصى البلاد كل خطاب بزل ، وقول
 فصل ، وصارت حضرته مشرعا لروائع الكلام ، وبدائع الأثنام ، وثمار الخواطر ، ومجلسه
 مجمعا لصوب العقول ، وذوب العلوم ، ودرر القرائح . فبلغ من البلاغة ما يعتد فى السحر ،
 ويكاد يدخل فى حد الإعجاز ، وسار كلامه مسير الشمس ، ونظم ناحيتى الشرق والغرب ،
 وأخفف به من نجوم الأرض ، وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر ، من يربى عددهم

على شعراء الرشيد، ولا يقتصرون عنهم في الأخذ برقاب القوافي، وملك رق المعاني، فإنه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحول الشعراء المذكورين. الخ^(١).
وهنا مضى الثعالي يسرد أسماء الشعراء والكتاب والخطباء الذين قدموا على الصاحب أو كاتبوه: كأبي الحسن السلامي، وأبي بكر الخوارزمي، وأبي طالب المأموني، وأبي الحسن البديهي، وأبي سعيد الرستمي، وأبي القاسم الزعفراني، وأبي العباس الضبي. الخ. الخ^(٢).

٩ — ونحن لو تعقبنا من اتصلوا بالصاحب ممن ورد ذكرهم في كتب الأدب لرأيناهم نحو المائة أو يزيدون من مشاهير الرجال الذين أثروا في عصرهم وفيما تلاه من العصور أبلغ تأثير، وهؤلاء الذين عرفوا الصاحب فرضوا عنه، أو غضبوا عليه، أثر كبير فيما نسب إليه من المناقب، أو حمل عليه من المثالب. ولهم كذلك أثر فيما عرف من طيشه، وغروره، وصلفه، وتحامله، أو بره، وجوده، وفضله، وتطوله، فان إقبال الرجال المشاهير على الرجل العبقري يرهف حواسه ومشاعره، ويوقظ ما غفا فيه من كريم الشئائل، وسيئ الطباع. والإنسان في جملة مجموعة مختلفة من الحسن والقبح، والتسامي والإسفاف، وإقبال الدهر وإدباره يكشفان عن أسرار الغرائز والميول، وقلمنا تظهر محاسن الناس ومساوئهم إلا حين يرتفعون، أو حين ينخفضون، أما الرجل الذي يعيش عيشة وسطا لا مجال فيها للزهو أو الحقد فإنه يظل مستور النواز والخلال، وكذلك تأثر الصاحب بحاشيته فأولع بالاغراب، وكلف بالظهور على معاصريه من الكتاب والشعراء، وجرت له مع قاصديه من أرباب الحاجات نكت سارت مسير الأمثال. فقد ذكروا أن بعض أصحابه كتب إليه رقعة في حاجة، فوقع فيها، ولما وردت إليه لم يرفها نوقعا، وقد تواترت الأخبار بوقوع التوقيع فيها. فعرضها على أبي العباس الضبي فما زال يتصفحها حتى عثر بالتوقيع وهو ألف واحدة، وكان في الرقعة: "فإن رأى مولانا أن ينعم بكذا فعل" فأثبت الصاحب أمام «فعل» ألفا، يعني «أفعل»^(٣).

وكتب بعض العمال رقعة اليه في آلتاس شغل ، وفي الرقعة : ” إن رأى مولانا أن يأمر بإشغالي ببعض أشغاله “ فوق تحتها : ” من كتب لإشغالي لا يصلح لأشغالي “^(١) .

ورفع الضرابون من دار الضرب قصة الى صاحب في ظلامه لهم مترجمة بالضرايين فوق تحتها : ” في حديد بارد “^(١) .

١٠ — وقد وصل به الإغراب الى أن يكتب في معان بعيدة عما ألف الكتابة فيه من شئون العقل والوجدان . قال الثعالبي : ” سمعت أبا جعفر الطيب المعروف بالبلاذري يقول إن للصاحب رسالة في الطب لو علمها ابن قرة وابن زكريا لما زاد عليها ، فسألته أن يعيرنيها إن كانت عنده ، فذكر أنها في جملة ما غاب عنه من كتبه ، فاستغربت وأستبعدت ما حكاها من تطيب صاحب ، ونسبته في نفسى الى التزيد والتكثري الى أن ظفرت في نسخة الرسائل المؤلفة المبوبة للصاحب برسالة قدرتها تلك التي ذكرها أبو جعفر ووجدتها تجمع الى ملاحه البلاغة ، ورشاقة العبارة ، حسن التصرف في لطائف الطب وخصائصه ، وتدل على التبحر في علمه وقوة المعرفة بدقائقه “^(٢) .

والمهم في هذا هو أرتياب الثعالبي فيما نسب الى صاحب من التطبيب وظنه أن ذلك قد يكون من التزيد والتكثري . ففي هذا اشارة الى أن صاحب كان مبتلى بحاشيته يتقولون عليه الأقاويل . أما أنا فأرجح أن رسالة صاحب في التطبيب لم تكتب الا معارضة للحوارزمي في رسالة كتبها الى أحد تلامذته في نفس المعنى ، وفي هذا دليل على أن صاحب تأثر بمن اتصل به من الكتاب كما أثر فيهم .

١١ — وهنا ملاحظة لابد منها : ذلك أن الحوارزمي والصاحب حين كتبوا في الطب استطاعا أن يقيما البرهان على أن الكاتب القدير يستطيع أن يضع المسائل الجافة في لغة جميلة نفيس بالعدوثة واللين ، مع أن في بعض الموضوعات خشونة طبيعية لا تألف لغة السجع والتورية والجناس ، واليك نموذجا من رسالة صاحب الى صديق شكاه اليه علة ألمت به :

(١) ص ٣٨ ج ٣ قيمة . (٢) ص ٤٢ ج ٣ قيمة .

وقد عرفت مشرحة مولاي من أمره، وأنبأ عنه من أحوال جسمه . قد سئى جلته على
 بتر في البيت يحتاج معها أن نصبر على استيقه ورفق بصافية . فمما انتهى يشكو من
 ضعف مدرته . وقرة شهوته، فلا تمرين : أحدهما أن جسمه كما قلت تنفلا لم ينق فتنق الشهوة
 الصادقة، وترجع مادة السابقة، ولا تخرج المعرة لما دامت عيب الطفيات، ولزمت بها
 المبررات، قلت شهوته، وضعف انخض، ومع ذلك فلا بد مما يظني ويغري، ثم يمكن من
 بعد أن يتناولك ضعف المعدة بما يقوى منها، ويرى بمرض المكتسب عنها ... والأقراص
 في آخر الخيت خير ما نقيت به المعدة، وأصلحت به العروق، وقوى به الطحال، ليمكن
 من جذب العنكة، لا سيما وأنى وجدته مولاي ليس انتب فيه للحصيات التي وجدها، والبلادة
 التي ورددها، فلو صدق هواء المتغير جسدا تنقيا من تقصول لما أثر هذا التأثير، ولا طول
 هذا التطويل ... الخ . وهي رسالة طويلة .

وأليك قطعة من رسالة الخوارزمي التي تليها له وقد ظهر عليه الجدي :

”هذه العلة وإن كانت موجهة، وفي رأى العين قطيعة تسعة، فإنها إلى السلامة أقرب،
 وضريقها إلى الحياة أقصد، لأن عين الطبيب تقع عليها، ويد المرض والمعايج تصل إليها،
 وإنما هي قرح نبهت الطبيعة، ودأ أثره الحرارة، وظاهر الداء أسلم من باطنه، وبرز بالجرح
 أحسن من كمنه، وهذه بعد علة تعم الأبدان، وتشمل الصبيان، وإذا كانت العلة عامة كانت
 أكثر ضرا ودواء، وأخف على القلوب أعباء، لأن النفس تستريح إلى المشاركة وتأنس بالجماعة
 كما تستوحش من الوحدة . ولعمري إنها تورث سواد اللون، وتذهب من الوجه بديباجة
 الحسن، ولكن ذلك يسير في جنب السلامة للروح اللطيفة، والنفس الشريفة، وفي الشر
 خيار، ومن المحنة إلى المحنة صروف وأقدار ... الخ“ .

والخوارزمي رسالة أخرى طويلة كتبها إلى بعض الأمراء وقد ورد عليه بكتاب يشكو فيه
 الحرب، فنقبس منها الفقرات الآتية :

”... الحرب حكمة مادتها ييوسة وحرارة ووقود وآلتهاب، زندهما الذى يقتبسان منه طعام وشراب، وفضلة قذقتها الطبيعة الى ظاهر البدن، ودفع الله تعالى شرها عن الباطن، وعسكر من عساكر البلاء تمده القذارة، وتهزمه الطهارة، وتنقص منه البرودة والرطوبة، كما تزيد فيه الييوسة والحرارة . ومن داوى ظاهره وترك باطنه، فانما ييل حائطا وراء النار الموقدة، ويرش على سطح بيت فيه الشرر المبتوثة، ويقعد تحت قول الأول :

خليلى داوىما ظاهرا فن ذا يداوى جوى باطنا

وكيف تقطع مادة نار تطفأ عن ظاهر الجسد، وهى تتوقد فى باطن الكبد ... أرى لسيدي أن يصبر على الجوع مع مرارته، وعلى العطش مع حرارته، وأن يقتصر من الطعام على ما يكون فى أوسط طبقات الرطوبة، وفى أعدل موازين البرودة، ولا بد من هجر اللحم والفاكهة ولا سبيل الى الحرافة . فأما البقول فيجب أن لا ترى ولو فى المنام، ولا تمس ولو بالأوهام، والسّمك وما ناسبه بلية، واللبن وما خرج منه منية، .. وهذه علة تكسب صاحبها خزاية وحياة، وثورته نجلا واسترخاء، ينظر الى الناس بعين المريب، ويتستر عنهم كتستر المعيب، تنفر عنه الطباع، وتستقذره النفوس، وتنبو عن مؤاكلته العيون، ... ولولم يكن من دقائق آفاتهما، ومن عجب هناتهما، إلا أنها تسبخ الفتیان، وتمسخ الانسان، وتجعله أميا بعد أن كان غير أمي، وأعجميا وليس بأعجمي، تنفر من نفسه نفسه، وتهرب من فراشه عرسه، ويتباعد عنه أقرب الناس منه، لقد كانت جديرة أن يحتشد لدوائها، وتبدل الرغائب فى فنائها، ثم هى ربع من أرباع الخذلان، وقسم من أقسام الحرمان . قال الشاعر :

(١) أعاذك الله من أشياء أربعة الموت والعشق والافلاس والحرب

١٢ — ولو أن تلك الرسائل أرخت لاستطعنا أن نعرف أى الكاتبين أسبق الى الكتابة فى المعانى الطبية التى ظنها الثعالبي بعيدة عن تناول الكتاب . والصلة بين الصاحب والخوازمي

كانت قوية تسمح لأحدهما بأن يقف على ما يكتب الآخر، وإن كانت ضعفت بعد ذلك، حتى كتب الخوارزمي إلى الصاحب يعاتبه :

”...ولقد كانت أيامي بحضرة الوزير قصارا، وكان ليلى بها نهارا، وساعاتي فيها أسحارا، كما أن أيام فراقه أيام طوال، وليلة فراقه تعدّ ليال، وإنى بعد صبري على فراقه لجلد على وقع سهام الحجرج، واسع المجال في ميدان الصبر...“^(١) الخ .

١٣ - ولم يقف الصاحب في الإغراب عند حد معقول، وإنما مضى يغرب في الصنعة شعرا وثراً، فوضع قصيدة تبلغ سبعين بيتا خالية من الألف، وهي أكثر الحروف دخولا في المنظوم والمشور، مطلعها :

قد ظل يحرج صدرى من ليس يعدوه فكرى

وقد سارت هذه القصيدة، واستمر الصاحب فعلم عدة قصائد كل واحدة خالية من حرف من حروف الهجاء، وبقيت عليه واحدة تكون معراة من الواو، فأنبى أبو الحسين الحمداني وقال قصيدة ليس فيها واو، ومدح الصاحب في أنثائها . وأولها :

برق ذكرت به الحبايب لما بدا فالدمع ساكب
أمدامى منهلة هاتيك أم غزر السحاب
نثرت لآلى أدمع لم يفتزعها كف ثاقب^(٢)

وقد أخطأ المسيو ميتس (Mets) حين ظن أن الحمداني الذي صنع هذه القصيدة هو الحمداني صاحب المقامات . كلا، فهذا على بن الحسين، وذلك بديع الزمان أحمد بن الحسين . والصاحب مسبوق في هذا النوع من الانشاء، سبقه واصل بن عطاء الذي تجنب حرف الراء في خطبه وأحاديثه مع كثرة دوران ذلك الحرف في الكلام . لكن ابن عطاء كان مضطرا لذلك، إذ كان ألغى، أما الصاحب فيمضى في هذا الفن صنعة وتكلفا ليكاثر معاصريه من

(١) ص ١٥٢ رسائل . (٢) ص ٢٢٣ ج ٢ يتيبة .

(٣) ترجمة المسبوروش الفرنسية التي تفضلنا إعطانا نسخة منها قيل أن تطبع .

الكتاب والشعراء . ومن المحتمل أن يكون صاحب هو الذي أثار في أبي العلاء فكرة التزام مالا يلزم، وهو نوع من التكلف أثقل به ديوان الزوميات .

١٤ — قالت إن صاحب كان شديد الرغبة في استعباد الكتاب والشعراء، وقد نال من ذلك مبتغاه . ولكن المتنبي استعصى عليه وترفع عن مدحه والانتساب إليه . فأسرها صاحب في نفسه وأخذ يؤلب النقاد والكتاب ضده ويحملهم على مهاجمته والنيل من قدره . ويمكن الحكم بأن الحملات التي هوجم بها المتنبي وهو حي كان أكثرها بتحريض صاحب والمهلي، وكلاهما كان يطمع في انحياز المتنبي إليه . وقد اشترك صاحب بنفسه في مهاجمة المتنبي فكتب رسالة نقد بها شعره . وهى رسالة يغلب فيها التحامل، ولكنها مع ذلك رسالة قيمة، تدل على فهمه للشعر وبصره بالنقد . ذكر في مقدمتها أنه كان يذاكر بعض المتأدين فسأله عن المتنبي، فأجاب صاحب : انه بعيد المرمى في شعره، كثير الإصابة في نظمه، إلا أنه ربما يأتيه لثقة الغراء، مشفوعة بالكلمة العوراء . فهاج محادثه وانزعج، وأدعى أن شعر المتنبي هو الموت لم يمتسئسئ الأقسام، ولم يرض حتى تحدها فقال : ان كان الأمر كما زعمت ولم يحتنب للبيان الله بالخطبة ما تذكره، لتصفحه العيون، وتسبكه العقول .

يحل عرى الجحيم، وإن لم يكن تطلب العثرات من شيتي، ولا تتبع الزلات من طريد . وليس عجيباً أن يهلم لا يهفو، وأى صارم لا ينبو، وأى جواد لا يكبو، وإنما فعلت . ولكن عريض بحر يرض أنى من يروى قبل أن يروى، ويخير قبل أن يخبر، فأسمع وأنصت . أبلغ الفتيان أنى، فما أوردت فيه إلا قليلاً، ولا ذكرت من عظيم عيوبه إلا يسيراً . وقد بليتنا بزمن يكاد المنسم فيه يعلو الغارب، وميتنا بأعيار أغمار اغتروا بمادح الجهال، لا يضرعون لمن حلب الأدب أفاويقده، والعلم أشطره، لا سيما على الشعر فهو فوق الثريا وهم دون الثرى، وقد يوهمون أنهم يعرفون فإذا حكموا رأيت بهائم مرسنة، وانما ما (١) مجفلة .

١٥ - وقد رأى الصاحب بعد ذلك أن يخبرنا أنه أعدّ للنقد عدته : بفلاس الشعراء ، وكاثر الأدباء ، وباحث الفضلاء ، وعشرين سنة ، وأخذ عن رواة المبرد وكتب عن أصحاب ثعلب عشرين سنة أخرى . وذكر لنا بهذه المناسبة أنه لم يجد فيمن صحب من يفهم الشعر كما يفهمه أبو الفضل بن العميد "فانه يتجاوز نقد الأبيات الى نقد الحروف والكلمات ، ولا يرضى بتهديب المعنى حتى يطالب بتخير القافية والوزن " ثم مضى في سرد الأحاديث التي وقعت بينه وبين ابن العميد في نقد الشعر ، الى أن قال : "وسمعته أيدى الله يقول : إن أكثر الشعراء ليس يدرون كيف يجب أن يوضع الشعر ، ويبتدأ النسيج ، لأن حق الشاعر أن يتأمل الغرض الذى قصده ، والمعنى الذى اعتمده ، وينظر فى أى الأوزان يكون أحسن استقراراً ، ومع أى القوافى يحصل أجمل أطراد ، فيركب مراباً لا يخشى انقطاعه والتبائه عليه " ، فأنبرى (١) :
ونحن نستجيد رأى ابن العميد فى تجاوز نقد الأبيات الى (٢) . وأولها :
ورجح أن ابن شهيد الأندلسى تأثر بهذا رأى حين قال : "إن مع ساكب
فى الكلام ، فإذا جاور النسيب النسيب ، ومازج القريب القريب ، السحاب
(٢) كفى ثاقب
لصحة " . (٢)

١٦ - وليس يهمنا أن نلخص ذلك الكتاب ، فلنكتفِ بذلك الذي صنع هذه الأداة المتنبي

في رثاء أم سيف الدولة ليكون نموذجاً لبقية المآخذ . قال صاحب :
” ولقد مررت على مرثية له في أم سيف الدولة تدل مع فساده الحسن ، على سوء أدب النفس ، وما ظنك بمن يخاطب ملكاً في أمه بقوله :
* رواقُ العز فوقك مسطر *
فمن ذا الذي صنع هذه الأداة المتنبي

٥ - قلت : إن أبا عامر بن شهيد كان يحب الحياة حبا شديدا ، وكان يرى العيش كل العيش في معاورة الجمال والصمباء ؛ فلنذكر الآن أنه كان لذلك من أشد الناس إحساسا بكرامة الموت ، وقد بلغ من تفزعه أن شعر معاصروه جميعا بألمه وأمتعاضه وتهالكه على التثبت بأذيال الحياة .

قال ابن بسام : " ولما طال بأبي عامر ألمه ، وتزايد سقمه ، وغلب عليه الفالج الذي عرض له في مستهل ذي القعدة سنة خمس وعشرين وأربعمائة ، لم يعد له حركة ولا قلب ، وكان يمشي الى حاجته على عصا مرة ، و اعتمادا على انسان مرة ، الى قبل وفاته بعشرين يوما فانه صار حجرا لا يبرح ولا يتقلب ، ولا يحتمل أن يحرك لعظيم الأوجاع مع ضغط الأنفاس وعدم الصبر حتى هم بقتل نفسه ^(١) " .

فلتصور قسوة المرض التي تحمل رجالا كابن شهيد على التفكير في الانتحار ، ولنقرأ

هو الموت لم يُصْنَى وأندب نبلها	إذا أنا في الضراء أزمعت قتلها
ولم يحتنب للبل الله في كل حالة	على وأحكاما تيقنت عدلها
يحمل عرى الجنبني العصا	على ضعف ساق أوهن السقم رجلها
وليس عجيبا أن ت وكربة	كنسفت ودار كنت في المحل وبلها
ولكن عريض ^(٢) بحر يرض بعثته	الى خطبة لا ينكر الجمع فضلها
فمن مبلغ الفتيان أن أحامو	أخو فتكة تنعاء ما كان شكها
عاليكم سلام من فتي عضه الردى	فلم ينس عينا ثبَّت فيه نبلها
يبين وكف الموت يخلع نفسه	وداخلها حب يهون ثكلها

ولم يفتم ابن شهيد أن يظل على عنف المرض ظريف الحس والروح ، فقد حدث أبو بكر المصنفى قال :

(١) الدخيرة ص ١٦٥ ج ١ (٢) الجريض بالجم الريق ، وهي في نسخة الدخيرة بالحاء المهملة .

دخلت يوما على أبي عامر بن شهيد، وقد ابتدأت عليه التي مات منها، فأنس بي وجرى الحديث الى أن سكوت له تجنى بعض إخواني على وفارده عني، فقال : سأسعى لإصلاح ذات البين . فاتفق لقائي لذلك المتجنى مع بعض إخواني وأعزهم عليّ ، فلما رآني موليا عن ذلك الصديق أنكر عليّ وسأل عن السبب الموجب . فأخبره وزادا في مشيها حتى لحقاني، وعزم عليّ في تكليم صاحبي، وتعاتبنا عتابا أرق من الهوى، وأشهى من الماء على الظم، حتى جثا دار أبي عامر، فلما رأنا جميعا ضحك وقال : من كان تولى إصلاح ما سررنا بفساده؟ قلنا : قد كان ما كان! فأطرق مليا ثم أنشد :

من لا أسمى ولا أبوح به أصلح بيني وبين من أهوى
أرسلت من كبدي الهوى فدرى كيف تداوى مواضع البلوى
ولى حقوق في الحب ظاهرة لكن إلفى يعدها دعوى^(١)

وحدث المصحفي أيضا قال : دخلت عليه يوما في تلك العلة ومعهم ^{أبو عامر بن شهيد} إخواننا، وكان أبو عامر قبل ذلك يحب ممازحته فينفرد ، حتى ^{أبو عامر بن شهيد} إخوانه بشعر مسه فيه بطرف لسانه ، فقال له ذلك الغلام : ساكب تنبت في أمري ، ولا تعلم من سرى ما يوجب ذلك، فقال السحاب القراطيس والصدور . وكان ذلك إثر صلاة العشاء الأولى كف ثاقب^(٢) سرفنا إليه فأنشدنا :

ألا بأبي زائر في الغنم بوجه يحلّ سواد الظلم
تكتّم بالليل في ظله وهل يمكن الصبح أن يكتّم
أنى يستجير الينا به كما جاور البان رطب الغنم^(٢)

وقد أخذ ابن شهيد يخاطب بالشعر أحبابه وأصدقاءه خطاب الوداع فارسل الى أبي محمد

ابن حزم هذه الأبيات :

(١) الذخيرة ص ١٦٢ ح ١

(٢) للتصيدة بقية طويلة يجدها التاري في الذخيرة ص ١٦٤ ج ١

ولما رأيت العيش ولّى برأسه
تمتيت أنى ساكن فى عباءة
خليلى من ذاق المنية مرة
كأنى وقد حان أرتحالى ولم أفر
فمن مبلغ عني ابن حزم وكان لى
عليك سلام الله إني مفارق
فلا تنس تأبيني إذا ما فقدتني
وأيقنت أن الموت لاشك لاحقى
بأعلى مهب الريح فى رأس شادق
فقد ذقتها خمسين قولة صادق
قديم من الدنيا بلمحة بارق
يدا فى ملماتى وعند مضايقي
وحسبك زادا من حبيب مفارق
وتذكار أيامى وفضل خلائقي^(١)

• — وكان ابن شهيد يشعر أنه أهل لأن يبكى حين يموت، ويقول فى ذلك :

سقى الله فتيانا كأن وجوههم
إذا ذكرونى والثرى فوق أعظمى
يقولون : قد أودى أبو عامر العلى^(٢)
هو الموت لم يصرف بأجراس خاطب
ولم يحتجب للبطش مهجة قادر
يحل عرى الجبار فى دار ملكه
وليس عجيبا أن تدانت منيتى
ولكن عجيب أن بين جوانحى
يكركنى والموت يحفر همتى^(٣)
وجوه مصاييح النجوم الزواهرى
بكوا بعيون كالسحاب المواطر
أقلوا فقدا مات أبناء عامر
بليغ ولم يعطف بأنفاس شاعر
قوى ولا للضعف مهجة صابر
ويهفو بنفس الشارب المتساكر
يصدق فيها أولى أمر آخرى
هوى كشرار الجمرة المتطاير
ويحتاجنى والنفس عند حناجرى

وهذا حقًا عجيب، فان ابن شهيد ظل يتلهف فى أيام علته المهلكة الى محبوب له اسمه عمرو، وكان حبه له مشهورا يعرفه القريب والبعيد، ولنتظر كيف يتوجع وهو يخاطبه خطاب المفارق المشتاق :

(١) انظر جواب ابن حزم على هذه الايات فى ص ١٦٦ ج ١ من الذخيرة .
(٢) الخاطب :
الخطيب وهى لفظة قليلة الاستعمال وأذكر أنى رأيتها فى كلام الجاحظ، وهى أكثر وازنة لكلمة كاتب وكلمة شاعر .
(٣) يحفر : يقطع .

إقر السلام على الأصحاب أجمعهم وخُصَّ عمرًا بأزكى نور تسليم
وقل له يا أعز الناس كلهم شخصاً على وأولاهم بتهكريم
الله جارك من ذى منعة ظفرت منه الليالى "بإلف" غير مظلوم
ما كان حبك إلا صوب غادية طيباً وحاشا بحبي فيك للوم
إن شاء صرف الردى تقديم أطوعنا فقد رضيت حاك الله تقديمي
عشنا رقيقين فى بر الهوى زمنا حتى زقا بنوانا طائر الشوم
فشتت نوب الأيام ألفتنا قسرا ولم يغنها طبي وتنجيمى

وحسب القارئ أن يعلم أن آخر شعر قاله ابن شهيد هو هذه الأبيات ، وفيها ودع
إخوانه ومحبوبه آخر وداع :

أستودعُ الله إخوانى وعشرتهم (١١) وكل حرق إلى الغلياء سباق
وفتية كنجوم الغرب نيرهم يهدى وصاليهمو يردى باحراق
وكوكباً لى منهم كان مغربه قلبى ومشرقه ما بين أطواقى
الله يعلم أنى ما أفارقه إلا وفى الصدر منى حرمشتاق
فان أعش فلعل الدهر يجعنا وإن أمت فسيسقيه الردى الساقى
لا ضيع الله إلا من يضيعه ومن تخلق فيه غير أخلاقى !
قد كان بردى إذا ما مسنى كلف لا يثلم الحب آدابى وأعراقى
إنى لأرمقه والموت يضغطني فأقتضى فرجة ترتد أرماقى

ثم أوصى أن يدفن بجانب صديقه أبى الوليد الزجالى ، ويكتب على قبره فى لوح رخام
هذه الكلمة :

"بسم الله الرحمن الرحيم . قل هو نبأ عظيم أتم عنه معرضون . هذا قبر أحمد بن عبد الملك
ابن شهيد المذنب ، مات وهو يشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده

(١) الخرق بالكسر : السخى أو الظريف فى سخاوة ، والفتى الحسن الكريم الخليفة .

ورسوله ، وأن الجنة حق ، والدار حق ، والبعث حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور . ومات في شهر كذا من عام كذا .

ويكتب تحت هذا النثر هذه الأبيات وهو يخاطب بها صديقه المدفون :

يا صاحبي قم فقد أطلنا	أنحن طول المدى هجود!
فقال لي : لن نقوم منها	ما دام من فوقنا الصعيد
تذكر كم ليلة نعمنا	في ظلها والزمان عيد
وكم سرور همي علينا	سحابه نرة تجود
كل كائن لم يكن تقضى	وشؤمه حاضر عتيد
حصّله كاتب حفيظ	وضمه صادق شهيد
يا ويلنا إن تكبتنا	رحمة من بطشه شديد
يارب عفوا فأنت مولى	قصر في شكره العبيد

قال ابن بسام : وكان أبو عامر كثيرا ما يخشى صعوبة الموت ، وشدة السوق ، فيسر الله عليه ، وما زال يتكلم ويرغب الى الله أن يرفق به ، ويكثر من ذكره ، وقد أيقن بفراق الدنيا ، الى أن ذهبت نفسه رحمه الله يوم الجمعة آخر يوم من جمادى الأولى سنة ست وعشرين وأربعمائة . ولم يشهد على قبر أحد ما شهد على قبره من البكاء واللعويل .

١٣ - نثر ابن شهيد

١ - اتفق من ترجحوا لابن شهيد على وصفه بالبراعة في الانشاء، فقال ابن حيان :
 " كان أبو عامر يبلغ المعنى ولا يطيل سفر الكلام . وإذا تأملته ولسنه ، وكيف يجر
 في البلاغة رسنه ، قلت عبد الحميد في أوانه ، والجاحظ في إبانته ، والعجب منه أنه كان يدعو
 قريحته لما شاء نظمته وثره في بديته ورويته ، فيقود الكلام كما يريد من غير اقتناء
 لكتب ، ولا اعتناء بالطلب ، ولا رسوخ في الأدب ، فانه لم يوجد له - رحمه الله - فيما بلغني
 بعد موته - كتاب يستعين به على صناعته ، ويشحذ من طبعه إلا ما لا قدر له ، فزاد ذلك
 في عجائبه ، وإعجاز بدائعهم ، وكان في تمييز الحزل والنادرة الحادة أقدر منه على سائر ذلك .
 وشعره عند أهل النقد تصرف فيه تصرف المطبوعين فلم يقصر عن غايتهم . وله رسائل كثيرة
 في فنون الفكاهة وأنواع التعريض والأهزال ، قصار وطوال ، برز فيها شأوه ، وأبقاها
 في الناس خالدة . وكان في سرعة البديهة وحضور الجواب وحدته مع رقة حواشي كلامه ،
 وسهولة ألفاظه ، وبراعة أوصافه ، ونزاحة شمائله وأخلاقه ، آية من آيات خالقه ^(١) .

وقال للتحالي : " فنثره في غاية الملاحه ، وشعره في غاية الفصاحة ^(٢) " .

وقال ابن بسام : " وقد أخرجت أنا من أشعاره الشاردة ، ورسائله الباقية الخالدة ،
 ونوادره القصار والطوال ، وتعريضاته السائرة الأمثال ، ما يحل له الوقور حباه ، ويمن معه
 الكبير إلى صباه ^(٣) " .

وقال الخطاط وهو يهاجمه : " الإسهاب كلفة ، والايجاز حكمة ، وخواطر الألباب سهام
 يصاب بها أغراض الكلام . وأخونا أبو عامر يسهب نثرا ، ويطيل نظماً ، شاعخا بأنفه ،

ثانيا من عطفه، مخيلا أنه أحرز سبق في الآداب، وأوتى فصل الخطاب، فهو يستصغر
أساتيد الأدباء، ويستجهل شيوخ العلماء.

وابن اللبون اذا ما لُزَّ في قَرَن لم يستطع صولة البزل القناعيس^(١)

وهذه الآراء التي نقلناها عن ابن حيان والثعالبي والحناط تمثل رأى جمهور الناقدين
في ابن شهيد، وتدلنا على أنه شغل الناس حيناً من الزمان. ولو أنتقلنا الى رأيه في نفسه لرأيناه
مفتونا أشع الفتون بما اعتقده من إجادة النظم والشير، والتفوق البالغ على كتاب المشرق
والمغرب. وقد آن أن يوزن نثره بمقيار النقد ليعرف ما فيه من الزائف والصحيح.

٢ — سئل أبو العلاء المعرى رأيه في شعر ابن هاني، الأندلسي فأجاب: "رَحَى تَطْخَن
قرونا" وهو جواب حذق وذكاء، فضلا عما فيه من روعة التصوير. وأخشى أن
يكون الأمر كذلك في نثر ابن شهيد، فهو في الأكثر جعجعة وقعة وقفلة في غير نفع
ولا غناء. ويسوءنا والله أن يكون ذلك مانراه في نثر ذلك الرجل الذي نعتقد فيه دقة الفهم،
ورقة الطبع، وسلامة الذوق، ولكن ما الحيلة وقد قلبنا نثره على وجوهه، وراجعنا ما بقى منه
أكثر من عشرين مرة، فلم نزد إلا اقتناعا بأنه كان في إنشائه من المتكلفين.

٣ — وربما كان من أسباب الالتواء الذي نشهده في نثر ابن شهيد غرام الرجل —
كان — بمقارنة كتاب المشرق، ومواجهة كتاب المغرب بألوان من الفن كان لها في زمانه
بريق يعشى العيون. وكان النثر في ذلك العصر قد أخذ ينافس الشعر منافسة جديدة، وأستطاع
ابن شهيد أن ينافس معاصريه برسائل محبرة موشاة، تؤدى في عالم النثر ما كانت تؤدى
النقائض في عالم الشعر، فوقع له مع الافليسلى والحناط وغيرهما مافرات كان لها في مجالس
المغرب دوى شديد. هذا مع أن الرجل كان من أقوال الشعراء، وكان يستطيع أن يقارع
خصومه بالشعر، وأن يقيم من المعارك الشعرية ما يعيد به عهد الأخطل والفرزدق وجرير

(١) الذخيرة ص ٢٣٢ — والبزل جمع بازل وهو العير يلعب سبع سنين، والفساعيس جمع فساس بالكسر وهو العنقايم

من الإبل، ومن الرجال الشديد المنيع.

من شعراء المهجاء ، ولكنه أراد أن يحيى في بلاده معارك نثرية كالمعارك التي كانت تقع في الشرق بين أمثال الخوارزمي وبديع الزمان . وفي هذا إغناء للنثر وسعى إلى إمداده بمختلف المعاني والأغراض ، ولكنه انحدر بالنثر إلى موضوعات لا يصلح لها إلا قليلا ، فإن المهجاء كما تسيغه الطبيعة العربية لا يؤدي إلا بالبيت السائر أو الكلمة الشرود .

٤ — ومع ما في نثر ابن شهيد من القلق والغموض والاضطراب فإنه يغري القارئ بالبحث عما فيه من نتاج الفكر والذكاء ، وهو يشبه بعض التلال التي يوقن المتطلع بأن فيها كنوزا ، فلا يزال يقلب أكداس الخزف والتراب حتى يصل إلى بعض ما ينشد من الذهب الدفين .

ومن أمثلة ذلك أنه اندفع مرة يشتم نخاعة قرطبة ، ويقرع أبا القاسم الافليلي فلم يقل شيئا ذا بال ، ولكنه ختم رسالته بهذه الكلمات الخبيثة في وصف الافليلي :

” ليست مشيته مشية أديب ، ولا وجهه وجه أريب ، ولا جلسته جلسة عالم ، ولا أنفه أنف كاتب ، ولا نغمته نغمة شاعر ^(١) “ .

٥ — غير أن ابن شهيد لا يظل في جميع أحواله أسير القلق والغموض ، فإن له أحيانا يفصح فيها ويبين ، كقوله يخاطب أحد الأمراء :

” من عز بز ، ومن ريش طار ، ومن سارت به الأيام سار ، جد بجا ، وحسام نبا ، وآمال تفرقت أيدي سبا . كلمات أنثرها عليك ، وآمال أصرفها إليك . كنا قبل أن ترمي بنا النوى مرامينا ، وتلقى علينا الخطوب مراسينا ، وتمخضنا الأيام مخضا ، وتركض بنا الليالي ركضا ، تربى صحبة ، وحليف صسوبة ، قد تخلىنا عن الأنساب ، وانتسبنا إلى الآداب ، والدار إذ ذاك صقب ، والملقى كشب ، والزمان غمر ، وحواصلنا صفر ، تترنم ترنم الجسام ، على زرق الجسام ^(٢) ، ثم ألفت الأيام علينا بكل كل فنشترنا بكل فج عميق ، وأفق سحيق ، ونفجحت

(١) الذخيرة ص ١٢٣ ج ١ (٢) الجمام : المياه الكثيرة ، والمفرد جم ، وهو في الأصل الكثير

عليك رياح السد ، وجادتك المنى من تهامة ونجد ، وامتنطيت ظهر الجوزاء ، وافترشت لبدة^(١) العواء ، وكلما دعيت للنزال والعراك ، تترست بالثريا وطعنت بالسَّيَّك ، فزحمت منكب الدهر ، وقضيت أربك منه على قصر ، فكان أول حيصتك عن الوفاء ، وحيدتك عن رعاية قديم الإخاء ، أن تركت المخاطبة ، وأضربت عن المكاتب ، خشية أن يكون كلنا عليك ، ورغبنا فئما لديك ، وهيهات ! يابى ذلك كرم محض ، وهمة علياء نالها خفض ، ثم قلت : الجمل على حسن الظن أجمل ، والقضاء بأكرم العهد أقبل ، قد يشغل بالرؤساء ، ويجاذب العطاء ، وعينه مع ذلك راعية ، وأذنه راعية ، وإنا الوصل بالفؤاد ، لا بالمداد ، والالتقاء بالحلوم ، لا بالחסوم ، فانطويت على ود ، وثبتت على صحة عهد ... الخ^(٢) .

وهذا نثر مقبول ، لا يؤخذ عليه إلا شيء من التوسع قليل . وأوضح منه وأفصح قوله :
يصف إحدى المنافرات :

” لما قدم زهير الصقلبي قتي بنى عامر ، حضرة قرطبة من المرية ، وجه أبو جعفر عباس وزيره عن لمة من أصحابنا منهم ابن برد وأبو بكر المرواني وابن الحناط والطبني ، فسألهم عنى وقال : وجهوا عنه ، فوافاني رسوله مع دابة له بسرج محلى ثقيل فسرت إليه ودخلت المجلس وأبو جعفر غائب ، فتحرك المجلس لدخولى وقاموا جميعا إلى ، حتى طلع أبو جعفر علينا ، ساجدا لذيل لم ير أحد سحبه قبله ، وهو يترنم ، فسلمت عليه سلام من يعرف حق الرجال ، فرد رد الطغيان ، فعلمت أن في أنفه نعة لا تخرج إلا بسعوط الكلام ، ولا تراض إلا بمستحكم النظام ، فرأيت أصحابي يصيخون إلى ترنمه ، فسألته عن ذلك فقال الحناط — وكان كثير الإنحاء على ، جالبا في المحافل ما يسوء إلى — : الوزير حضره قسيم من الشعراء وهو يسألنا عن إجازته ، فعلمت أنى المراد ، فأنشده ، وهو :

مرض الجفون ولثغة في المنطق

فأخذت القلم وكتبت بديها :

مرض الجفون ولتغة في المنطق شيطان جرا عشق من لم يعشق
من لى بالثغ لا يزال حديثه يذكر على الأجداد جمرة محرق
يبي فينبو في الكلام لسانه فكأنه من نحر عينه سقى
لا ينعش الألفاظ من عثراتها ولو أنها كتبت له في مهورق

ثم قتت عنهم فلم ألبث أن وردوا علىّ، وأخبروني أن أبا جعفر لم يرض بما جئنا به من
البيده : وسالوني أن أحمل مكاوى الكلام على اختباره، وذكروا أن إدريس شجاع وأخفش،
فلم أستحسن الإخفاش، فقلت فيه معرضا إذ التعريض من محاسن القول^(١).

٦ - وهناك رسائل رضى عنها ابن شهيد، وحدّثنا في "التوايع والزوايع" أنه قرأها
على شعراء الجن فاستجادوها، وهى رسالته في صفة البرد والنار والحطب، ورسالته في الحلواء،
وكلماته في وصف جارية، ونعت الماء والتغلب والبرغوث والبعوض. وهذه الرسائل
في جملتها تدل على غنى في اللغة وبراعة في الصنعة، ولكنها خالية من الروح. ويظهر أن الجن
الذين استجادوها لم يكونوا من أصحاب الأذواق في نقد الكلام، مع أنهم كانوا من أقطار
مختلفة، وصاحبوا الأفاضل من شعراء الحجاز والشام والعراق!

وأجود ما وقع له في تلك الرسائل "المستجادة" قوله في وصف ماء صاف :
"كأنه عصير صباح، أو ذوب قمر ليّاح"

وقوله في وصف البعوض :

"تنقض العزائم وهى منقوضة، وتعجز القوى وهى بعوضة، ليرينا الله عجائب قدرته،
وضعفتنا عن أضعف خليفته"^(٢).

ورسالته في وصف الحلواء قالها تحقيرا لفقيهه نهم لقيه في المسجد الجامع، فلما طالعوا
الحلواء « اضطرب به الألم، وأستخفه الشره، فدار في ثيابه، وأسأل من لعبه، وأزور جانبه،

(١) ما سماء ابن شهيد تعريضا حوايضا أيضا إخفاش لم نر روايته لأننا لا نستطيع رواية الهجاء القبيح الذى يخرج

الأدب والدوق. وثنية هذا الحديث في ص ١٥٤ من الأخيرة ح ١ (٢) اليتيمة ص ٣٩٢ ج ١

وخفق شاربته « ثم أخذ يدور حول صنوف الحلوى ويصفها واحدا واحدا ، فالفالونج «مراجعة الزناير خالطها لباب الحبة، بغاءت أطيب من ريق الأجابة» والخليص «جليد سماء الرحمة، تمخضت به فأبرزت منه زبد النعمة، تجرحه اللحظة، وتدميه اللقطة»، ثم يقول ابن شهيد بعد كلام : «فأمست الغلام بابتياح أرتال تجمع أنواعها التي أنطقته ، وتحتوى على ضروبها التي صرعته ، بغاء بها فوضعها بين يديه ، فلما عاينها انحنى عليها بلبانه ، وألقى عليها بجرانه ، وجعل يركل برجليه ، ويحاحش بفخذيته ، مانعا عنها ومدافعا ، فصحت به لا عليك حكما ، بفعل يقطع ويبلغ ، ويوجرفاه ويدفع ، وعيناه تبصان ، كأنهما جمرتان ، وقد برزتا عن وجهه كأنهما خصبتان . وأنا أقول على رسلك يا فلان ! البطنة تذهب الفطنة ! وهو يقول : أكلها دائم وظلها ، حتى التقم جماهرها ، وألحق أولها بآخرها ، فهبت منه ريح عقيم ، قرن إقبالها بالعذاب الأليم ، نثرنا شذر مذر ، وفرقتنا في كل شعب شجر بغر ، فالتحنا منه الظربان ، وصدق فيه الخبر العيان ^(١) » .

وعندى أن ابن شهيد في رسالة الحلواء عارض بديع الزمان في المقامة البغدادية ، والنكتة في الرسالتين متشابهة ، فهي عند ابن شهيد سخرية من فقيه أكل ، وعند بديع الزمان استهزاء بفلاح منهم ، ولكن بديع الزمان كان أكثر إصابة لغرضه من ابن شهيد ، ولننظر كيف يقول وقد استدرج سواديا بالكرخ ^(٢) :

«فقلت : فهلم الى البيت نصب غداء ، أو الى السوق تشتري شواء ، والسوق أقرب ، وطعامه أطيب ، فاستفزته حمة القرم ، وعطافته عطفة النهم ، وطمع ، ولم يعلم أنه وقع ، ثم أتيت شواء يتقاطر شواؤه عرقا ، ويتسائل جودابه مرقا ^(٣) ، فقلت : أبرز لأبي زيد من هذا الشواء ، ثم زن له من تلك الحلواء ، وآختر من تلك الأطباق ، ونضد عليها أوراق الرقاق ،

(١) وردت رسالة الحلواء في النسخة ص ١٣٦ و ١٣٧ ح ١ وفي البتة ص ٣٩٢ و ٣٩٣ ج ١ ، وفي النسختين اختلاف شديد ، وفيها كذلك كثير من التحريف ، والعبارات التي احتسبها مؤودة مما صح لدينا نظمها على اختلاف النسخين . (٢) الكرخ محلة كانت في الجانب العربي من بغداد . (٣) الجوداب : خبز يوضع

في النور معه طائر أو لحم .

وشيئا من ماء السماء : ليا كله أبو زيد هنيئا ؛ فأنحى الشواء بساطوره ، على زبدة تنوره ،
 بفعلها كالكمحل سخقا ، وكالطين دقا ، ثم جاس وجلس ، ولا نبس ولا نبست ، حتى أستوفيناها
 وقلت لصاحب الحلواء : زن لأبي زيد من اللوزينج رطلين ، فانه أجرى في الحلو ، وأسرى
 في العروق ، وليكن لى - العمر ، يومى - النشر ، رقيق القشر ، كثيف الحشو ، لؤلؤى - الدهن ،
 كوكبى - اللون ، يذوب كالصنع ، قبل المضغ ، ليا كله أبو زيد هنيئا . ثم قعد وقعدت ،
 وجرى وجردت ، وأستوفيناها . ثم قلت : يا أبا زيد ! ما أحوجنا إلى ماء يشعشع بالثلج ،
 ليقمع هذه الصارة ، ويفثا هذه اللقم الحارة ! ^(٢) إجلس ، أبا زيد ، حتى آتيتك بسقاء ، يحيينا
 بشربة من ماء . ثم خرجت ، وجلست بحيث أراه ولا يرانى ، أنظر ما يصنع به ، فلما أبطأت
 عليه قام السوادى الى حمارة ، فاعتلق الشواء بإزاره ، وقال : أين ثمن ما أكلت ؟ فقال :
 ما أكلته إلا ضيفا . فقال الشواء : هاك وآك ، متى دعوناك ؟ زن يا أبا القحبة عشرين ،
 وإلا أكلت ثلاثا وتسعين ! فجعل السوادى يبكى ويسح دموعه بأردائه ، ويحل عقده
 بأسنانه ، ويقول : كم قلت لذلك القريد ، أنا أبو عبيد ، وهو يقول : أنت أبو زيد ! “ .

وإنما أفترضنا ان ابن شهيد عارض بديع الزمان وحاكاه ، لأنه كان مشغوبا بأدبه
 ومعنيا بمعارضته ، فقد حدثنا فى ” التوايح والزوايح “ أنه قابل بأرض الخن (زبدة الحقب)
 صاحب بديع الزمان ، وجرى بينهما مصالوة انتصر فيها ابن شهيد . وهذا يدل على أن
 رسائل بديع الزمان كانت وصلت كاملة الى الأندلس ، وفعلت فعلها فى أنفس الأدباء هناك ،
 وأن ابن شهيد كان بها من المعجبين .

٧ - أما وصف الجارية الذى رضى عنه ابن شهيد ، وقدمه كذلك الى شعراء الخن
 فاستجادوه ، فهو رسالة فيها فقرات تم عن قلب غزل ونفس طروب ، وفيها كذلك كلمات
 تليح بمغامر الفتك والمجون ، وكانت جاريته ” أخت نعمة ، وربة نعمة ، كأن شعرها على

(١) الساق : حب أحمر صغير شديد الحموضة يشبه الرمان .

(٢) الصارة : العطش .

(٣) يثنا : يسكن .

غرتها الغراء، غراب يسفد حمامة بيضاء... تكلمك بالخطأ، ونأسوك بالفاظها، تقابلك من خدّها بوردة، ومن عينها بمرجسة، كأنما نغرها من جواهر، وشقتها خيط حرير أحمر، تقبل عليك بقضيب بان، ثمرته رمانتان، وتنقل عليك بكفل مائج، كأنه كتيب عاج... المنظر منظر غلام، والمخبر مخبر فتاة، إن علوتها تدفعت إليك، أو عاتك تداركت عليك، وإن أعطشتك فراشها سقتك من شراب، إن شئت قلت نعمة أو رضاء، أو أجاعك عرا^(١)كها أطعمتك من لسان، يصل إليك وصول الإيمان^(١)“.

٨ — ورسالته عن النار والخطب تمثل فرع أهل الأندلس من البرد، ولكنها، كأكثر ما كتب، مثقلة بالصنعة، خالية من الروح. وهى رسالة مهداة الى صديق نفحه بأجمال من الخطب الجزل — والخطب مما يهدى فى تلك البلاد لما يعانى أهلها من قسوة الشتاء — ولننظر كيف يصور اصطدام النار بالوقود :

”حبستنا اليوم خيل البرد مغيرة... فجعلت مجئى خطبا دل على نفسه، وتشظى من يسه، فسلطت عليه صاحب الشرر، ورميته منها بنات الحديد والحجر، فواقعه قليلا، وعاركة طويلا، فكان لها عجيج، وله من حرها ضجيج، ثم خر لها صريعا، وأستولت عليه صعبا منيعا، فبددت شمله وألفت شملها، وأستحالت حية لا نستلذ قتلها، ترمى باللوان، وتهتد بلسان، فلذعت البرد لذعة، ونكرته على فؤاده نكرة، خر لها على جبينه، ومات بها من حينه^(٢)“.

٩ — وبعد فإن نثر ابن شهيد — على ما فيه من مأخذ وعيوب — دليل على أن الرجل كان يتناول اللغة بعزائم الفحول، وليس يعيبه أن نراه نحن أقل من شهرته، فانا نحكم على أدبه بأذواق تختلف عن أذواق معاصيره أتمد الاختلاف. والشعر الفنى كالشعر، له دقائق قلما يتفق فى تذوقها الناقدون. وكان للرجل فى حياته نجاح صروف، فقد وصل نثره وشعره الى الشرق على عسر الوصول، وتداوله المؤلفون، وكان لا يزال من الأحياء؛ وفى هذا برهان على أن الرجل أمد عصره بروحه وأستولى بقوة على عرش البيان.

(٢) اليتيمة ص ٣٩٠ ج ١

(١) اليتيمة ص ٣٩٤ ج ١

ولا ننس أن نثر ابن شهيد لم يصل إلينا منه إلا شيء قليل ، ولم يدون منه إلا الجانب البراق ، الذي طرب له كتاب الصنعة في المشرق والمغرب ؛ وللفن البراق أعمار قد تقصر وقد تطول . ولو وصلت إلينا جملة صالحه من نثره الذي جرى فيه على سليقته وفطرته ، وأنحاز فيه إلى فيض عقله وروحه ، لرجونا أن يكون لنا فيه رأى غير هذا الرأى ، وخاصة إذا لاحظنا أن رسائله في صناعة النقد والبيان تدل على أنه كان من أصفى الناس ديباجة ، وأسدهم رأيا ، وأصدقهم فراسة ، إذا مضى يشرح مزلق الأفكار ومزلات العقول .

ولا ننس أيضا أن ابن شهيد كان يتمتع من قلب فكره ، ولم تكن له مراجع للثقافة الأدبية ، إلا ما لا قدر له من الكتب كما حدث ابن حيان ، وذلك كان في عصر مضطرب أشنع اضطراب ، يقاسى شعراؤه وكتابه ومتأدبوه أحوالا من الفتن قل أن يصفو معها فكر أو ينضج بيان .

فإن حمد إذن ما أسداه ابن شهيد ، فإن جهد المقل غير قليل ، ولندكر أننا ننقد وننقص ، في سلامة وعافية لم يحلم بهما أولئك الأسلاف الذين نازلوا الأقدار ، ورفعوا أعلامهم بين أمم الصليب فوق هامات الأسود .

فعلى ذكراهم تحية وسلام !

١٤ - أبو الفضل الميكالى

١ - أسرة الميكالى أسرة قديمة العهد بالمجد فى المدينة الإسلامية، وكان لهذه الأسرة كرامة وسُلطان فى القرن الثالث والرابع والخامس . فقد مدحهم البحرى وخدمهم ابن دريد، ونفىّا ظلالهم أبو بكر الخوارزمى ؛ وبديع الزمان الهمذانى، وغيرهم من أعيان الكتاب والشعراء .

وأشهر أعلام هذه الأسرة فى الأدب الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالى المتوفى سنة ٤٣٦ . وكانت له آثار كثيرة لم يبق منها إلا شذرات متفرقة فى يتيمة الدهر وزهر الاداب وثمار القلوب . وهو ياترم السجع والأزدواج فى رشاقة وصدوبة وآساق . وفيه يقول الثعالبي فى مقدمة فقه اللغة :

”ومن أراد أن يسمع سر النظم، وسحر النثر، ورقية الدهر، ويرى صوب العقل، وذوب الظرف، ونتيجة الفضل، فليستنشُد ما أسفر عنه طبع مجده، وأثمره على فكره، من مُلح تمترج بأجزاء النفوس لنفاستها، وتشرب القلوب لسلاستها، ... وأيم الله ما من يوم أسعفنى فيه الزمان بمواجهة وجهه، وأسعدنى بالآقتباس من نوره، والاعتراف من بحره، فشاهدت ثمار المجد والسؤدد تنثر من شمائله، ورأيت فضائل أفراد الدهر عيالا على فضائله، وقرأت نسخة الكرم والفضل من ألاحظه، وآتتهبت فرائد القوائد من ألاحظه، إلا تذكرت ما أنشدنيه أدام الله تأييده لابن الرومى :

لولا عجائب صنع الله ما نبتت تلك الفضائل فى لحم ولا عصب

وما أنس لا أنس أيامى عنده بفيروز أباد، سقاها الله ما يحكى أخلاق صاحبها من سبيل القطر ! فانها كانت بطلعتة البدرية، وعشرته العطرية، وألفاظه اللؤلؤية، ومحاسن أقواله وأفعاله التى يعياها الواصفون، أنموذجات من اللجنة التى وعد المتقون، فاذا تذكرتها فى تلك المراجع التى هى مراتع النواظر، والمصانع التى هى مطالع العيش الناضر، والبساتين التى إذا

أخذت بدائع زخارفها، ونشرت طرائف مطارفها، طوى لها الديباج الخسروانى، ونفى معها
الوشى الصنعانى، فلم تشبه إلا بشيمه، وآثار قلمه، وأزهار كلمه، تذكرت سحرا وسما، وخيرا
عميا، وأرتياحا مقيا، ورؤحا وريحانا ونعيا“ .

٢ — وأظهر الفنون التى كان يجيدها الميكالى هو فن الإخوانيات، ورسائله إلى
أصدقائه مشربة بأنفاس الحنين، حتى لتحسبها رسائل عاشق لا رسائل صديق ...

وإليك قوله من رسالة :

”أيام ظل العيش رطب ، وكف الهوى رحب ، وشرب الصبا عذب ، وما لشرق
الأس غرب“^(١) .

وقوله من رسالة ثانية :

”إنما أشكو اليك زمانا سلب ضعف ما وهب ، وبغع بأكثر مما متع ، وأوحش فوق
ما أنس ، وعنف فى نزع ما ألبس ، فإنه لم يذقنا حلاوة الاجتماع ، حتى جرعنا مرارة الفراق ،
ولم يمتعنا بأنس التلاق ، حتى غادرنا رهن التلهف والأشتياق“^(٢) .

وليتأمل القارئ رقة الحنين فى قوله من كلمة ثالثة :

”أنا أسأل الله تعالى أن يرد على برد العيش الذى فقدته ، وفسحة السرور الذى عهدته ،
فيقصر من الفراق أمده ، ويعلو للقاء حكمه ويده ، ويرجع ذلك العيش الذى رقت غائله ،
وصفت من الأفداء مناهله ، فلم أحدا بعده بأنس مقيم ، ولا تعلقت يوما إلا بعيش بهيم .

فان ترجع الأيام بعد الذى مضى بذى الأثل صيفامثل صيفى ومربعى

شدت بأعناق النوى بعد هذه مرائر إن جاذبتها لم تقطع

وما على الله عزيز أن يقرب بعيدا ، ويهب طالعا سعيدا ، ويسهل عسيرا ، ويفك من رق
الأشتياق أسيرا“^(٣) .

ومع أن صلته بأبي منصور الثعالبي كانت صلة الأمير المفضل بالإصاحب الأمين فانا نجد
يكتب إليه بأجمل ما يوحى الرفق والحنان فيقول :

”كأني، وأنا أشكو إليك شوقا لو عاجله الأعرجي لما صبا إلى رمل عاج، أو كابد
الخلي لاثنى على كبد ذات حرق ولواعج، وأذم زمانا يفرق فلا يحسن جمعا، ويخرق فلا ينوي
رقعا، ويوجع القلب بتفريق شمل ذوى الوداد، ثم يخل عليهم بما يشفى الصدور والأجساد،
قاسى القلب فلا يلين لاستعطاف، جائر الحكم فلا يميل إلى إنصاف، وكم أستعدى على صروفه
وأستنجد، وأتأظى غيظا عليه وأنشد :

متى وعسى يثنى الزمان عنائه بعثرة حال والزمان عثوره
فتدرك آمال وتقتضى مآرب وتحدث من بعد الأمور أمور

وكلا! فما على الدهر عتب، ولا له على أهله ذنب، وإنما هي أقدار تجري كما شاء مجريها،
وتنفذ كالسهم إلى مراميها، فهي تدور بالمكروه والمحبوب، على الحكم المقدور المكتوب،
لا على شهوات النفوس، وإرادات القلوب، وإذا أراد الله تعالى أذن في تقريب البعيد النازح،
وتسهيل الصعب الجاح، فيعود الانس للقاء الإخوان كأنهم ما لم يزل معهودا، ويحدد للذاكرة
والمؤانسة رسوما وعهودا، إنه الملتبى به والقادر عليه“ .

٣ — وقد كان الميكالى يعيش أطيب العيش بين نعمة إلهه والمال، ولكنه كان
يشكو زمانه على غير ما كان يشكو البائسون من الكآب والشعراء، فراه يقول :

”يا بى الدهر إلا ولوعا بشمل وصل يشرده، ونظام أنس يبده، وغلب ظلم يحدده .
ولو أنبسطت فيه يدى لكسرت جناحه، وخفضت جماعه، ولكنه الحية الصماء لا تستجيب
لراقى، والداء العضال لا يشفى منه طيب ولا واقى“ .

ولننظر قوله يتوجع لرفيق عليل :

”لو أستطعت لخاعت عليه سلامتى سر بالا، وأعرته من جسمى صحة وإقبالا، فليست أيتها
بالعافية مع سقمه، ولا أتمتع بنضارة عيشى مع شحوب جسمه“ .

(١) زهر الآداب ج ٢ ص ١٨٩ (٢) ص ٢٥٥ ج ٤ قيمة . (٣) ص ٢٥٦ ج ٤ قيمة .

ولسنا نعرف إلى من كتب العبارات الآتية :

”أنا فى مقاساة حرّ الشوق إليك كما اعتاد محموم بخير صائب^(١)، وتذكر الاجتماع معك كما احتز من صرف المدامة شارب ، وفى تكلف الصبر عنك كطالب جدوى خلة لا تواصل وفى القلق لفراقك كطائر جوّ أعلقتّه الحبال . كتبت هذه الأحرف وأنا أودّ أن مدادها سواد طرفى ، وبياضها جلدة بين عيني وأتقى ، وحاملها دون سائر الناس كفى . لولا التعلل باللقاء لتصدّعت أكباد وقلوب ، وكانت بينى وبين البوى شئون وخطوب . أنا فى مفارقتك كبنات الماء نضب عنها الغدير ، ونبت الأرض أخطاه النوء المطير . لا تفارق نفسى فىك أشواقها ، حتى تفارق الجمائم أطواقها “ .

٤ — وأهتمام الميكالى بهذا النوع من الكتابة غرس فيه الحرص على وصف ما يرد عليه من رسائل إخوانه ، فكان قلمه من أفصح الأقلام فى وصف الكتب يتهادها الأصدقاء ، ومن أمثلة ذلك قوله :

”وصل كتاب مولاي وسيدى أبدع الكتب حوادى وأعجازا ، وأبرعها بلاغة وإعجازا ، فحسبت ألفاظه در السحاب ، أو أصفى قطرا وديمة ، ومعانيه در السحاب ، بل أوفى قدرا وقيمة ، وتاملت الأبيات فوجدتها فائقة النظم والرصف ، عبقة النسيم والعرف ، فائزة بقداح الحسن والظرف ، مالكة لزمان القلب والطرف ؛ ولا غرو أن يصدر مثلها عن ذلك الخاطر وهو حذف الفقر والنوادر ، وصدف الدرر والجواهر . والله يتمتع بما منحه من هذه الغرر والأوضح ، كما أطلق فيها ألسنة الشاء والامتداح “ .

٥ — ويجانب هذه البراعة كان الميكالى كريم الأخلاق ، وما أطف ما يقول الثعالبي فيه : ”وكثيرا ما أحكى للإخوان أنى استغرقت أربعة أشهر بحضرته ، وتوفرت على خدمته ، ولازمت فى أكثر أوقاتي على مجلسه ، وتعطرت بغبار موكبه ، فبالله يمينا كنت غنيا عنها لو خفت إثمها أنى ما أنكرت طرفا من أخلاقه ، ولم أشاهد إلا مجدا وشرفا من أحواله ، وما رأيته آغتاب غائبا ، أو سب حاضرا ، أو حرم سائلا ، أو خيب آملا ، أو أطاع سلطان

(١) صلبت الحى دامت واشتدت .

الغضب في الحضر، أو تصلى بنار الضجر في السفر، أو بطش بطش المتجبر، ولا وجدت المآثر إلا ما يتعاطاه، والمآثم إلا ما يتخطاه” .

٦ - ونعود فنذكر أن صلة الميكالى بأصدقائه وأآله آتتهب أجزاء نفسه بحيث يمكن رجع أدبه الى المعانى النفسية التى توحى بها الصداقة والألفة والحب ، فأذبه مقسم بين كتاب شوق، وأرسالة عتب، أو كلمة توجع، أو خطاب اقتضاء، أو مالكة تهنته، أو نعيقة ثناء .
والظاهر من كلام عمر المطوعى فى كتابه عن الشعراء أن الميكالى كان بايع الأثر فى أنفس معاصريه، وأن فريقا منهم كان يؤلف الكتب بارشاده وفى ضوء فكره . وهذا شبيه بالحق : لأن الميكالى فيما يظهر من شعره ونثره كان قوة عظيمة من القوى الأدبية ، ولكن ينبغى الاحتياط فى فهم هذه الفكرة : فقد كان الميكالى غنيا ، وكان بيته مليجا الشعراء والكتاب والمؤلفين، فلا مفر من أن يحسب لمجاملته حساب ، وأن يقدر الناقد أنه قد ينسب إليه ما ليس له لمكانه من العلم والغنى والجاه .

٧ - صنعة الميكالى فى شعره أظهر منها فى نثره ، فهو حين ينثر سهل الخليفة، فإذا نظم تكلف، وهو يؤثر الجناس على سائر أنواع البديع، وإلى القارئ قوله :

شافه كفى رشأ بقبلة ما شفيت
فقلت إذ قبلها ياليت كفى شفتى

وقوله :

من لى بشمل الأئس أجمعه بشادن حلّ فيه الأئس أجمعه
ما زال يعرض عن وصلى فأخذه فالآن لى لأن بند الصمد أخذه^(١)

وهذا كما نرى تكلف ثقيل ممجوج .

وقد يترك الصنعة ويمضى على سجيته فيجيد، من ذلك قوله :

عمر الفتى ذِكره لا طول مدته وموته خزيه لا يومه الدانى

(١) الأخدع : شعبة من الوريد ، والجمع أخداع .

وقوله :

كم والد يحرم أولادهُ وخيره يحظى به الأبعدُ
كالعين لا تبصر ما حولها ولحظها يدرك ما يبعد

وبجملة القول أن الجيد من ثمره أكثر من جيد شعره ، وهو فى كلا الفنين صنّاع اليد
ذكى الجان .

٨ — وسلطانه على معاصريه له قيمته على أى حال ، فليس الغنى ولا العلم مما يكفى
لأن يكون للرجل حاشية وأنصار أوفياء . وإنما يرجع ذلك الى رقة القلب وقوة العقل وخفة
الروح ، وهى المقومات الأساسية لحياة المفكر والأديب . وكذلك أستطاع الميكالى أن يستبعد
طائفة من أحرار القلوب والعقول بما كان له من صفاء الذهن ، وقوة القريحة ، وطهارة
الوجدان .

١٥ - بديع الزمان

١ - ولد أبو الفضل أحمد بن الحسين في همدان نحو سنة ٣٥٨، درس اللغة والأدب وتعمق فيهما تعمقا ظهر أثره في ثمره وشعره . وكان في صباه جميلا فتانا خفيف الروح، وكان لجماله وحلاوة لسانه أثر كبير في النصر الذي أحرزه في حياته الأدبية ، فقد أنتقل الى نيسابور سنة ٣٨٢، وكانت يومئذ موطننا لأبي بكر الخوارزمي أعلم أهل عصره باللغة والأدب، وأقربهم مكانة من الملوك والأمراء . فبدأ لبديع الزمان أن ينظره علنا عند بعض الأمراء، فقبل الخوارزمي بعد تردد، ثم دارت المناقشة يوما أو بعض يوم في موضوعات أدبية مختلفة فأستطاع بديع الزمان بسرعة بديهته ونضارة صباه أن يجذب اليه أنظار الحاضرين ، فغلب الخوارزمي وظهرت عليه دلائل الضعف، وسرى في الأفطار الاسلامية يومئذ أن بديع الزمان أجمل منه شعرا ، وأحلى نثرا، وأقوى حجة، ثم مرض الخوارزمي حزنا ومات قبل أن ينقضى الحول سنة ٣٨٣

وبموت الخوارزمي خلا الجوّ لبديع الزمان عند الملوك والأمراء والوزراء، وصار ينتقل في الحواضر الاسلامية بالشرق الى أن أستقر في هراة، وصاهر أحد علمائها الأعلام، وحسنت حاله، وأقبلت عليه الدنيا، ولكن المنية عاجلته وهو في سن الأربعين سنة ٣٩٨ وقد أستيقظ في قبره بعد الدفن فظل يصرخ ويطلب الغوث ، ولكن الناس لم يذهبوا اليه الا بعد مدة ففتحوا قبره فوجدوه مضطجعا وقد أمسك لحيته بيده ومزق كفته، ولكنه مات من الرعب والفزع حين يئس من النجاة .

٢ - اهتم كتاب التراجم بحياة بديع الزمان ، وأجمل ما قرأناه في ترجمته قول الثعالبي في يتيمة الدهر: "بديع الزمان، ومعجزة همدان، ونادرة الفلك، وبكر عطار، وفرد الدهر،

وغرة العصر، ومن لم يلق نظيره في ذكاء القريحة، وسرعة الخاطر، وشرف الطبع، وصفاء
الذهن، وقوة النفس، ومن لم يدرك قرينه في ظرف النثر وملحه، وغرر النظم ونكته، ومن
لم ير ولم يرو أن أحدا بلغ ما بلغه من لب الأدب وسره، وجاء بمثل إعجازه وسحره، فانه كان
صاحب عجائب، وبدائع وغرائب : فمنها أنه كان ينشد القصيدة التي لم يسمعها قط وحي
أكثر من خمسين بيتا فيحفظها كلها ويؤديها من أولها الى آخرها لا يخرم حرفا ولا يخل معنى،
وينظر في الأربعة والخمسة أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ثم يهذبها
عن ظهر قلبه هدا، ويسردها سردا ... وكان يقترح عليه عمل قصيدة أو إنشاء رسالة في معنى
بديع وباب غريب فيفرغ منها في الوقت والساعة، والجواب عنها فيها، وكان ربما يكتب
لكتاب لمقترح عليه فيبتدئ بآخر سطر منه ثم حلم جرا الى الأول ويخرجه كأحسن شيء
وأملحه، ويوشح القصيدة الفريدة من قوله بالرسالة الشريفة من إنشائه فيقرأ من النظم والنثر،
ويروى من النثر والنظم، ويعطى القوافي الكثيرة فيصل بها الأبيات الرشيدة، ويقترح عليه
كل عوبص وعسير من النظم والنثر فيرتجله في أسرع من الطرف، على ريق لا يبلعه، ونفس
لا يقطعها، وكلامه كله عفو الساعة، وفيض البديهة. ومسارقة القلم، ومسابقة اليد، وجمرات
الحدة، وثمرات المدة، ومجارات الخاطر للناظر، ومباراة الطبع للسمع . وكان يترجم ما يقترح
عليه من الأبيات الفارسية المشتملة على المعاني الغريبة بالأبيات العربية فيجمع فيها بين
الإبداع والإسراع، الى عجائب كثيرة لا تحصى، ولطائف تطول أن تستقصى . وكان مع هذا
كله مقبول الصورة، خفيف الروح، حسن العشرة، ناصع الظرف، عظيم الخلق، شريف
النفس، كريم العهد، خالص الود، حلو الصداقة، مر العداوة . وفارق رمضان سنة ٣٨٠
وهو مقتبل الشبيبة، غض الحداثة، وقد درس على أبي الحسين بن فارس وأخذ عنه جميع
ما عنده، وأستفد علمه، وأستترف بحره . وورد حضرة صاحب فتروود من ثارها، وحسن
آثارها . ثم قدم جرجان وأقام بها مدة على مداخلة الاسماعيلية والتعيش في أكثفهم، والاقبتباس

من أنوارهم، وأختص بأبي سعد محمد بن منصور ونفقت بضائع لهديه، وتوفر حفظه من عادته المعروفة في إهداء المعروف والإفضال على الأفاضل. ولما آسقرت عزيمته على قصد نيسابور أعانه على جركته، وأزاح عله في سفرته، فوافاها في سنة ٣٨٢ ونشر بها بزه، وأظهر طرزه، وأملى أربعمائة مقامة نحلها أبا الفتح الاسكندري في الكدية وغيرها، وضمنها ما تشتهى الأنفس، وتلذ الأعين، من لفظ أنيق قريب المأخذ، بعيد المرام، وسجع رشيق المطلع والمقطع كسجع الحمام، وجد يروق فيملك القلوب، وهزل يشوق فيسحر العقول. ثم شجر بينه وبين أبي بكر الخوارزمي ما كان سببا لهبوب ريح الهمداني وعلو أمره، وقرب نجحه، وبعد صيته، إذ لم يكن في الحسبان والحساب أن أحدا من الأدباء والكُتّاب والشعراء ينبري لمباراته، ويحتري على مجاراته، فلما تصدى الهمداني لمساجلته وتعرض للتحكك به وجرت بينهما مكاتبات ومباهلات ومناظرات ومناضلات وأفضى السنان الى العنان، وقرع النبع بالنبع، وغلب هذا قوم وذاك آخرون، وجرى من الترجيح بينهما ما يجري بين الخصمين المتحاكين، والقرنين المتصاولين، طار ذكر الهمداني في الآفاق، وارتفع مقداره عند الملوك والرؤساء، وظهرت أمارات الإقبال على أموره، وأدركه أخلاف الرزق وأركبه أكاف العز. وأجاب الخوارزمي داعي ربه فخلا الجوال للهمداني وتصرفت به أحوال جميلة، وأسفار كثيرة، ولم يبق في بلاد خراسان وسجستان وغزنة بلدة إلا دخلها، وجنى ثمرتها، وأستفاد خيرها وميرها، ولا ملك ولا أمير ولا وزير ولا رئيس إلا استمطر منه بنوء، وسرى معه في ضوء، ففاز برغائب النعم، وحصل على غرائب القسم، وألقى عصاه بهراة وأخذها دار قراره، وجمع أسبابه... وخار الله له في مصاهرة أبي على الحسين بن محمد الخشنامي... فانتظمت أحوال أبي الفضل بصهره، وتعرفت القرعة في عينه، والقوة في ظهره، وأقتنى بمعونته ومشورته ضياعا فاخرة، وعاش عيشة راضية. وحين بلغ أشده وأرنب على أربعين سنة ناداه الله فلباه، وفارق دنياه في سنة ٣٩٨ فقامت عليه نوادب الأدب، وأتلم حد القلم... الخ^(١).

(١) راجع ما حققناه من عدد المقامات في الجزء الأول ص ٢٠٦ (٢) البيهقي ج ٤ ص ١٦٧ - ٣٦٩

٣ — وقد نقلنا كلام الثعالبي على طوله لأنه يعطى صورة من طرائق كتاب القرن الرابع في كتابة التراجم ، ولأن الثعالبي كان من معاصري البديع ، ولأنه أعطانا فوائد تاريخية على قلة ما يفعل ذلك ، فقد عرفنا أن البديع أنشأ المقامات في نيسابور بعد أن حل بها سنة ٣٨٢ وعرفنا أنه ناظر الخوارزمي في ذلك الحين ، وهذا يعين أن الخوارزمي مات سنة ٣٨٣ لا سنة ٣٩٣ كما توهم بعض من نقل عنهم ابن حلكان^(١) .

وتاريخ إنشاء المقامات الذي نص عليه الثعالبي ظاهر الصحة ، لأن البديع يذكر تواريخ سبقت ذلك ، كقوله في المقالة القزوينية "غزوات الثغر بقزوين ، سنة خمس وسبعين" .

٤ — أما المناظرة التي أشار إليها الثعالبي والتي أستفاض ذكرها في كتب الأدب فقد حررها بديع الزمان بقلمه ، وهي وثيقة أدبية تمثل زهو وأخلاقه ، وتبين تهافت الناس إذ ذاك على شهود المناظرات ، وكانت من الفنون الظاهرة في القرن الرابع ، ومن أشهر من آهت بتدوين مناظرات ذلك العهد أبو حيان التوحيدى ، غير أن التوحيدى كان يهتم بتدوين المناظرات الفلسفية والفقهية .

ابتدأ بديع الزمان تحدثنا أن تقييد تلك المناظرة كان مما أقترح عليه ، وأنه سيسوق صدر حديثه مع الخوارزمي إلى العجز ، كما يساق الماء إلى الأرض الجُرْز . ثم قال بعد كلام في الشناء على من وجد إليه الحديث :

"بعود للقصبة نسوقها ، وأولها أنا وطئنا خراسان فما اخترنا إلا نيسابور دارا ، وإلا جوار السادة جوارا ، لا جرم أنا حططنا بها الرجل ، ومددنا عليها الطنب ، وقديما كنا نسمع بحديث هذا الفاضل فتشوقه ، ونخبره على المغيب فتتشوقه ، ونقدر أنا لو وطئنا أرضه ، ووردنا بلده ، يخرج لنا في العشرة ، عن القشرة ، وفي المودة ، عن الجلدة ، فقد كانت لحمة الأدب جمعتنا ، وكلمة الغربية نظممتنا ، وقد قال شاعر العرب غير مدافع :

أجارتنا إنا غريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيب

فأخلف ذلك الظن كل الإخلاف، وأختلف ذلك التقدير كل الاختلاف، وقد كان أتفق علينا في الطريق من العرب اتفاق، لم يوجهه استحقاق، من بزة بزوها، وفضة فصوها، وذهب ذهبوا به، ووردنا نيسابور براحة أنقى من الراحة، وكيس أخلى من جوف حمار، وزى أوحش من طلعة المعلم^(١) بل أطلاعة الرقيب، فما حللنا إلا قصبة جواره، ولا وطننا إلا عتبة داره. وهذا بعد رقعة كتبناها، وأحوال أنس نظمناها. فلما أخذنا لحظ عينه سقانا الدردى من أول دنه، وأجنانا سوء العشرة من باكورة فنه، من طرف نظر بشطره، وقيام دفع في صدره، وصديق آستهان بقدره، وضيف آستخف بأمره. لكننا أقطعناه جانب أخلاقه، وقاربناه إذ جانب، وواصلناه إذ جاذب، وشربناه على كدورته، ولبسناه على خشونته، ورددنا الأمر في ذلك إلى زى آستغته، ولباس آسترته، وكاتبناه نستمد وداده، ونسلس قياده، ونستميل فؤاده، ونقيم مناده.

٥ — وخلاصة ما سلف أن بديع الزمان بعد أن أعانته محمد بن منصور وأزاح علاله في سفرته إلى نيسابور خرج عليه اللصوص في الطريق — وهو يسميهم «العرب» — فسلبوا ما كان معه من فضة وذهب ودخل نيسابور على أسوأ حال، وفكر عند وصوله في الاتصال بأبي بكر الخوارزمي، ولكن الخوارزمي لم يكرم زيارته، وظن بديع الزمان أن تلك الجفوة لم تكن إلا لأنه ورد في زى غث، ولباس رث.

أما المراسلات التي سبقت المناظرة فهي خطاب من البديع وجواب من الخوارزمي.

ولننظر كيف بدأ البديع يغرس بذور الشجاء:

«الأستاذ أبو بكر — والله يطيل بقاءه! — أزرى بضيفه أن وجده يضرب إليه آباط القلة، في أطمار الغربية، فأعمل في رتبته أنواع المصارفة، وفي الأهترأله أنواع المضايقة، من إيماء بنصف الطرف، وإشارة بشطر الكف، ودفع في صدر القيام، عن التمام،

(١) يريد أن طلعة المعلم توحش الطفل لأنها تنقله من اللعب إلى الدرس، ومعاذ الله أن تكون «طلعة المعلم وحشة»

ومضغ الكلام، وتكلف لرد السلام . وقد قبلت تريته صمرا، وأحتملته وزرا، وأحتضته
كرا. وتأبطته شرا، ولم آله عذرا، فان المرء بالمال، وثياب الجمال، ولست مع هذه الحال،
وفي هذه الأسمال، أتقرز صف النعال، فلو صدقته العتاب، وناقشته الحساب، لقلت
إن بواديا ثاغية صباح، وراغية رواح، وناسا يحرون المطارف، ولا يمتعون المعارف .
وفيهـم مقاماتٌ حسان وجوههم وأنديـةٌ يـنـتابها القول والفـعل

ولو طوّحتُ بأبي بكر أيدـه الله طوائـح الغربـة ، لوجد مغنى البشر قريبا ، ومعط الرحـل
رحيا ، ووجه المضيف خصيبا . ووجه الأستاذ أبي بكر أيدـه الله فى الوقوف على هذا العتاب
الذى معناه ود، والمر الذى يتلوه شهد، موفقٌ ان شاء الله تعالى ” .

فأجاب الخوارزمي :

” وصلت رقعة سيدى ومولاي ورئيسى أطال الله بقاءه الى آخر السبـكـاج ، وعرفت
ما تضمنه من خشن خطابه ، ومؤلم عتابه ، وصرفت ذلك منه الى الضجر الذى لا يخلو منه
من مسه عسر، ونبا به دهر، والحمد لله الذى جعلنى موضع أنسه، ومظنة مشتكى ما فى نفسه !
أما ماشكاه سيدى ورئيسى من مضايقتى إياه فى القيام فقد وفيته حقه أيدـه الله سلاما وقياما ،
على قدر ما قدرت عليه، ووصلت إليه، ولم أرفع عليه الا السيد أبا البركات العلوى أدام الله
عزه، وما كنت لأرفع أحدا على من جدّه الرسول، وأمه البتول، وشاهداه التوراة والانجيل،
وناصراه التأويل والتزويل، والبشيره جبرائيل وميكائيل . فأما القوم الذين صدر سيدى
عنهم فكما وصف حسن عشرة ، وسداد طريقة، وكال تفصيل وجملة، ولقد جاورتهم
فأحدث المراد، ونلت المراد :

فان كنت قد فارقت نجدا وأهله فما عهد نجد عندنا بذيـم

والله يعلم نيتى للاخوان كافة، ولسيدى من بينهم خاصة، فان أعانى الدهر على ما فى نفسى
بلغت إليه ما فى الفكرة، وجاوزت مسافة القدرة، وإن قطع علىّ طريق عشرقى بالمعارضة،
وسوء المؤاخذة، صرفت عنائى عن طريق الاختيار، بيد الاضطرار :

فما النفس إلا نطفة بقرارة إذا لم تكدر كان صفوا معينا

وبعد فخبذا عتاب سيدي إذا استوجبنا عتابا ، وأقترفنا ذنبا ، فاما أن يسألنا العريضة
فنتحن نصونه عن ذلك ونصون أنفسنا عن آحتماله . ولست أسومه أن يقول استغفر لنا
إنا كنا خاطئين ، ولكني أسأله أن يقول لا تريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم
الراحمين .“

٦ — وبهذين الخطابين بدأت البغضاء ، وأقطع بديع الزمان عن زيارة الخوارزمي
« ومضى على ذلك الأسبوع ، ودبت الأيام ، ودرجت الليالي ، وتطاوت المدة » ومشى
الواشون بالسوء ، ودعا ناس الى مناظرة تقوم بين الرجلين ، فتردد الخوارزمي وهش بديع
الزمان ، ثم ركب الخوارزمي في جمع من أصحابه وتلامذته ، وبعد لحظات ابتدأ النضال ،
ولترك البديع يصف ذلك الموقف المشهود .

صورة المناظرة^(١)

”... فتركاه على غلوائه ، حتى إذا نفض ما في راسه ، وفرغ جعبة وسواسه ، عطفنا عليه
فقلنا : يا عافاك الله ! دعوناك وغرضنا غير المهارشة ، وأسترناك وقصدنا غير المناوشة ، فلتهدأ
ضلعك ، وليفرخ روعك ، وما آجتماعنا إلا لخير فلتسكن سورتك ، ولتان فورتك ، ولا ترقص
لغير طرب ، ولا تحم لغير سبب ! وإنما ذكرناك لتملأ المجاس فوائدا ، وتذكر أبياتا شوارد ،
وأمثالا فرائدا ، ونباحثك فنسعد بما عندك ، وتسالنا فتسر بما عندنا ، ويقف كل واحد منا
موقفه من صاحبه ، وقديما كنت أسمع بحديثك فيعجبني الالتقاء بك ، والاجتماع معك ،
والآن إذ سهل الله ذلك فهلم الى الأدب تنفق يومنا عليه ، والى الجدل نتجادب طرفيه ،

(١) أثبتنا هذا الشاهد على طوله لطرافته ولدلالته على عقلية فريق من كتاب ذلك العهد ، ولتين كيف استطاعت
اللغة المثقلة بالزخرف والسجع أن تؤدي نوعا من القصص في تدوين المآثرات . وقد أسقطنا جزءا من صورة هذه الوثيقة
الأدبية فرارا من التويل .

فأسمع خيرا وأسمعنا مثله ، ولتبدأ بالفن الذى ملكت به زمانك ، وفقت به أقرانك ، وملكك به عنائك ، وأخذت منه مكانك ، فطار به آسمك بعد وقوعه ، وأرتفع له ذكرك عقب خضوعه ، وأخمت به الرجال حتى أذعن العالم ، وقلد الجاهل ... بخارنا بفرسك ، وجُد لنا بنفسك .

فقال : وما هو ؟

فقلت : الحفظ إن شئت ، والنظم إن أردت ، والنثر إن اخترت ، والبدئية إن نشطت . فهذه أبوابك التى أنت فيها آبن دعواك ، تملأ منها فاك .

فأختم عن الحفظ رأسا ، ولم يحل فى النثر قِدحا . وقال :
أبادحك .

وقلت : أنت وذاك !

فقال الى السيد أبى الحسين يسأله بيتا ليحير . فقلت : يا هذا أنا أكفيك ، ثم تناولت حراً فيه أشعاره وقلت لمن حضر :

هذا شعر أبى بكر الذى كد به طبعه ، وأسهر له جفنه ، وأجال فيه فكره ، وأنفق عليه عمره ، وأستترف فيه يومه ، ودونه فى صحيفة مآثره ، وجعله ترجان محاسنه ، وعبر به عن باطنه ، وأخذ مكانه وهو ثلاثون بيتا ، وسأقرن كل بيت بوقفه ، وأنظم كل معنى الى لفقه ، بحيث أصيب أغراضه ، ولا أعيد ألفاظه ، وشريظتى أن لا أقطع النفس ، فان تهبأ لواحد ، أو أمكن لناقد ، ممن حضر ، يريد النظر ، أن يميز قوله من قولى ، ويحكم على البيت أنه له أو لى ، أو يرجح ما نظمه بنار الروية ، على ما أملتته على لسان النفس فله يد السبق ، أو يكون غيرها فإعفاء عن هذه المقاومة ، ويتنجى لنا عن أرض المسائلة ، ويخلى الطريق لمن يبنى المنار به .

فقال أبو بكر : ما الذى يؤمتنا من أن تكون نظمت من قبل ما تريد إنشاء الان ؟

فقلت : اقترح لكل بيت قافية لا أسوقه إلا إليها ، ولا أقف به إلا عليها ، ومثال ذلك أن تقول (حشر) فأقول بيتا آخره (حشر) ثم (عشر) فأنظم بيتا قافيته (عشر) ثم حلم جرا الى حيث يتضح الحق ، ويفتضح الزرق^(١) ، وتستقر الحجة ، وتستقل الشبهة ، وتتطرد فيعرف الحال من العاقل ، ويفرق بين الحق والباطل .

فأبى أبو بكر أن يشاركنا في هذا العنان ، ومال الى السيد أبى الحسين يسأله بيتا ليحيز فتبعنا رأييه فيما رآه ، ولم نرض إلا رضاه ، وأعمل كل منا لسانه وفمه ، وأخذ دواته وقلمه ، فأجزنا البيت الذى قاله ، وكلما أجزناه إجازة جارى القلم فيها الطبع ، وبارى اللسان بها السمع ، وسارق الخاطر بها الناظر ، وسابق الجنان بها البنان ، إذ قلنا :

هذا الأديب على تعسف فتكهِ	وبروكه عند القريض ببركهِ ^(٢)
متسرع فى كل ما يعتاده	من نظمته متباطئ عن تركهِ
والشعر أبعد مذهبا ومصاعدا	من أن يكون مطيعه فى فكهِ
والنظم بحرٌ والخواطر معبرٌ	فانظر الى بحر القريض وفكهِ
فمضى توافى فى القريض مقصرٌ	عرضت أذن الامتحان بعركهِ
هذا الشريف على تقدم بيتهِ	فى المكرمات ورفعهِ فى سمكهِ
قد رام منى أن أقارن مثله	وأنا القرين السوء إن لم أنكهِ ^(٣)
واذا نظمت قصمت ظهر مناظرى	وحطمت جارحة القرين بدكهِ
ودبغت منه أديمه وتركته	نهج الأديم بدبغه وبدكهِ
أصغو الى الشعر الذى نظمته	كالدرّ رصع فى مجرة سلكهِ
فمضى عجزت عن القريض بدية	فدمى الحرام له إراقة سفكهِ

وقال أبو بكر أبياتا جهدنا به أن يخرجها من الغلاف ، ويبرزها من الخاف ، فلم يفعل دون أن طواها وجعل يعركها ويفركها ، فقلت : إن البيت لقائله ، كالولد لناجله ، فإلك

(١) الزرق جمع أزرق ويراد به الأعمى . وفى القرآن (ونحشر الجرمين يومئذ زرقا) أى عميا .

(٢) البرك بفتح فسكون : الصدر . (٣) من النكابة وهى الإهانة .

تعق آبنك وتضييمه ؟ أبرزها للعيون ، وخلصها من الظنون . فكره أبو بكر أيده الله أن تكون
المرّة أعقل منه لأنها تحدّث فتعطى ، فلم يستجري أن يظهر ثم مسح جبينه وبسط يمينه
للبدية نفسا دون أن يكتب . فقلنا : أنت وذاك . واقترح علينا أن نقول على وزن قول
أبي الطيب المتنبي حيث يقول :

أرق على أرق ومثلى يأرق وجوى يزيد وعبرة تترق
وأبتدر أبو بكر أيده الله الى الإجازة ولم يزل الى الغايات سباقا فقال :
وإذا ابتدعت بدية يا سيدى فأراك عند بديهى تتقلق
وإذا قرضت الشعر فى ميدانه لا شك أنك يا أنى تشفق
إنى إذا قلت البدية قلتها عجلا وطبعك عند طبعى يرتق
مالى أراك ولست مثلى عندها متموها بالترهات تمخرق
إنى أجيز على البدية مثل ما تريانه وإذا نطقت أصدق
لو كنت من صحير أصم لهاله منى البدية وأغمدى يتفلق
أو كنت ليثا فى البدية خادرا لرئيت يا مسكين منى تفرق
وبدية قد قلتها متنفسا فعل الذى قد قلت يا ذا الأخرق

ثم وقف يعتذر ويقول : إن هذا كما يحىء لا كما يجب . فقلت : قبل الله عذرك لكنى
أراك بين قواف مكروهة وقافات خشنة كل قاف بكبل قاف ، منها تتقلق وتشفق وتمخرق
وتخرق وتطلق وتعلق وتسرق وتفرق وأحق وأخرى إلى أشياء لا أكثر بها العدد ، نخذ الآن
جزءا عن قرضك ، وأداء لقرضك ، وقلت :

مهلا أبا بكر فزندك أضيق فانرس فإن أخاك حتى يرزق
دعنى أعرك إذا سكت سلامة فالقول ينبجذ فى ذويك ويعرق
ولفائك فتكات سوء فيكم فدع الستور وراءها لا تخرق
وأنظر لأشنع ما أقول وأدعى أله إلى أعراضكم متسلق
يا أحقما وكفالك ذلك خزية جربت نار معرفتى هل تحرق

فلما أصابه حر الكلام، ومسه لفتح هذا النظام، قطع علينا فقال : يا أحمق لا يجوز فإن أحمق لا ينصرف . فقلنا : يا هذا لا تقطع فإن شعرك إن لم يكن عيبة عيب فليس بطرف ظرف، ولو شئنا لقطعنا عليك، ولوجد الطعن سبيلا اليك . وأما أحمق فلا يزال يصفحك لتصفعه حتى ينصرف ويتصرف معه ! وعرفناه أن للشاعر أن يرث ما لا ينصرف الى الصرف، كما أن له رأيه في القصر والحذف، وأنشدناه حاضر الوقت من أشعار العرب فقال : يجوز للعرب ما لا يجوز لك . فلم يدر كيف يجيب عن هذا الموقف وهذه الموافقة، وكيف يسلم من هذه المصارفة، لكنا قلنا : أخبرنا عن بيتك الأول أمدحت أم قدحت، وزكيت أم جرحت ؟ فيه شيان متفاوتان، ومعنيان متباينان، منها أنك بدأت مخاطبت بيا سيدي، والثانية أنك عطفت فقلت لتتلقى وهما لا يركضان في حلبة ولا يخطان في خطة . ثم قلت له : خذ وزنا من الشعر حتى أسكت عليك فتستوفي من القول حظك وأسكت علينا حتى نستوفي حظنا ، ثم إني أحفظ عليك أنفاسك وأوافقك عليها وأحفظ على أنفاسي ووافقني عليها فإن عجزت عن اختلافها حفظتها لك، فسألني عنها بعد ذلك . وأخذنا بيت أبي الطيب المتنبي :

أهلا بدار سباك أغيدها أبعد ما بان عنك خردها

فقلت :

يا نعمة لا تزال تجحدها ومنة لا تزال تكندها

فأخذ بمخني البيت قبل تمامه، ومضيق الشعر قبل نظامه، فقال : ما معنى تكندها ؟ فقلت : يا هذا، كند النعمة كفرها . فرفع يديه ورأسه وقال : معاذ الله بأن يكون كند بمعنى جحد، وإنما الكنود القليل الخير . فأقبلت الجماعة عليه يوسعونه برأ وفريا ويتلون له قول الله تعالى (إن الإنسان لربه لكنود) وقلت له : أليس الشرط أملك؟ والعهد بيننا أن تسكت ونسكت حتى تم وتم، ثم نبحث ونفحص، فنبد الأدب وراء ظهره وصار الى السخف يكلنا بصاعه ومده، وينفض فيه حمة جهده، وأفضى الى السفه يغرف علينا غرفا، ويستقي من جرفه جرفا . فقلت : يا هذا إن الأدب غير سوء الأدب والمناظرة حضرة لا للمناظرة، فإن نفضت من هذا السخف يدك، وثبتت عن هذا السفه قصدك، وإلا تركت مكانتك . ولو كان

في باب الاستخفاف شيء أعظم من الاحتقار، وإنكار أبلغ من ترك الإنكار، لبلغته منك . فأخذ يمسح على غلوائه ، ويمعن في هرائه وهذائه . فاستندت إلى المسند ، ووضعت اليد على اليد ، وقلت استغفر الله من مقالتي ونقضتها قائمة معه . وسكت حتى عرف الناس ، وأيقن الجلاس ، أني أملك من نفسي ما لا يملكه ، وأسالك من طريق الحلم ما لا يسلكه ، ثم عطفت عليه وقلت : يا أبا بكر إن الحاضرين قد عجبوا من حلمي ، وتعجبوا من فضلي ، وبقى الآن أن يعلموا أن هذا السكوت ليس عن عي ، وأن تكلفى للسفه أشد استمرارا من طبعك ، وغربي في السخف أمتن عودة من نبئك ، وسنقرع باب السخف معك ، ونفترع من ظهر السفه مفترعك . فتكلم الآن . فقال لي : أنا قد كسبت بهذا العقل دية أهل همدان مع قلته فما الذي أفدت أنت بعقلك مع غزارته ؟ فقلت أما قولك أهل همدان فما أولاني أن أجيب عنه ولكن هذا الذي تمدح به وتبجح وتتشرف وتتصلف من أنك شحذت فأخذت ، وسألت فحصلت ، وأجديت فأقتيت ، فهذا عندنا صفة ذم يا عافاك الله ! ولأن يقال للرجل يا فاعل يا صانع أحب إليه من أن يقال يا شحاذ ويا مكدي ! وقد صدقت ، أنت في هذه الحلبة أسبق ، وفي هذه الحرفة أعرق ، ولعمرك أنت أشحذ ، وفي الكدية أنفذ ، وأنا قريب العهد بهذه الصنعة ، حديث الورد لهذه الشريعة ، مرمل اليد في هذه الرقعة . فأما مالك فعندنا يهودي يماثلك في مذهبه ، ويزيدك بذهبه ، ومع ذلك لا يطرفني إلا بعين الرهبة ، ولا يمد الي إلا يد الرغبة ، ولو كان الغني حظا لأخطاه مثل هذا العقل ، ولو كان المال غنا لما أدرك بهذا السعي . ولكن عرفني هل كنت فيما سلف من زمانك ، ونبت من أسنانك ، إلا هاربا بذمائك ، مضرجا بدمائك ، مرتهنا بقولك بين وجنة موشومة ، وجوارح مهشومة ، ودار مهدومة ، وخدود ملطومة . ومتى صفقت مشارعك ، وأخضبت مرابعك ، إلا في هذه الأيام القذرة ؟ وستعرف غدك من بعد ، وتنكر أمسك ، وتعلم قدرك في غد ، وتعرف نفسك . وما أضيع وقتا أنطقه بذكرك ، ولسانا دنسته باسمك ! وملت إلى القوال فقلت أسمعنا خيرا فدفع القوال وغنى أبياتا منها :

وشبهنا بنفسج عارضيه بقايا اللطم في الخلد الرقيق

فقال أبو بكر : أحسن ما في الأمر أني أحفظ هذه القصيدة وهو لا يعرفها ، فقلت :
يا عافاك الله أعرفها وإن أنشدتكها ساءك مسموعها ، ولم يسرك مصنوعها ، فقال : أنشد
فقلت : أنشد ولكن روايتي تخالف هذه الرواية وأنشدت :
وشبهنا بنفسج عارضيه بقايا الوشم في الوجه الصفيق

فأنته السكته ، وأضجرتة النكته ، وأنطفأت تلك الوقده ، وأنحلت تلك العقدة . وأطرق مليا
وقال : والله لأضربنك وإن ضربت ، ولأشمتنك وإن شمتت ، ولتلعنن نبأه بعد حين ، ولتلعنن
أينا الضارب وأينا المصروب ! فقلت : يا أبا بكر مهلا فانك بين ثلاثة فصول لم تخطها من عمرك
وثلاث أحوال لم تتعدها في أمرك ، وأنت في جميع الثلاثة ظالم في وعيدك ، متعدي في تهديدك ،
لأنك كهل وأنت شاعر ، وكنت شابا وأنت مقامر ، وكنت صبيا وأنت مؤاجر ، فنطاق القدرة
في الفصول الثلاثة ضيق عن هذا الوعيد ، لكنا نصفحك الآن وتضربنا فيما بعد ، فقد قيل اليوم
قصف ، وغدا خسف ، وقيل اليوم حمر ، وغدا أمر ! فقال أبو بكر والله لو دخلت الجنة ،
واتخذت السندس والإستبرق جنة ، لصمعت ! فقلت : والله لو أن قفاك غدا في درج في خرج
في برج لأخذك من النعال ما قدم وما حدث ، وسملك من الصفع ما طاب وخبث ، وأنشدت
قول ابن الرومي :

إن كان شيئا سفيها يفوق كل سميهِ

فقد أصاب شيئا له وفوق الشبيه

ثم لما آبت نفس العقل وزال سكر الغيظ تمثلت بقول القائل :

وأنزلي طول النوى دار غربة إذا شئت لاقيت أمرا لا أشاكلة

أحامقه حتى يقال سجيّة ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله

ودفع اللقال فبدأ بأبيات ، ولحن بأصوات ، وجعل النعاس يثنى الرؤوس ، ويمنع
الجلوس ، فقمنا عن الليل وهو بحره مائل الذقن الى ما وطئ من مضجع ، ومهد من مهجع ،
ولم يكن النوم ملء الجفون ، ولا شغل العيون ، حتى أقبل وفد الصباح ، وحيل المؤذن بالفلاح ،

وتدب الى النهوض ، بالمقروض ، فأجبنا . فلما قضينا القرض . فارقتا الأرض ، فأوى الى أم
 مشواه وأويت الى الحجرة وظنى أن هذا الفاضل يأكل يده ندماً ، ويسكى على ماجرى دمعا ودماء ،
 فانه إذا سمع بحديث همدان قال : الهاء حم والميم موت ، والذال ذل ، والألف آفة ، والنون
 ندامة ، وأنه إذا تم هاله منا طيف ، وإذا أتبه راعه منا سيف ، وأخذ الناس يترامزون بما
 جرى ويتغامزون ، وراب هذا الفاضل غمزاتهم مثل ماراب المريض تغامر العواد بفعل
 يخلف للناس بالعق ، وتحرير الرق . والمكتوب فى الرق ، إنه أخذ قصب السبق ، وإنه ينطق
 عن الحق ، والناس أكياس لا يقنعهم عن المدعى يمين دون شاهدين ! وسعوا بيننا بالصالح
 يحكون قواعده ومعاقده ، وعرفنا له فضل السن فتصدناه معتذرين اليه فأوماً بإعانة مهيضة ،
 وآخرة آتزازة مغيضة ، وأشار إشارة مريضة ، بكف سحبها على الهواء سبحا ، وبسطها فى الجؤ
 بسطا ، وعلما أن للتمور أن يستخف ويستهن ، وللقامر أن يحتمل ويلين ، فقلنا إن بعد
 الكدر صفوا ، كما أن عقب المطر صحوا ، فهيل لك فى أخلاق فى العشرة نستأنفها ، وطرق
 فى الخلطة نسلكها ، فإن ثمرة الخلاف ماقد بلوتها ؟ فقال ظهر الوفاق لفظا كما ذكرت ، والجمل
 أبجل كما علمت ، وسنشارك هذا العنان . وعرض علينا الإقامة عنده سبحانه ذلك اليوم ، فاعتلنا
 بالصوم ، فلم يقبل العذر وألح فقلت : أنت وذاك قطعنا عنده ، وأخذنا دندناً مزده ،
 ونرجوا والنية على الجليل موفورة ، وبقعة الود معمورة ، وصرنا لا نتعلل إلا بمدحه ، ولا نتنقل
 إلا بذكره ، ولا نعتد إلا بوده ، لا بل ملائنا البلد شكرا ، والأسماع نشرا ، وبتنا نحن من الحال
 فى أعذبا شرعة ، ومن الثقة فى أطيبها جرعة ، ومن الظنون فى أملحها فرعة ، ومن المودة
 فى أعزها بقعة ، وأوسعها رفعة ، حتى طرأ علينا رسولان متحملان لمقائله ، مؤديان لرسالته ،
 ذاكران أن أبا بكر يقول قد تواترت الأخبار ، وتظاهرت الآثار ، فى أنك قهرت وأنى قُهرت
 ولا شك أن ذلك التواتر عنك صدرت أوائله . والخبر إذا تواتر به التل ، قبله العقل . ولا بد
 أن نجتمع فى مجلس بعض الرؤساء فنتناظر بمشهد الخاصة والعامة ، فانك متى لم تفعل ذلك
 لم آمن عليك : لامتقى أو تقر بعجزك وقصورك عن بلوغك أمدى وما أبدى . فعجبت كل
 العجب مما سمعت ، وأجبتته فقلت : أما قولك قد تواتر الخبر بأنك قُهرت وأن ذلك عن

جهتي صدر ومن لسانى سمع فبالله ما أتمدح بقهرك ، ولا أتجبح بقسرك . وإن لنفسك عندك
 لسانا إن ظننتنى أقف هذا الموقف ، أنا إن شاء الله تعالى أبعد مرتقى همة ومصعد نفس
 أسأل الله سترًا يمتد ووجهها لا يسود ! فأما التواتر من الناس والتظاهر على أنى قهرتك فلو قدرت
 على الناس لخطت أفواههم ، ولقبضت شفاههم ، فما الحيلة وهل الى ذلك سبيل فأتوسل ،
 أم ذريعة فأتوصل ؟ ثم هذا التواتر ، ثمرة ذلك التناظر ، مع ذلك التسائر ، فإن كان قد ساءك
 فأحرى أن يسوءك عند مجتمع الناس ومحتفل أولى الفضل ، ولأن يترك الأمر مختلفا فيه خير
 لك من أن يتفق عليه . وإن أحببت أن تطير هذا الواقع وتبيح هذا الساكن فراك موفقا .
 فاما هذا الوعيد فقد عرضته على جوانحي أجمع وجوارحي كلها فلم تنشدا الا بيت القائل :
 وعيدٌ تخرج الآرام منه وتكره نية الغنم الذئاب

فكم تتكوبك تلامذتك ويتعسكرون ، ويتجيش أصحابك ويتجمعون ، ولست أراك إلا بين
 ثنتين : إحداهما تروح الى أنثى وتغرد الى طفل ، والأخرى تجيب دعوة المضطر إذا دعاك
 بمسلمات . فإن كان الله قد قضى أن القتل بأخس السلاح ، فلا مفتر من القدر المتاح ، رزقنا الله
 عقلا به نعيش ! ونعوذ بالله من رأى بنا بطيش ! وقلنا من بعد إن رسالتك هذه وردت موردا
 لم نحسنه ، ووصلت موقفا لم نرتقبه ، فلذلك خرج الجواب عن البصل ثوما ، وعن البخل
 لوما . فلما ورد الجواب عليه ويسع من الفيظ فوق ملئه ، وحمل من الحقد فوق عبئه ، وقال :
 قد بلغ السيل الزبا ، وعلت الوهاد الربا ، فى أمرك . وسُرى فى يومك ، وتُعرف فى قومك !
 ثم مضت على ذلك أيام ونحن منتظرون لفاضل ينشط لهذا الفصل ، وينظر بيننا بالعدل ،
 فاتفقت الآراء على أن يعقد هذا المجلس فى دار الشيخ أبى القاسم الوزير وأستدعيت فسرحت
 الطرف من ذلك السيد فى عالم أفرغ فى عالم وملك فى درع ملك ورجل نظم الى التنبل تبذلا
 والى الترفع تواضعا ، ونطق فودت الأعضاء لو أنها أسمع مصغية وآستمع فتمنت الجوارح
 لو أنها ألسن ناطقة فقلت : الحمد لله أن عقد هذا المجلس فى دار من يفرق بين من يُحق ومن
 يزيق^(١) وكنت أول من حضر وانتظرت مليا حضور من ينظر وقدم من يناظر ، وطلع الإمام

(١) من زوق الطائر إذا أخرج ما فى أمثاله .

أبو الطيب وأخذ من المجلس موضعه ، والامام أبو الطيب بنفسه أمة ووحده عالم . ثم حضر السيد أبو الحسين وهو ابن الرسالة والإمامة ، وعامر أرض الوحي والمحتجب بفناء النبوة والضارب في الأدب بعرقه ، وفي النطق بحذقه ، وفي الإنصاف بحسن خلقه ، فحشم الى المجلس قدم سيفه وجعل يضرب عن هذا الفاضل بسيفين لأمر كان قد موّه عليه ، وحديث كان شبهه لديه ، وفطنت لذلك فقلت : أيها السيد أنا إذا سار غيري في التشيع برجلين ، طرت بجناحين ، وإذا متّ سوى في موالاة أهل البيت بلحمة دالة توصلت بغرة لأئمة ، فإن كنت أبلغت غير الواجب فلا يحملك على ترك الواجب . ثم إن لي في آل الرسول صلى الله عليه وسلم قصائد قد نظمت حاشيتي البر والبحر ، وركبت الأفواه ، ووردت المياه ، وسارت في البلاد ، ولم تسر بزاد ، وطار في الآفاق ، ولم تسر على ساق ، ولكني أتسوق بها لديكم ولا أتنفق بها عليكم ، ولا آخرة قلتها لا للحاضرة ، وللدين آذخرتها لا للعالم . فقال أنشدني بعضها فقلت :

يا لمة ضارب الزما	ن على معرّسها خيامه
لله درك من نخزا	في روضة عادت تغامه
لرزية قامت بها	للدين أشرط القيامة
لمضرج بدم النبوة	ضارب بيد الإمامه
منقسم بظبا السيو	ف مجرّع منها حمامه
منع الورود وماؤه	منه على طرف الثمامه
نصب ابن هند رأسه	فوق الوري نصب العلامه
ومقبّل كان النبي	بلثمه يشفى غرامه
قرع ابن هند بالقضيب	عذابه فرط استضامه
وشدا بنعمته عليه	له وصبّ بالفضلات جامه
والدين أبلغ ساطع	والعدل ذو خال وشامه
يا ويح من ولي الكنا	ب قفاه والدين أمامه
ليضرسن يد النداء	مة حين لا تغني الندامه

وليدركن على الفرا	مة سوء عاقبه الغرامه
وحى أباح بنو أمية	ة من طوائهم حرامه
حتى آشتفوا من يوم بد	ر وآستبدوا بالزعامة
لعنوا أمير المؤمنين	ن بمثل إعلان الإقامة
لم لا تخزى يا سمي	ء ولم تصبى يا غمامه
لم لا تزولى يا جبا	ل ولم تشولى يا نعمامه
يا لعنة صارت على	أعناقهم طوق الجمامة
إن العمامة لم تكن	للثيم ما تحت العمامه
من سبط هند وآبها	دون البتول ولا كرامه
يا عين جودى للبق	ح وزرعى بدم رغامه
جودى بمذخور الدمو	ع وأرملى بددا نظامه
جودى بمكنون الدمو	ع أجدا بما جاد آبن نامه

فلما أنشدت ما أنشدت، وسردت ما سردت، وكشفت له الحال فيما اعتقدت، انجلت له العقدة وصار ساميا وسعنا حالما. وحضر بعد ذلك الشيخ أبو عمر البسطامى وناهيك من حاكم يفصل، وناظر يعدل، يسمع فيفهم، ويقول فيعلم. ثم حضر بعد ذلك القاضى أبو نصر والأدب أدنى فضائله، وأيسر فواضله، والعدل شية من شيه، والصدق مقتضى هممه. وحضر بعده الشيخ أبو سعيد محمد بن ارمك أيدى الله وهو الرجل الذى يحميه للألأوه ولودعيتيه من أن يذال بمن أو من الرجل، وهو الفاضل الذى يحطب فى جبل الكتابة ما شاء، ويركض فى حلبة العلم ما أراد. وحضر بعده أبو القاسم بن حبيب وله فى الأدب عينه وفراره، وفى العلم شعلته وناره. وحضره بعده الفقيه أبو الهيثم ورائد الفضل يقدمه، وقائد العقل يخدمه. وحضر بعده الشيخ أبو نصر بن المرزبان والفضل منه بدأ واليه يعود. وحضر بعده أصحاب الإمام أبى الطيب الأستاذ أيدى الله.

”وما منهم إلا أغمر نجيب“ .

وحضر بعدهم أصحاب الأستاذ الفاضل أبي الحسن الماسرجسي :

”وكل إذا عدّ الرجال مقدّم“

وحضر بعدهم أصحاب الأستاذ أبي عمر البسطامي وهم في الفضل كأسنان المشط ومنه بأعلى مناط العقْد . وحضر بعدهم الشيخ أبو سعيد الحمذاني وله في الفضل قدحه المعلى ، وفي الأدب حظه الأعلى . وحضر بعد الجماعة أصحاب الأسيلة المسيلة ، والأسوكة المرسلة ، رجال يلعن بعضهم بعضا فصاروا الى قلب المجلس وصدره حتى رد كيدهم في نحرهم وأقيموا بالنعال الى صف النعال ، فقلت لمن حضر : من هؤلاء؟ فقالوا : أصحاب الخوارزمي ، فلما أخذ المجلس زخرفه من حضر ، وأتتظر أبو بكر فتأخر ، اقترحوا على قواني أثبتوها واقترحات كانوا يبتوها ، فما ظنك بالخلقاء أدنيت لها النار من لفظ الى المعنى نسقته ، وبيت الى القافية سقته ، على ريق لم أبلعه ، ونفس لم أقطعه ، وصار الحاضرون بين إعجاب بما أوردت ، وتعجب مما أنشدت . وقال أحدهم بل أوحدهم وهو الإمام أبو الطيب لن تؤمن لك حتى نقترح القواني ونعين المعاني وننص على بحر فإن قلت حينئذ على الروي الذي أسومه ، وذكرت المعنى الذي أرومه ، فانت حتى القلب كما عهدناك ، منشرح الصدر كما شاهدناك ، شجاع الطبع كما وجدناك ، وشهدنا أنك قد أحسنت ، وأن لا فتي إلا أنت . فبما خرجت من عهدته هذا التكليف حتى آرتفعت الأصوات بالهيللة من جانب والحوقة من آخر وتعجبوا إذ أرتهم الأيام ، ما لم ترهم الأحلام ، وجادهم العيان بما بخل به السماع ، وأنجزهم النهم ما أخلفهم الوهم ، ثم التفت فوجدت الأعناق تلتفت وما شعرت إلا بهذا الفاضل وقد طلع في شملتبه وهب بجملته ، بأوداج ما يسعها الزران ، وعينين في رأسه تران ، ومشى الى فوق أعناق الناس وجعل يدس نفسه بين الصدور يريد الصدر وقد أخذ المجلس أهله فقلت : يا أبا بكر ترحز عن الصدر قليلا الى مقابلة أخيك . فقال : لست برب الدار ، فتأمر على الزوار ! فقلت : يا عافاك الله حضرت لتناظرني والمناظرة آشتت إماما من النظر أو من النظر ، فإن كان

اشتقاقها من النظر فمن حسن النظر أن يكون مقعدنا واحداً حتى يتبين الفاضل من المفضول ثم يتناول السابق ويتقاصر المسبوق . ففقت الجماعة بما قضيت ، وغص هذا الفاضل من تلك الحكمة ، وأنحط عن تلك العظمة ، وقابلني بوجهه فقلت : أراك أيها الفاضل حريصاً على اللقاء ، سريعاً إلى الهجاء .

”ولو زينتك الحرب لم تترمرم“ :

ففي أي علم تريد أن نتناظر؟ فأومأ إلى النحو، فقلت : يا هذا إن اليوم قد مَتَّعَ والنهار قد أرتفع ، والظهر قد أُرْفَ ، ولئن قرعنا باب النحو أضعنا اليوم فيه ، فبما ذا يخرج الناس ، فعلا هتاف الناس أيهما رد الجواب هناك ما يدرى المحيبي . فإن شئت أن أناظرك في النحو فسلم الآن إلى ما كنت تدعيه من سرعة في البديهة وجودة في الروية ، وقدرة على الحفظ ونفاذ في الترسل . ثم أنا أجاريك في هذا ، فقال : لا أسلم ذلك ولا أناظر في غير هذا ، وأرتفعت المضاجعة واستمرت الملاحاة حتى بلغ الأستاذ الفاضل أبو عمر اليه فقال : أيها الأستاذ أنت أديب نحاسان وشيخ هذه الديار وبهذه الأبواب التي قد عدها هذا الشاب ، كما نعتقد لك النسب والحدق ، وتثاقلك عن مجاراته فيها مما يتهم ويوهم ، وأضطره إلى منازلة أو نزول عنها ومقازة فيها أو إقرار بها . فقال : سلمت الحفظ ، فأنشدت قول القائل :

ومستأنم كشفت بالريح ذيله أتمت بعضب دى شقاشق ميله
بجفت به في ملتقى الحى خيله تركت عتاق الطير تحجل حوله

وقلت : يا أبا بكر خفف الله عنا في الحفظ فقد كُنيتنا مؤونة الامتحان ، ولم نضع وقتاً من الزمان ، فلو تفضلت وسلمت البديهة أيضاً مع الترسل حتى نفرع للنحو الذى أنت عليه أكبر واللغة التى أنت بها أعرف والعروض الذى أنت عليه أجراً ، والأمثال التى لك فيها السبق والقدم والأشعار التى أنت فيها تقدم ، فقال : ما كنت لأسلم النزل ولا سلمت الحفظ ، فقلت : الراجع فى شئيه ، كالراجع فى قيئه ، لكنا نريك عن ذلك السماح فهات أنشدنا خمسين بيتاً من قبلك مرتين حتى أنشدك عشرين بيتاً من قبلى عشرين مرة ، فعلم أن دون ذلك خرط القتاد

تهاب شوكتها اليد فسلمه ثانياً، كما سلمه بادياً، وصرنا الى البديهة، فقال أحد الحاضرين هاتوا على شعر أبي الشيص في قوله :

أبقى الزمان به ندوب عِضاضٍ ورمى سواد قرونه ببياضٍ

فأخذ أبو بكر يخضد، ويحصد، مقدراً أنا نفعل عن أنفاسه، أو نوليه جانب وسواسه ، ولم يعلم أنا نحفظ عليه الكلم ثم نوافقه عليها، فقال :

يا قاضيا ما مثله من قاضٍ أنا بالذى تقضى علينا راض
فلقد لبست ضفية مالمومة من نسج ذاك البارق الفضفاض
لا تغضبني إذا نظمت تنفسا إن الغضا في مثل ذاك تغاض
فلقد بليت بشاعر متقادر ولقد بليت بناب ذئب غاض
ولقد قرضت الشعر فاسمع وأستمع لنشيد شعر طائعا وقراض
فلا غلبت بديهة ببديهي ولأرمن سواده ببياض

فقلت : يا أبا بكر ما معنى قولك ضفية مالمومة وما الذى أردت بالبارق الفضفاض فأذكر أن يكون قاله قافية ، فواقمه على ذلك أهل المجلس وقالوا : قد قلت ! ثم قلت : فما معنى قولك ذئب غاض؟ فقال : هو الذى يأكل الغضا، فقلت : استنوق الجمل يا أبا بكر وأنقلبت القوس ركوة وصار الذئب جملا يأكل الغضا، فما معنى قولك إن الغضا في مثل ذاك تغاض فإن الغضا لا أعرفه بمعنى الإغضاء، فقال : لم أقل الغضا ، فقلت : ما قلت ؟ فأذكر البيت جملة ، فقلت : يا ويحك ما أغناك عن بيت تهرب منه وهو يتبعك، وتبترأ منه وهو يلحق بك فقل لى : ما معنى قراض فلم أسمعه مصدرا من قرضت الشعر ولكن هلا قلت كما قلت وسقت الحشو الى القافية كما سقته؟ فقال : هذه طريقة لم تسلكها العرب فلا أسلكها . ثم دخل الرئيس أبو جعفر والقاضى أبو بكر الحربى والشيخ أبو زكريا الخيرى وطبقة من الأفاضل مع عدة من الأراذل فيهم أبو رشيدة، فقلت : ما أحوج هذه الجماعة الى واحد يصرف عنهم عين

(١) الكمال! وأخذ الرئيس مكانه من الصدر والدست وله في الفضل قدم وقدم وفي الأدب هم وهمهم وفي العلم قديم وحديث فتم المجلس وظهر الحق بنظره وقال : قد أدعيت عليه أبياتا أنكرها فدعوني من البديهة على النفس وأكتبوا ما تقولون وقولوا على حذو، فقلت :

برز الربيع لنا برونق مائه	فانظر لروعة أرضه وسمائه
فالترب بين ممسك ومعبر	من نوره بل مائه وروائه
والماء بين مصنل ومكفر	في حسن كدرته ولون صفائه
والطير مثل المحصنات صواح	مثل المغنى شاديا بغناؤه
والورد ليس بممسك رياه إذ	يهدى لنا نفحاته من مائه
زمن الربيع جلبت أزكى متجر	وجلوت للرئين خير جلائه
فكانه هذا الرئيس إذا بدا	في خلقه وصفائه وعطائه
بجى أعز محجر وندى أغر	نحجل في خلقه ووفائه
يعشوا اليه المختوى والمجتدى	والمجتوى هو هارب بزمائه
ما البحر في ترخاره والغيث في	إمطاره والبحو في أنوائه
بأجل منه مواهباً وרגائباً	لا زال هذا المجد حالف فنائه
والسادة الباقون سادة عصرهم	متمدحون بمدحه وشائنه

فقال أبو بكر تسعة أبيات قد غابت عن حفظنا لكنه جمع فيها بين إقواء وإكفاء ، وإيطاء ، فرددنا عليه بعد ذلك عشرين رداً ونقدنا عليه فيها كذا نقسدا ، ثم قالت لمن حضر من وزير ورئيس وفتية وأديب : أرأيتم لو أن رجلاً حلف بالطلاق الثلاث لا أنشد شعراً قط ثم أنشد هذه الأبيات فقط هل كنتم تطلقون أمراًته عليه ؟ ! فقالت الجماعة : لا يقع بهذا طلاق ! ثم قلت : آنقد على فيما نظمت ، وأحكم عليه كما حكمت . فأخذ الأبيات وقال : لا يقال نظرت لكذا وإنما يقال : نظرت إليه ، فكفتني الجماعة إجابته ، ثم قال : شبهت الطير

(١) تهكم يذكر بقول الشاعر :

أكان أحوج ذا الكمال الى عيب يوقيه من العسين

بالمحصنات وأی شبه بينهما؟ فقلت : یا رقیع ، إذا جاء الربیع ، كانت شواذی الأَطیار ،
تحت ورق الأشجار، فیکن كأنهنّ المخدرات تحت الأستار . ثم قال لی : لم قلت مثل المحصنات
مثل المغنی، فقلت : هن فی الخدر كالمحصنات وکالمغنی فی ترجیع الأصوات . ثم قال : لم قلت
زمن الربیع جلبت أزکی متجر وهلا قلت أریح متجر؟ فقلت : لیس الربیع بتاجر یجلب
البضائع المربحة . ثم قال : ما معنی قولك الغیث فی إمطاره والغیث هو المطر نفسه فكیف یکون
له مطر؟ فقلت : لا سقى الله الغیث أدبیا لا یعرف الغیث ! وقلت له : إن الغیث هو المطر وهو
السحاب كما أن السماء هو المطر وهو السحاب . وقال الجماعة : قد علمنا أى الرجلین أشعر ،
وأى الخصمین أقدر، وأى البديهتین أسرع، وأى الرویتین أصنع . فقال أبو بكر : فأسقونی
على الظفر . فقالوا : كفالك ما سقاك ! ثم ملنا الى الترسل، فقلت : اقترح على غاية ما فی طوقك ،
ونهایة ما فی وسعك ، وأختر ما تبلغه بذرعك حتى أقترح عليك أربعائة صنف فی الترسل
فإن سرت فیها برجلین ولم أطر ببحاحین ، بل إن أجسنت القیام بواحد من هذه الأصناف
ولم تخاف كل الإخلاف فلك ید السبق وقصبه ومثال ذلك أن قول لك : اكتب كتابا یقرأ
مه جوابه هل یمكنك أن تكتب؟ أو أقول لك : اكتب كتابا على المعنی الذى أقترح لك وأنظم
شعرا فی المعنی الذى أقترح وأفرغ منهما فراغا واحدا، هل كنت تمد له ساعدا؟ أو أقول لك
اكتب كتابا فی المعنی الذى أقول وأنص علیه ، وأنشد من القصائد ما أریده من غیر تناقل
ولا تعادل حتى إذا كتبت ذلك قرئ من آخره الى أوله وانتظمت معانیه إذا قرئ من أسفله ،
هل كنت تفوق لهذا الغرض سهما، أو تجیل قدحا، أو تصیب نجحا؟ أو قلت لك : اكتب
كتابا إذا قرئ من أوله الى آخره كان كتابا، فان عكست سطره مخالفة كان جوابا . هل كنت
فی هذا العمل واری الزند، قاصد القصد؟ أو قلت لك : اكتب كتابا فی المعنی الذى یقترح
ولا یوجد فیهِ حرف منفصل من راء یتقدم الكلمة أو دال ینفصل عن الكلمة بدیهة ولا یجتم
فیها قلبك ، هل كنت تفعل؟ أو قلت لك : اكتب كتابا خالیا من الألف واللام تصب
معانیه على قالب ألفاظه ولا تخرجه عن جهة أغراضه، هل كنت تقف من ذلك موقفا
مدوحا أو یبعثك ربك مقاما محمودا؟ أو قلت لك : اكتب كتابا یخلو من الحروف العواطل،

هل كنت تحظى منه بطائل ، أو تبلى لماتك بناطل؟ أو قلت لك : اكتب كتابا أوائل سطورده كلها ميم وآخرها جيم ، على المعنى الذى يقترح ، هل كنت تغلو فى قوسه غلوة ، أو تخطو فى أرضه خطوة؟ أو أقول لك : اكتب كتابا إذا قرئ معرجا وسرد معوجا كان شعرا هل كنت تقطع فى ذلك شعرا؟ بلى والله تصيب ولكن من بدنك ، وتقطع ولكن من ذقنك ! أو أقول لك : اكتب كتابا إذا فسر على وجهه كان مدحا وإذا فسر على وجهه كان قدحا . هل كنت تخرج من هذه العهدة؟ أو قلت لك : اكتب كتابا إذا كتبه تكون قد حفظته ، من دون أن لحظته ، هل كنت تثق من نفسك به الى مالا أطاولك بعده ، بل آست البائن أعلم ؟ ! فقال أبو بكر هذه الأبواب شعبة ، فقالت : وهذا القول طرمدة ! فما الذى تحسن أنت من الكتابة وفنونها ، حتى أباحثك على مكنونها ، وأكاثرك بمخزونها ، وأشبر فيها قلبك ، وأسبر فيها لسانك وفك ، فقال : الكتابة التى يتعاطاها أهل الزمان المتعارفة بين الناس ، فقلت أليس لا تحسن من الكتابة إلا هذه الطريقة الساذجة وهذا النوع الواحد المتداول لكل قلم ، المتناول بكل يد وفم ، ولا تحسن هذه الشعبة ؟ فقال نعم . فقلت : هات الآن حتى أطاولك بهذا الجبل وأناضلك بهذا النبل ، ثم تقاس ألفاظى بألفاظك ، ويعارض إنشأى بإنشائك . وأقترح كتاب يكتب فى النقود وفسادها والتجارات ووقوفها والبضاعات وأنقطاعها والأسعار وغلائها .

فكتب أبو بكر بما نسخته :

بسم الله الرحمن الرحيم

” الدرهم والدينار ثمن الدنيا والآخرة ، بهما يتوصل الى جنات النعيم ، ويخلد فى نار الجحيم ، قال الله تبارك وتعالى : خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم . وقد بلغنا من فساد النقود ما أكبرناه أشد الإكبار ، وأنكرناه أعظم الإنكار ، لما نراه من الصلاح للعباد ، وننويه من الخير للبلاد ، وتعرفنا فى ذلك ما يرجح للناس فى الزرع والضرع ، ويعود اليه أمر الضر والنفع “ .

الى كلمات لم تعلق بحفظنا .

فقلت : إن الإيجار والإنكار والعباد والبلاد وجنات النعيم ونار الجحيم والزرع والضرع
أشجاع قد نبئت في المعد ، ولم تزل في اليد ، وقد كتبت وكتبت ، ولا أطالبك بمثل
ما أنشأت فأقرأ ولك اليد . وناولته الرقعة فبقي وبقيت الجماعة وبهت وبهتت الكافة وقالوا لي :
أقرأه ، فجعلت أقرأه منكوسا وأسرده معكوسا والعيون تزرق وتحار وكانت نسخة ما أنشأناه .

بسم الله الرحمن الرحيم

• الله شاء إن المحاضر ، صدور بها وتملأ المنابر ، ظهور لها وتفرع الدفاتر ، وجوه بها
وتمشق المحابر ، بطون لها ترشق ، آثارا كانت فيه آمالنا مقتضى على أياديه ، في تأييده الله أدام
الأمير جرى فإذا المسلمين ظهور عن الثقل ، هذا ويرفع الدين ، أهل عن الكل ، هذا يحيط أن
في اليه نتضرع ونحن واقفة ، والتجارب زائفة ، والنقود صيارفة ، أجمع الناس صار فقد كريما
نظرا لينظر شيه ، مصاب وانتجعنا كرمه ، بارقة وشمناهمه على آمالنا رقاب وعلقنا أموالنا ،
وجوده وكشفنا آمالنا وفود اليه بعثنا فقد نظره بمجمل يتداركنا أن ونعماءه تأييده وأدام بقاءه الله
أطال الجليل الأمير رأى إن وصلى الله على محمد وآله الأخيار^(١) .

فلما فرغت من قراءتها انقطع ظهر أحد الخصمين وقال الناس قد عرفنا الترسل أيضا
فلما إلى اللغة ، فقلت : يا أبا بكر هذه اللغة التي هددتنا بها وحدثنا عنها وهذى كتبها وتلك
مؤلفاتها نخذ غريب المصنف إن شئت وإصلاح المنطق إن أردت والفاظ ابن السكيت إن
نشئت ومجمل اللغة إن اخترت فهو ألف ورقة وأدب الكاتب إن أردت ، وأقترح على أي

(١) هذا الخطاب في ظاهره مقلد ، ولكنه يقرأ من عكسه بسهولة فيقال :

« إن رأى الأمير أطال الله بقاءه ، وأدام تأييده ونعماءه ، أن يتداركنا بمجمل نظره ، فقد بعثنا إليه وفود آمالنا ،
وكشفنا له وجوه أحوالنا ، وعلقنا رقاب آمالنا على همه ، وشمنا بارقة كرمه ، وانتجعنا مصاب شيه ، لينظر نظرا كريما ،
فقد صار الناس أجمع صيارفة ، والنقود زائفة ، والتجارب واقفة ، ونحن نتضرع اليه في أن يحيط هذا الكل عن أهل
الدين ويرفع هذا الثقل عن ظهور المسلمين ، فإذا جرى الأمير أدام الله تأييده في أياديه ، على مقتضى آمالنا فيه ،
كانت آثارا ترشق لها بطون المحابر ، وتمشق بها وجوه الدفاتر ، وتفرع لها ظهور المنابر ، وتملأ بها صدور المحاضر
إن شاء الله .

باب شئت من هذه الكتب حتى أجعله لك نقداً ، وأسرده عليك سرداً ، فقال : اقرأ من غريب المصنف رجل ماس ، خفيف على مثال مال وما أساءه ! فاندفعت في الباب حتى قرأته فلم أتردد فيه ، وأتيت على الباب الذي يليه ثم قلت أقترح غيره ، فقالوا : كفى ذلك فقلت له : اقرأ الآن باب المصادر من أخبار فصيح الكلام ولا أطالبك بسواه ولا أسالك عما عداه ، فوقف حماره ، ونحمت ناره ، وقال الناس اللغة مسلمة لك أيضاً فهاتوا غيره ، فقلت : يا أبا بكر هات العروض فهو أحد أبواب الأدب وسردت منه خمسة أبحر بألقابها وأبياتها وعلمائها وزحافها ، فقلت : هات الآن فاسرده كما سردته فلما برد ضجر الناس وقاموا عن المجلس يفدونني بالأهات والأب ، ويشيعونه باللعن والسب ، وقام أبو بكر فغشى عليه وقمت إليه فقلت :

يعز عليّ في الميدان أنى قتلت ماسي جلدًا وقهرا
ولكن رمت شيئاً لم يرمه سواك فلم أطق ياليت صبرا

وقبلت عينيه ومسحت وجهه وقلت : أشهد أن الغلبة له فهلا يا أبا بكر جئتنا من باب الخلطة وفي باب العشرة ؟ وتفرق الناس وحبسنا للطعام ، مع أفاضل ذلك المقام ، ولما حلقتنا على الخوان ، كرعت في الجفان ، وأسرعت إلى الرغفان ، وأمعنت في الألوان ، وجعل هذا الفاضل يتناول الطعام بأطراف الأظفار ، فلا يأكل إلا قضمًا ، ولا ينال إلا شماً ، وهو مع ذلك ينطق عن كبد حرّى ويفيض عن نفس ملاى ، فقلت : يا أبا بكر بقيت لك منة وفيك مسكة :

يا قوم انى أرى الأموات قد نشروا والأرض تلفظ موتاكم إذا قبروا

فأخبرني يا أبا بكر لم غشّى عليك ؟ فقال : لحى الطبع وحى الفرو ، فقلت : أين أنت من السجع ، هلا قلت حمى الطبع وحى الصفع ! وقال السيد أبو القاسم : أيها الأستاذ أنت مع الجد والهلزل تغلبه ، فقلت : لا تظلموه ولا تطعموه طعاما يصير في بطنه مغصا ، وفي عينه رمصا ، وفي جلده برصا ، وفي حلقه غصصا ! فقال أبو بكر : هذه أسجاع كنت حفظتها فقل كما أقوله : يصير في عينك قذى ، وفي حلقك أذى ، وفي صدرك شبي ! فقلت : يا أبا بكر على

الألف تريد؟ خذ الآن: بفيك البراء، وعلى حامك الثرى، ولا أطعمك الخ... إلا من وراء، كما ترى فقال: أيها الأستاذ السكوت أولى بك ومالوا الي وقالوا:- ملكت فأسيح! فأبى أبو بكر أن يبقى لنفسه حمة لم ينفضها، أو يدخر علينا كلمة لم يعرضها، فقال: والله لأتركك بين الميات، فقلت: ما معنى الميات؟ فقال: بين مهزوم ومهذوم ومهشوم ومغموم ومحموم ومرجوم، فقلت، وأتركك بين الميات أيضا بين الميام والصدام والجذام والحمام والزكام والسام والبرسام والحام والسقام وبين السينات فقد علمتنا طريقة بين منحوس منخوس منكوس معكوس متعوس محسوس معروس وبين الخلاآت فقد فتحت علينا بابا بين مطبوخ مشدوخ منسوخ مسوخ مفسوخ وبين الباءات فقد علمتني الطعن وكنت ناسيا بين مغلوب ومسلوب ومرعوب ومصلوب ومركوب ومنكوب ومنهوب ومغضوب. وإن شئنا كلنا بهذا الصاع، وطاولنا بهذا الذراع، وعرضنا عليك من هذا المتاع، وكأثرناك بهذه الأنواع، ثم خرجت واحتجرت فقد كان اجتمع الناس وغلت الكروش، ولما خرجت لم يلقوني إلا بالشفاه تقيلا، وبالأفواه تجيلا، وانتظروا خروجه الى أن غابت الشمس ولم يظهر أبو بكر حتى حضره الليل بجنوده وخلع الظلام عليه فروته.

فهذا ما علقناه عن المجلس وأديناه، والسيد أطل الله بقاءه يقف عليه إن شاء الله.

١٦ - نمر بديع الزمان

١ - أول ميزة لبديع الزمان أنه يشعرك بفهمه للحياة ، فهو يتحدث عن أشجان وأغراض هي في صميمها ألوان للنفوس الانسانية . وإذا كان هناك كتاب يخاطبونك بما لا تفهم لأنهم يتحدثون عن نفس بعيدة عن نفسك ، وقلب أجنبي عن قلبك ، فإن بديع الزمان يطالعك بطائفة من الأزمات النفسية والروحانية هي أزماتك أنت لو درست نفسك وتطلعت الى وجدانك ، وهذا هو السر في أن بديع الزمان لا يزال أدهب حيا ، ولا تزال آراؤه وأفكاره قريبة منا على بعد العهد وتعاقب الأجيال . ومن العجب أننا نتقبل منه الزهو والخيلاء لأننا نشعر أنه في زهوه وخیلائه لا يكذب ولا يمين . ولننظر كيف يقول :

”فاني وإن كنت في مقتبل السن والعمر ، قد حلبت شطرى الدهر ، وركبت ظهري البحر والبحر ، ولقيت وفدى الخير والشر ، وصاغت يدي النفع والضر ، وضربت إبطى العسر واليسر ، وبلوت طعمي الحلو والمر ، ورضعت ضرعى العرف والنكر ، فما تكاد الأيام تريني من أفعالها غريبا ، أو تسمعي من أحوالها عجيبا . ولقيت الأفراد ، وطرحت الآحاد ، فما رأيت أحدا إلا ملأت حاقى سمعه وبصره ، وشغلت حيزى فكره ونظره“ .^(١)

٢ - وهذه الفقرة تمثل شعوره بأرزاء الدهر ونجبات الحياة ، وتمثل حرصه على أن يشغل البارزين من معاصريه . وقد كانت لبديع الزمان غضبات تظهر فيها فورات نفسه وهي مضطربة متأججة ، فترى في كتاباته صورة نفسه وهي تتوذب كما تتوذب ألسنة الحجيم ، كقولہ في خليفة أبي نصر الميكالى بهراة :

»وحدثت عن هذا الخليفة ، بل الجيفة ، أنه قال : قضيت لفلان خمسين حاجة منذ ورد ، هذا البلد ، وليس يقنع ، فما أصنع ؟ فقلت يا أحق إن آستطعت أن ترانى محتاجا فاستطع

أن أراك محتاجا إليك، أف لقولك وفعلك ، ولدهر أحوج لمثلک ! » ولیتأمل التشارئ
« ان استطعت أن ترانی محتاجا فاستطع أن أراك محتاجا إليك » فانه غاية في التهمك اللذاع .

وفي مثل هذا المعنى يقول من كلمة ثانية :

« هذا الخليفة يزعم أنى طعام ، فلا والله إن لحمي حرام ، وفيه عروق وعظام ، ولو كنت
طعاما لكنت الأكلة التي تمنع الأكلات ... ومن شمتني من خلف ، بخراؤه مائة ألف ، وإذا
انتهت الدعوة الى فقد عزل عزرائيل ، ولم يبق في ولايته الا قليل ، والله ما يصلح لحمي للقديد ،
ولا يحسن فوق الثريد ، وإنه ليأبى في المضغ ، وينشب في الخلق ، ويقلق في البطن ، ولا
يخرج من المعى إلا مع الأمعاء . وكانوا لا يصيدون ابن آوى ، وإن كانوا شهاوى » .^(۳)

۳ — وكان بدیع الزمان شديد الحقد على أبی بکر الخوارزمی ، وكان لذلك مغرما بالنیل
منه والوقوع فيه ، ومرض الخوارزمی ، فكتب أحد أصدقاء بدیع الزمان يهنئه بمرض عدوه
فغضب لذلك ورأى في هذه التهئة لؤما لا يرضى عنه كرمه ، ولا يغفر مثله نباله ، وقذف
صديقه ذاك بالكلمة الآتية :

«الحر، أطل الله بقاءك، لا سيما اذا عرف الدهر معرفتي، ووصف أحواله صفتي،
اذا نظر علم أن نعم الدهر ما دامت معدومة فهي أمانی، فإن وجدت فهي عواری، وأن
محن الزمان وإن مطلّت فستند، وإن لم تصب فكأن قد، فكيف يشمت بالحنة من لا يأمنها
في نفسه، ولا يعدمها في جنسه؟ والشامت إن أفلت فليس يفوت، وإن لم يمت فسيموت،
وما أقيح الشامت، بمن أمن الإمامة، فكيف بمن يتوقعها بعد كل لحظة، وعقب كل لفظة.
والدهر غرثان طعمه الخیار، وضمان شربه الأحرار، فهل يشمت المرء بأنياب آكله، أم
يسر العاقل بسلاح قاتله؟ وهذا الفاضل شفاء الله وإن ظاهرناه بالعداوة قليلا، فقد باطناه
ودا جميلا، والحر عند الحمية لا يصطاد، ولكنه عند الكرم يتقاد، وعند الشدائد تذهب

الأحقاد، فلا تتصور حالى إلا بصورتها من التوجع لعلته، والتحزن لمرسته، وقاد الله المكروه، ووقانى سماع السوء فيه، بحوله ولطفه» .

وهذه الرسالة من أعلى الرسائل فى أسلوبها، وموضوعها، وله رسالة تشبهها كتبها الى أبى حامر الضبي يعزیه فى بعض أقاربه وفيها يقول :

« أحسن ما فى الدهر عمومہ بالنوائب، وخصوصه بالרגائب، فهو يدعو الجفلى اذا ساء، ويختص بالنعمة اذا شاء، فلينظر الشامت فان كان أقلت، فله أن يشمت، ولينظر الانسان فى الدهر وصروفه، والموت وصنوفه، من فاتحة أمره، الى خاتمة عمره، هل يجد لنفسه، أثرا فى نفسه، أم لتدبيره، عوناً على تصويره، أم لعمله تقدماً لأمله، أم لحيله، تأخيراً لأجله ؟ كلا بل هو العبد لم يكن شيئاً مذكوراً، خالق مقهوراً، ورزق مقدوراً، فهو يحيا جبراً، ويملك صبراً . وليتأمل المرء كيف كان قبلاً، فان كان العدم أصلاً، والوجود فضلاً، فيعلم الموت عدلاً، والعاقل من رفع من حوائل الدهر ماساء ليذهب ماضر بما نفع، وإن أحب أن لا يحزن فلينظر يمينه، هل يرى إلا محنة، ثم يعطف يسرة، هل يرى إلا حسرة ؟ ومثل الشيخ الرئيس من تفتن لهذه الأسرار، وعرف هذه الدار، فأعد لنعيمها صدراً لا يملأه فرحاً، ولبؤسها قلباً لا يطيره جزعاً، وصحب الدهر برأى من يعلم أن للنعمة حداً، وللعارية رداً . ولقد نعى الى أبو قبيصة قدس الله روحه، وبرد ضريحه، فعرضت على آمال قومودا، وأمانى سودا، وبكيت والسخرى بما يملك، وضحكت وشر الشدائد ما يصحك، وعصضت الإصبع حتى أدبته، وذممت الموت حتى تمنيته، والموت خطب قد عظم حتى هان، وأمر قد خشن حتى لان، ونكر قد عم حتى عاد عرفاً، والدنيا قد تنكرت حتى صار الموت أخف خطوبها، وجنت حتى صار أصغر ذنوبها وأضمرت حتى صار أيسر غيوبها، وأبهمت حتى صار أظهر عيوبها . انخ » .

٤ — وهذه الرسالة تعطينا صورة من نفس ذلك الرجل الحساس . فهو هنا يدرس قيمة الانسان وينتهى بالدرس الى أنه أثر ضئيل بين آثار الوجود، فقد خلق من حيث لا يريد، ورزق من حيث لا يحتسب . فهو بهذا العربة صغيرة فى يد القدر يرفعها حين يشاء، ويرى بها فى الفناء حين يشاء .

ولا يقف بديع الزمان عند هذا الحد ، وإنما يمضى فيدعوك الى سياسة نفسك ، فيحدثك بأن من العقل أن تجسم حسنات الدهر لتضوّل بجانبها سيئاته ، ويروضك على أن تنظر حواليك لترى أن لكل إنسان نصيبه من بأساء الحياة ، ويدعوك الى أن تعد لنعم الدنيا صدرا لا يملؤه الفرح ، وقلبا لا يطيره الجزع ، وتلك هى السياسة الرشيدة عند من يفقهون .

وقد أعطانا البديع فى هذه الرسالة أجمل صورة للجزع عند فقد الأعزاء ، فقد أضحكك الحزن وأبكاه ، وحدثنا بأنه بكى لأن البكاء غاية ما يملك الحرفى رد العزيز المفقود ، وأنه ضحك لأن الشدائد المرة ترمى المحزون بقهقهة المجانين . وقد وصل البديع الى قرار الحكمة حين حدثنا بأن الموت خطب قد عظم حتى هان ، ووصل الى أسنى غايات الخيال حين حدثنا بأن الدنيا أهملت حتى صار الموت أظهر مافيه من العيوب . وهو بهذا ينظر الى الوجود وكأنه عدو فاجر لا ينتهى ما لديه من الشؤم الميِّت والشر المستطير .

هـ - لكن هذه السباحة النفسية ليست سمة غالبية فى بديع الزمان ، فهو فى أكثر الأحوال رجل ما كرخيخ ، ومقاماته تنتهى الى فلسفة واحدة هى السخرية من العالم واقتناص ما يملكون بشتى الحيل والمداورات من غير تورع ولا استحياء . ففى المقامة الأصفهانية يحتال أبو الفتح الاسكندرى فيحتجز المصلين فى المسجد ولا يزال بهم حتى يملأ جيئه ثم يقول فى السحر من أولئك المتصدقين :

الناس سُحْرٌ بِفَوْزٍ وَأَبْرَزَ عَلَيْهِمُ وَبَرَزَ
حتى اذا نلت منهم ما تشتهيه ففروز

وفى المقامة المكفوفية ينشد أبو الفتح^(١) بعد أن يصل الى بغيته وقد تعامى طلبا لئال :

أنا أبو قلمون فى كل لون أكونُ

إختر من الكسب دونا فان دهرك دون

زج الزمان بمحق إن الزمان زبون^(٢)

(١) أبو قلمون ثوب ررمى من الأبريسم يظهر العين فى ألوان مختلفة بصناعته .
(٢) الزبون : الناقصة التى تدفع بنفقات رجلها عند الحلب .

لا تكذبن بعقل ما العقل إلا جنون

وفي المقامة القزوينية يعترف أبو الفتح بأن النسبة صورة من صور المنافع ويقول :

أنا حالي من الزمان كحالي من النسب

نسبي في يد الزمان إذا سامه أنقلب

أنا أمسى من النبوة ط وأضحى من العرب

وفي المقامة الساسانية يقول :

هذا الزمان مشوم كما تراه غشوم

الحق فيه مليح والعقل عيب ولوم

والمال طيف ولكن حول اللثام يحوم

وهذه الأبيات تمثل حقه على الأغنياء، ورميه إلى أن كل غنى لئيم، ومثل هذا قوله

في المقامة البصرية :

الفقر في زمن اللثام لكل ذي كرم علامة

رغب الكرام إلى اللثام^(١) وتلك أشرار القيامة

٦ - والذي يتصفح رسائل بديع الزمان ومقاماته يراه في أكثرها يحارب معاصريه

من الكتاب والرؤساء، ولا يقع نظره على الجوانب الطيبة من حياة الناس إلا قليلا . ولا يمكن

أن تكون لبديع الزمان سياسة نفسية غير تلك الخطبة الصاخبة التي ألفها في حياته وهي العنف

المطبق في البحث عن أسباب الغنى والجاه . ومن دلائل حقه وبغيه أن واليا عزل

وكتب إليه بعد عزله يستميل فؤاده، فكتب إليه البديع يؤنبه ويصوره بصورة المعشوق الذي

انقضت أيام حسنه ولم تبق منه بقية يستميل معها الدلال . فمن تلك الرسالة قوله :

(١) وقد تهكم بديع الزمان بالأدب وأهله عيرمة . راجع ص ٣٩٦ حيث ترى أنه يرى الأدب واللغة والتفسير

ضروبا من الحق « لا يبيع بها ذوق عقل باقة بقل » وفي ص ٢٢٢ يرى أنه لا قرابة بين الأدب والذهب وأن الأدب

لا يمكن ترده في قصعة ، ولا صرفه في ثمن سلعة ، الخ .

”تناسيت أيامك إذ تكلّمنا نزرًا، وتلحظنا نزرًا، وتجالس من حضر، ونسترق اليك النظر، ونهتر لكلامك، ونهش لسلامك . فأقصد الآن فانه سوق كسد، ومتاع فسد، ودوله عرضت، وأيام آنقضت :

وعهد نفاق مضى وخطب كساد نزل
وخدّ كان لم يكن وخطّ كان لم يزل

ويوم صار أمس، وحسرة بقيت في النفس، وثرغ فاض مأؤه فلا يرشف، وريق خدع فلا ينشف، وتمايل لا يعجب، وتثن لا يطرب، ومقلة لا تجرح الحاظها، وشفة لا تفتن ألقاظها! وقد بلغني الان ما أنت متعاطيه من تمويه يجوز بعد الفلق، في الذسق... وإفناك لتلك الشعرات حفا وحصا . وسيكفيها الدهر مؤونة الانكار عليك، بما يرف من بنات الشعر وأمهااته اليك .

ما يفعل الله باليهود ولا بعاد ولا ثمود
ولا بفرعون إذ عصاه ما يعقل الشعر بالحدود^(١)

وهي رسالة طويلة اكتفينا منها بهذه الفقرات، وقد تأثر بهذه الرسالة وحاكاها في أسلوبها وموضوعها جماعة من الكتاب أشهرهم في المتقدمين أبو المغيرة الوزير عبد الرحمن بن حزم الأندلسي وأشهرهم في المتأخرين المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويز .

٧ -- ولو كان لبديع الزمان غرض يرمى اليه في مجموع كتاباته لوصل الى أبعد حد من حدود النجاح لأنه أبرع من حمل القلم بين أهل عصره، ولا نعرف كاتباً التزم السجع ووفق الى الدقة والرشاقة والعذوبة كما وفق بديع الزمان . والقاعدة التي اختارها أساساً لفلسفته وهي سوء الظن بالناس تلاشى أثرها في مقاماته لأنه أعطى لبطل تلك المقامات صورة مشوّحة هي صورة الاستجداء، ثم التزم منها واحداً لا يختلف إلا قليلاً بحيث لا يبدأ القارئ إلا وهو يعلم ما ستتهى اليه المقامة .

ومهما يكن من شيء فلن يمكن نكران ما وفق اليه بديع الزمان من نقد طائفة كبيرة من خصال اللؤم والنفاق والضعّة والإسفاف، وما الى ذلك من الهنات التي يوصم بها من تساعدهم الظروف على التغلب والاستعلاء، ثم لا يكونون في أنفسهم وفي سلوكهم إلا برهانا على فساد الحياة ونقص الأحياء .

١٧ - عبد العزيز بن يوسف

١ - كان أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف كما وصفه الثعالبي «أحد صدور المشرق»^(١) وفرسان المنطق» وكان مع تقلده ديوان الرسائل لعضد الدولة طول أيامه معدودا في وزرائه، وخواص ندمائه، وتقلد الوزارة بعده لأبنائه^(٢). وكان الصاحب بن عباد يقول: كتاب الدنيا أربعة: الأستاذ ابن العميد وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف وأبو إسحاق الصابئي، ولو شئت لذكرت الرابع، يعني نفسه^(٣).

وجملة أخباره تدل على أنه كان في زمانه من أعلام الكتاب.

٢ - ويظهر مما أثر من أخلاقه أنه كان رجلا كريم النفس. وقد شفع لأبي إسحاق الصابئي عند عضد الدولة في ساعة غضب، وتفصيل ذلك أن قوما سعوا لإخراج الصابئي من السجن فقال عضد الدولة «قد سوغت نفسه: فان عمل كتابا في مآثرنا وتاريخنا أطلقته» فشرع الصابئي في محبسه في تأليف كتاب في أخبار بني بويه، وقيل إن بعض أصدقائه دخل عليه الحبس وهو في تبييض الكتاب وتسويده فسأله عما يعمل فقال: أباطيل أنعمتها، وأكاذيب ألفتها» فخرج الرجل وأنهى ذلك إلى عضد الدولة - ودسأس الأصدقاء كثيرة يمانها الأحرار في جميع الأزمان! - فأمر عضد الدولة بإلقاء الصابئي تحت أرجل الفيلة، فأكب أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ونصر بن حازم على الأرض قبل أن يلقى ويشفعون إليه في أمره حتى أمر^(٤) بأستحيائه.

٣ - والظاهر أن صلبه بالصاحب والصابئي كانت صلة ووداد، ورسائله إلى الصاحب كثيرة، ولكن تغلب عليها صفة التودد المنسوب بالتملق. أما رسائله إلى الصابئي فتفيض بالعطف والحنان.

(١) البيهقي ج ٢ ص ٧٦ (٢) البيهقي ج ١ ص ٨٧ (٣) ماقوت ج ١ ص ٣٢٨ (٤) ياقوت ج ١ ص ٣٢٥ (٥) راجع هذه الرسائل في البيهقي ج ١ ص ٩٢ - ٩٤

وأنظر هذه الرسالة :

« وصل كتاب مولاي بما قرب الى جناده ، وبعد على مداه ، من محاسن لفظه ونظمه ، ومبازه التي ما يزال يؤثر فيها بالרגائب ، ويصفيني منها بالعقائل . فوقفت منه بين اعتبار واقتباس ، واعتدار وأغتراب ، واستبصار في موضع الفضيلة ، وشكر لما جمع الله لي في وده من المنح الجزيلة ، ووجدت خطابه مفتتحا بشكوى الأيام في انحرافها ، ومكاره أحداثها ، فاستوحشت منها لاستيحاشه ، واستعديت عليها لاستعداداته . وشأيت المهجنين لاثارها ، والزارين على أحكامها ، لاعتراضها دون آماله ، وقدحها في أحواله ، ولم يستبق الجمال لنفسه والفضل لأهله ، دهر أناخ على مولاي بصرفه ، وأخترله دون واجب حقه » .

٤ — وتمتاز رسائله في الاخوانيات بترصيعها بحبات شعره ، فقد ابتدأ إحدى رسائله الى صاحب هذه الأبيات :

كتاب لو أن الليل يرمى بمثله	لألقت يدا في حجرتيه ذكاء
تهادى بأبكار المعاني وعونها	وأعيان لفظ ما هن كفاء
شواهد لولا أنهم أوالف	ضرائر إلا أنهم سواء
لبسنا بها نعى وألبست الربا	نمائل روض جادهن سماء
بنان ابن عباد تعلين نوءه	وما صوبه إلا حيا وحباء

وثلاث كتب تناظرت في الحسن والاحسان ، وتقابلت في البر والإنعام ، لا زالت أياديه قلائد الأعناق ، ومراميه مضامير السباق ، ولا آنفكت عين الله حامية له ، وكافلة به .

ويظهر أن الصابي كان كذلك يرصع رسائله بالشعر بدليل قول أبي القاسم من رسالة ثانية :

« وقفت على الابيات التي أتخفى بها سيدي ، وتكلفت لجوابها على طلع في خاطري لطول السفار ، وأتصال حالي بالحل والترحال . ومولاي يأخذ العفو ويرضى بالميسور ، ويعذر

(١) البيمة ج ٢ ص ٩٤ (٢) معطوف على (حيا وحباء) وبذلك يتبين القارئ مهارة الكاتب في وصل الشعر بالنثر في سياق واحد . (٣) البيمة ج ٢ ص ٩١

مستأنفا على التقصير في جواب ما يأتيني من أمثاله ، مادمتا في ملكة الذواجر، وتعب البكر^(١)
والأصائل» .

٥ — ومن الفنون البارزة عند أبي القاسم وصف الرسائل الاخوانية ؛ كقوله في وصف رسالة للصباي :

«عرفت كيف تتنظم فرق البلاغة ، وتلتقي طرف الخطابة ، وتترامى أشخاص البيان ،
وتتأيل أعطاف الحسن ، والاحسان ، وقرأت لفظا جليبا ، حوى معنى خفيا ، وكلاما قريبا ،
رمى غرضا بعيدا ، وفصولا متباينة كساها الائتلاف صور المشاكلة ، ومنحها الامتراج صيغة
المضارعة ، ولحمة الموافقة ، فصارت لدلالة الأقول منها على الثاني ، وتعلق العجز فيها بالهادي ،
أولاد أرحام مبرورة ، وذوات قربي موصولة ، تتعاطف عيونها ، وتتأنف أبكاها وعونها» .^(٢)

٦ — وعند تأمل رسائله نجده يحسن الوصف . كقوله من كتاب له الى الصاحب في فتح عمان وإبادة الزنوج بها وما وصل الى عضد الدولة من المغائم :

« ... وكانت لأولئك الكفرة عادة آشتهرت منهم في استباحة الناس وأكل لحومهم ،
وبلغ من كلبهم على ذلك أنهم كانوا ينتقلون بينهم اذا شربوا بأكف الناس ، وسأل مولاى
عن هذا النقل الغريب فحكى لى عنهم أنه لا شيء في الانسان ألد من كفه وبنائه ، وكان
في ذلك اليوم الذى شارف فيه طلائع العسكر المنصور باب عمان ثار من بعض المكامن
طوائف من أولئك الكلاب فكبأ ببعض العلمان دابته فأختاسوه وأقتسموه بينهم وأكلوه
في الوقت ، وتعجب الناس من ضراوتهم وقساوتهم ، وقد أبادهم الله تعالى جده ، وطهر البر والبحر
من عيشهم ومعرتهم ، فأنقاد أهل جبال عمان باخعين بالطاعة ، معتمدين بذمة الجماعة ، وتمت
نعمة الله على مولانا في هذا الفتح ، وجلت له مقام الأجر ، ووصل أمس غنائم تلك الناحية
وفيها فيل صغير بقى الفرس ما عرف ألطف ولا أظرف منه ، وفي الغنائم كل ما تشتهى

الأنفس وتلد الأعين . والله تعالى يحني مولانا ثمار الأرض برا وبحرا، وسهلا وجبلا،
بمنه وكرمه . آمين .“

٧ — وكانت له بحكم منصبه جولات في الرسائل السلطانية، تذكر منها قوله من كتاب
عن الطائع لله إلى ركن أسوة لما ورد عضد الدولة العراق :

”فأنت وعضد الدولة — كلاهما ! — يدا أمير المؤمنين فيما يأخذ ويذر ، وناظرهما
فيما يقرب ويبعد ، يكما أترش مهاد الملك بعد قضاءه ، ورفع منار الدين بعد انخفاضه ، فأبشرا
من الله تعالى بالحسن ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين“ .^(١)

ومن كتاب عن عضد الدولة في عود الطائع إلى بغداد والتقاءه معه :

”ولما ورد أمير المؤمنين بالنهر وان أتم بالاذن لنا في تنقيه على الماء ، فامتثلناه وتقبلناه
وتقانا من عوائد كرمه ، ونفدت شيمه ، وانخائل الواعدة بجيمل آرائه ، وعواطف أنجائه ،
ورعاية ما كشتنا منه ، وشايعة عزه ، إلى أن وصلنا إلى حضرته البهية ، في الجديدية ، التي
استقبلت منه بسيل الملك ، وقعيد الخلافة ، وسيد الأزم ، والمستنزل بوجهه در الغمام ، فتكفأت
علينا ظلال نوره وبشره ، وغزتنا جيات تفضله وفضله ، وقرب علنا سن خدمته ، وأذلنا
شرف القعود بين يديه ، على كرسي امر بنصبه لنا عن يمينه ، وأمام دسته ، وأوسعنا من جميل
لقيائه ، وكريم نجواه ، ما يسيم بالعر أغثال النعم ، ويضمن الشرف في النفس والعقب ، ويكفل
من التور في الدين والدنيا بغيات الأمل . وكان لنا في الوصول إليه ، والقعود بين يديه ،
في مواقع الحفاظه ، وموارد التفظة ، مراتب لم يعطيا أحد فيما سلف ، ولم تجد الأيام بمثلا
لن تقدم“ .

٨ — وليس بين أيدينا من أخباره ورسائله ما يعطينا صورة صحيحة من نفسه
وأخلاقه ، والذي يمكن الجزم به أنه كان دقيق العبارة رصين الأسلوب ، وإلى القارئ هذه
الكلمات مقتبسة من رسائله القليلة التي أعثاها الزمان من الضياع .

”وأجنهم الليل فادرعوه مقتادين بخزائم أنوفهم، الى مصارع حتوفهم“ .

”سار الى سدة دار الخلافة والسعود تشايه، والميامن توابكه، وطلائع الآمال تشرف عليه، وثغر الاسلام يتسم اليه“ .

”وقد كان الغضنفر بن حمدان حين نفضته المذاهب، ولفظته المهارب، وأقلقته عن مجاثمه المكاييد والكثائب، تطوع الى بلاد الشام يتنقل بين مصارع يحسبها مراتع، ومجاهل يعدها معالم، يروم آتعاشا واجلد خاذله، ويبنى آتياشا والبغى طالبه“ .

”ولما ضاق عن هذا المخدول حلمنا باتساع غوايته، ووعر الطريق الى أستبقائه، استخرنا الله تعالى في استرجاع ما ألبسناه من النعم“ .

”إن الله سائلك عن الخطرة والخطفة، والخطوة واللفظة“ .

”أدرع من ثوب عفافك، ما يشمل كافة أطرافك“ .

”احذروا أن ينقلكم الله بأقدامكم، الى مصارع حمامكم“ .

”التقوى هى العدة الواقية، والجئنة الواقية، والتجارة الراجحة، والسعادة السانحة، والجلء للشبهة، والضياء للغممة“ .

”سيعيذ الله من حرّ الهواجر برد الظلال، ومن قلق الركاب، نجيح الإياب“ .

”أيقظوا قلوبكم من سنة الخواطر، وأحبسوا ألسنتكم عن محظور المناظر“ .

الفهرس المفصل

الباب الرابع كتاب النقد الأدبي

صفحة	صفحة
٢٢ أثر الخلقة الطبيعية	١ - أبو الحسن الجرجاني
٢٣ ما هو الجزل وما هو الرقيق	القاضي إنسان له عواطف وأهواء ... ٧
٢٤ إشارة إلى ما نقله عن السالفين من النقاد	وصف جرجان وما كان بها من نعيم ... ٨ ٧ ٨
٢٥ ٢٤ الفرق بين الشعر والدين	وفاء أبي الحسن لجرجان ٨
٢٦ ٢٥ رأى مؤلف هذا الكتاب في حدود	أسفاره وأعماله ٩
٢٦ ٢٥ الشاعرية	مؤلفاته في الأدب والفقه والتاريخ ... ١٠ ٩
٣ - ابن فارس	إبائه وعزته ١٠
٢٧ مولد ابن فارس ومذهبه وأشياخه	نماذج من شعره في التصون والعفاف ... ١١
٣٠-٢٨ ما وقع بينه وبين تلميذه بديع الزمان	اعتذاره من الانقباض عن الناس ... ١٢
٣٠ منزلته الشعرية والنثرية	تفريده على أفنان الجمال ١٣
٣١ نماذج من شعره	وصفه لنعيم الحواس ١٤
٣٢ كتاب الصاحب	حنينه إلى ليالى بغداد ١٥
٣٢ حياته العقلية بين التجرد والجود	رقة الشوق ١٦
٣٣ إنكاره أن يكون للفلسفة شعر وإعراب	٢ - نقد آراء الجرجاني
٣٤ ٣٣ الجانب المشرق من حياته العقلية	كيف ألف كتاب الوساطة ١٧
٣٦ ٣٥ نماذج مما استجاده من شعر المحدثين	أخوة الأدب وحقوقها المفروضة ... ١٨ ١٧
آراء ابن فارس في فقه اللغة	أغلاط الجاهليين ١٩ ١٨
٣٨ ٣٧ نقد رأى السنيور جويدي	التعسف في الدفاع عن أشعار الجاهلية ٢١ ٢٠
٣٩ ٣٨ ما هو فقه اللغة في رأى الثعالبي وابن فارس	أثر المكان والطبع في رقة الشعر وجفافه ٢٢ ٢١

صفحة	موضوع
٤٠	رأى آبن سيدة وآبن جنى
٤٠	أول من كتب بالخط العربى
٤١	رأيه فى التوقيف والاصطلاح
٤٢	رسم المصحف
٤٢	رأيه فى نشأة العلوم لغربية
٤٣	رأيه فيما جهل أصله من اعتبار
٤٥	نقد هذا رأى
٤٥	اللائظ المبهمة المدلول
٤٥	خصائص اللغة العربية
٤٦	تعليل ما عرف من كثرة المترادفات
٤٧	تأثير التقليم فى اللغات
٤٨	٤ - النقد عند آبن شهيد
٤٨	الفرق بين البيان وبين النحو والتصرف
٤٩	التندير بالنحاة والمعلمين
٤٩	كلمة الجاحظ فى معلم النحو ومعلم البيان
٥٠	نقد رأى الجاحظ وآبن شهيد
٥١	محاورة آبن شهيد لتلاميذه من العرب
٥١	واليهود
٥٢	الأنساب والقربات بين الحروف
٥٢	اختلاف البلاغة اختلاف أقدار مخاطبين
٥٣	الشعر الذى يوضع للجدتين
٥٤	مثل فى مقدور كل بلغ أن يصل الى كل
٥٤	غرض
٥٤	البلاغة صرب من السياسة النفسية
٥٥	سر البلاغة يرجع الى الطبع
٥٦	حل الأجسام من صور النفوس ؟

صفحة	موضوع
٥٧	كيف حرم الجاحظ من شرف المنزلة
٥٧	وكيف سبقه آبن ازيات وإبراهيم
٥٨	ابن العباس
٥٨	نقد رأى آبن شهيد فى ذلك
٥٩	٥ - أبو بكر الباقلانى
٥٩	حياته
٥٩	تصويره لما كان فى زمانه من أزمة عقلية
٦٠	موقفنا من درس إعجاز القرآن
٦١	الموازنة بين القرآن وبين غيره من الكلام
٦١	نتيجة هذا البحث
٦٢	نقد رأى الباقلانى
٦٣	الفرق بين القرآن وبين غيره من الكتب
٦٣	الربانية
٦٣	لماذا لم يصف الله التوراة والانجيل
٦٣	بالاعجاز ؟
٦٤	شرح أسرار تفوق اللغة العربية
٦٤	نقد رأى الباقلانى ورأى المسيو مرسية
٦٥	بين اللغة العربية واللغات الأجنبية
٦٥	أثر الغرور القومى
٦٦	ليس القرآن من جنس كلام العرب
٦٦	نقد هذا رأى
٦٧	رأينا فى الفوارق بين اللغات
٦٨	سر البلاغة والنصاحة يرجع الى
٦٨	ما فى المعنى من قوة وروح
٧١	بين القديم والجديد
٧٢	نقد من كانوا يرون أن البلاغة لا ترجع
٧٢	الى المعانى

صفحة	
٩٢	تجنب البحترى للغريب
٩٣	السهو والغلط عند المتقدمين
٧	أبو هلال العسكري
٩٤	تحقيق تاريخ وفاته
٩٥٩٤	أبو أحمد العسكري
٩٦	إباء أبي هلال
٩٦	شعره في التوجع لحظ الأديب
٩٦	صلته بالصاحب بن عباد
٩٨٩٧	دفاعه عن أدب الصاحب
٩٩٩٨	تحامله على المتنبي
٩٩	نثر أبي هلال
١٠٠	نماذج من نثره
١٠١	نماذج من شعره
٨	كُتاب الصناعتين
١٠٣	الناية من علم البلاغة
١٠٤١٠٣	جوده كُتاب الصناعتين
١٠٥١٠٤	عذبة الأدب على هذا الكتاب
١٠٦	إعماله لأكثر أسماء الشعراء والكتاب
١٠٦	سرايا بلاغه عند أبي هلال
١٠٧	حسن اللفظ موقوف على جمال المعنى
١٠٧	السهل المنتفع
١٠٨	الكلام بالجزل
١٠٩	المدار على إصابة المعنى
١١٠١٠٩	أطاييب من الأدب

صفحة	
٧٤٧٣	شواهد من القرآن بلاغتها في معانيها
٧٦-٧٤	شواهد من كلام العرب وأشعارهم
٧٦	مناقشة بعض السرقات الشعرية
٧٧٧٦	أهمية الألفاظ والأساليب
٧٧	الباقلافي ينفي السجع من القرآن
٧٩-٧٨	خطأ هذا الرأي
٨١٦٨٠	غلط في فهم السجع
٦	أبو القاسم الآمدي
٨٢	حياته ومذهبه في الأدب
٨٣	نماذج من شعره
٨٤	معرفة لنفسية أدعاء الأدب والبيان
٨٥	رأيه في الحاسة الفنية
٨٦	هل يمكن كسب الذوق بكثرة الممران
٨٦	إثارة الشعر المطبوع على المصنوع
	يفتخر للأعراب ما لا يفخر للشعراء
٨٧	المثقفين
	مسألة العمل والإغراب بإثارة وحش
٨٧	المعاني والألفاظ
٨٨	دخل هذا الاتجاه في
٨٩	الحن لا يعرى منه
٨٩	بين صاحب أبي تمام وصاحب البحترى
٨٩	اجتماع أبي تمام والبحترى لأول مرة
٩٠	التعليق والإسفاف عند هذين الشاعرين
٩٠	هل أبدع أبو تمام مذهب البديع
٩١	غربة شعر أبي تمام وحسد معاصريه

صفحة	عنوان	صفحة	عنوان
١٢٠	إشاره لمذهب المعتزلة	٩	أبو على الحاتمي
١٢٠	تحميل معاصريه	١١١	حياته وأدبه
١٢١	مؤلفاته المختلفة		مثل القصيدة مثل الانسان في اتصال
١٢٢	عنايته بجمع أشعار الثقافة الأدبية	١١٢	بعض أجزائه ببعض
١٢٢	كتاب الموضح	١١٢	القدماء والمحدثون
١٢٣	جمعه للتواخذات الشعرية	١١٣	براعته في نقد الشعر
١٢٤	تجنیه على أبي تمام	١١٣	مسير في نحول الحاتمي هو صلفه وكبرياؤه
١٢٤-١٢٦	سوق المآخذ بدون تمحيص	١١٤	صطدامه بالمتنبي
١٢٧	وحدة البيت ووحدة القصيدة	١١٥	بصفه لعطسة المتنبي
١٢٨	دقة الوصف	١١٦	إرسالة الحاتمية
١٢٨	تقييد ما يؤثر عن أخلاق الشعراء	١١٧-١١٩	بناقشة هذه الرسالة
	الناس يعيشون في رذائلهم أضعاف		
١٢٩	ما يعيشون في فضائلهم	١٠	أبو عبد الله المرزباني
١٣٠	بعض الفكادات	١٢٠	حياته وإدماته على الشراب

الباب الخامس

كتاب الآراء والمذاهب

صفحة	عنوان	صفحة	عنوان
١٣٨	شخصيته الفلسفية	١	أبو حيان التوحيدى
١٣٩	رأيه في حياة أهل الجنة	١٣٣	أسرار العبقرية
١٣٩	حياته الوجدانية	١٣٣	مولد التوحيدى ونحول نشأته
١٤٠	كتاب الصداقة والصدق	١٣٤	ثورته على الحياة والأحياء
١٤١	براعته في تصوير الصداقة والحب	١٣٤	اتصاله بالصاحب ونحوله عليه
١٤٢-١٤٣	تحليل العواطف والأهواء	١٣٥	ثورة نفسية
١٤٣-١٤٤	صورة فنية لمودة صديقين	١٣٦	إحراقه لكتبه وغضبه على الناس
١٤٣	رأيه في الشريعة والفلسفة	١٣٧	هجاؤه لمعاصريه
١٤٤	إخوان الصفاء	١٣٧	حديثه عن ابن مسكويه